فاروق أوهان

الأبعاد الدرامية
في السّير الملحمية الدينية



الأبعاد الدرامية
في
السيّر الملحمية

دراسة مقارنة
بين
الجمعة الحزينة
و
التعازي الحسينية

فاروق أوهان

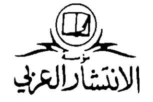


Arab Diffusion Company

فاروق أوهان

الأبعاد الدرامية
في
السِير الملحمية الدينية

دراسة مقارنة
بين
الجمعة الحزينة
و
التعازي الحسينية



ص.ب 113/5752

E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت-لبنان
هاتف: ٩٦١-١٦٥٩١٤٨ فاكس: ٩٦١-١٦٥٩١٥٠

الطبعة الأولى ٢٠٠٦

المحتويات

الفصل الثاني
ماذا في التعازي؟

الفصل الثالث
آثار الأفعال الدرامية والملحمية التعازي

الإهداء

إلى كل الشهداء

إلى من قدموا أنفسهم ضحايا

لخدمة الإنسانية

❁ ❁ ❁

المقدمة

ربما يقول البعض: ما جدوى دراسة مقارنة من هذا النوع، أليس هي نوع من التهويم في أطر لا علاقة بينها، ولربما يكون الابتعاد فيها، وهو الآخر نوعاً خاصاً، ولا يخرج بنتائج حيوية بل وجادة؟

نعم ربما يكون هو التصور الأول خصوصاً لغير المعنيين سابقاً، ولأن الدراسة تعتني بالدرجة الأولى بالجانبين الاجتماعي والمسرحي... ويربطهما الفعل الاحتفالي لكلا الطرفين، فإن الدراسة بالقدر الذي تقترب كثيراً من الهواجس والانفعالات الذاتية، والروحية. إلا أنها تحرص كبير الحرص على احترام وتقدير الواعز الديني، ولا تتدخل في صلبه، لأن هذا الأمر ليس من اختصاصها، ومما يراد إبعاد الشك لدى البعض. ومن جهة ثانية فإننا بتسليطنا الأضواء على فعاليتين متجذرتين في الضمير الإنساني الشرقي، يعنينا بالتأكيد مدى تأثير الواعز الديني والهاجس النفسي اللذين هما من العناصر الهامة في ديمومة هاتين الفعاليتين على الرغم من مرور زمن طويل على نشأتهما. ولربما كان الداعي الأول للدراسة هو ما ألهمته السير الدينية لدى الفنانين «المسرحيين» بالذات. فعلى سبيل المثال فقد ألهمت الأناشيد و«التعديدات» الحزينة، والحركات الإيقاعية الجماعية الواردة في التعازي الحسينية العديد من الفنانين المسرحيين، ممثلين أو مخرجين، وبخاصة من العراقيين لاستخلاص بعض رموز السيرة «الحسينية». خصوصاً وأنها انعكست بدورها على طبيعة الفرد العربي. وظهرت في مآتمه وتعازيه الاجتماعية، أو في حالات حزنه، فأخذ هؤلاء يستخدمون بعض تأثيرات هذه السيرة وبخاصة أداء الرواة للمسرحيات، التي توظف الراوي فيها. استفاد الممثل والمخرج من طريقة عمل الراوي الحسيني، وليس غريباً تشبيه هذا الراوي بالممثل «البريختي» من قبل كثير من الباحثين والفنانين المسرحيين العرب. وبخاصة المسرحي العراقي «إبراهيم جلال» الذي يصف الشيخ «مصطفى متولي الشعراوي»، كمثال للتشبيه من حيث موضع الجلسة، وطريقة الأداء الإيمائية، والتعامل مع المتلقي، من خلال التلاعب بمستويات الأداء الصوتي «طبقة، ودرجة»، كذلك الحال بالرواة

المختصين بالتعازي الحسينية، كان من أهمها طريقة أداء الراوي المرحوم السيد «عبد الزهرة الكعبي» وهو يجلس في حلقته. أما الممثل فقد استعان بتلوينات الراوي في أدائه من جهة. وبإيقاعات وحركات ضرب الصدور واللطم القاسية، والتي تحتاج لظرف خاص، وحدث مشابه من جهة ثانية. وهذان لاحظناهما في غالب المسرحيات العراقية التي استدعت التراث وبخاصة التراث العراقي منه. ابتدأها المخرجون، وطوّرها الممثلون، نخص بالذكر مثالين هما: الممثل «أزهر جواد» من أبناء بلدة الراوي «عبد الزهرة الكعبي»، «طويريج» الذي قام بتقليد أسلوب الكعبي في الرواية عند تمثيله لدور الراوي في مسرحية «السؤال» من تأليف «محيي الدين زنكنة»، وإخراج «جعفر علي»، وتقديم فرقة مسرح اليوم العراقية لعام ١٩٧٣. وكان الدور المناسب الآخر للفنان «خليل شوقي» الذي أدى دور الراوي في مسرحية «كان يا ما كان» من تأليف وإخراج «قاسم محمد»، وتقديم فرقة «المسرح الفني الحديث» العراقية للعام نفسه على الأكثر. كذلك ما يقوم به المخرج المسرحي العراقي المغترب «جواد الأسدي» في أغلب أعماله المسرحية، وبخاصة لوحة «الخبز» في مسرحية «مغامرة رأس المملوك جابر»، من تأليف «سعد الله ونوس» وتقديم «المعهد للفنون المسرحية» في دمشق لعام ١٩٨٤. ولوحة «الطوفان» في مسرحية «خيوط من فضة» من تأليفه، وإخراجه، وتقديم فرقة «المسرح الوطني الفلسطيني»، وبخاصة أداء الممثلة السورية «ندى حمصي» في المشهد إياه.

إن ما نود البحث عنه في دراستنا المقارنة هذه هو التأكيد على الجوانب المضيئة في فعالية سيرتين هامتين في الضمير الإنساني المشرقي وإبراز العناصر المتقاربة بينهما من جانب. وربط مقوماتها التاريخية، وقواسمها المشتركة من جهة ثانية ليس للفائدة العلمية المسرحية فحسب، وإنما لكل مهتم بالعلاقة الاجتماعية لظواهر يحار تفسير رموزها التي يخشى تفسيرها، ويهاب التوصّل لمنابع جذورها التي لم تنشأ بالتأكيد اعتباطاً، ولم تنتظم في هاتين السيرتين إلا لأنها تختص بالجوانب الروحية الهامة في الضمير الجمع الإنساني الاجتماعي.

أبواب الدراسة وفصولها

لهذا فقد قسّمت الدراسة حسب التالي:

١ - المقدمة: وقد وضّحت فيها منهجية العمل في الكتاب؛ كما سيرد.

٢ - التمهيد: شرحت فيه كل ما يتعلق بالمرجعية التاريخية؛ والفكرية؛ والطقسية التي تندرج تحت تسميات الظواهر المشرقية للاحتفاليات الدينية؛ وغيرها من احتفاليات قبل مسرحية، لها علاقة بشكل أو بآخر بالسير الدينية إما مشابهة، أو متكررة، أو مناقضة.

٣ - الفصل الأول: يأتي هذا الفصل تحديداً للدخول في أبعاد جمعة الآلام من خلال تحديد موقعها ضمن الحياة الدينية والاجتماعية، والطقوس التي تمارسها الطائفة المسيحية من جهة، وعلاقة جمعة الآلام بالسياق السنوي للاحتفالات المحددة في أجندة الكنيسة؛ وعلاقة أغلبها بجمعة الآلام ومن خلالها سوف يتم ليس فقط موقع الجمعة بين المناسبات الطقسية ذاتها فحسب، وإنما أيضاً آلية هذه الفعاليات، وتفاعلها مع بعض. لهذا كان مفتاح الذهاب لأية فعالية في الدراسة منطلقاً من جمعة الآلام والعودة إليها. إضافة لما لعلاقتها كافة بالرمز والمرموز بين واقع الممارسة، وماهية الحادثة.

٤ - الفصل الثاني: ويختص هذا بالتعازي الحسينية، وتجذّرها في الضمير الجمعي الإنساني، وضّحت الدراسة مساق الاحتفالية، من الناحية الدرامية، وتأثير أساليب الرواة، والمنشدين على الحس الوجداني، وموقع الفعاليات الدرامية الشعبية، المؤطرة بين الحس الفطري، والواعز الديني، من خلال مرجعيات هامة بعضها مكتوب مثل حادثة الطف ومقتل الحسين، وكتب دوّنت الأشعار المروية، والأناشيد المعروفة... إضافة لتحليل هام ربما لم يتطرق له أحد من قبل وهو تحليل أشرطة للراوي المشهود السيد عبد الزهرة الكعبي الذي ما تزال طريقته مؤثرة في الكثير من السادة والرواة اختصت الدراسة بكلا المادتين لحادثة المقتل وذكرى الأربعين. كل هذا مشفوع بالمشاهدة العيانية، في الوطن وفي الخليج.

٥ - الفصل الثالث: الاهتمام بالآثار الهامة لأبعاد الأفعال الدرامية والملحمية في السير الدينية من خلال استجواب ومقابلة الخطباء من السادة والقسس على حد سواء. إضافة لتحليل جديد لمسرحيتي الحسين ثائراً، والحسين شهيداً لعبد الرحمن الشرقاوي، بمقارنة معقودة من نصوص لرواية الحادثة الواقعية.

٦ - الخاتمة: توصلت الدراسة لعقد مقارنة بين كلتا السيرتين، بأوجه التشابه والاختلاف، مع التركيز على المميزات العامة.

تمهيد

لقد أرجع بعض الباحثين أصول هذه الطقوس إلى الاحتفالات شبه الوثنية التي كانت تقام «لأدونيس» أو الديانات «الزرادشتية» أو غيرها.

لكنه في الحقيقة وكما يعلمنا التثاقف والتبادل المتوارث للطقوس في المنطقة وخصوصاً في وادي الرافدين فإن جذور هذه الاحتفالات ترتبط بالمراثي «السومرية» مثل مراثي «أور» على سبيل المثال أو الاحتفالات الدموزية في البحث عن الإله «تموز» من قبل الإلهة «عشتار». أما في مصر فإن طقوس بحث إيزيس عن أزويرس، بمساعدة ابنها حورس والتي تقام في ربيع كل عام تحت شعار أعياد «شم النسيم»، تتوافق حتى الآن مع أعياد الفصح وأسبوع الآلام لدى المسيحيين الأقباط. ويكون الشبه قوياً لليوم العاشر من السيرة الحسينية أي يوم المقتل، عندما تتوافد الجموع على مركز المدينة على شكل مواكب، حتى تصل إلى الحسينية. وذلك بحد ذاته غير بعيد ربطه بيوم الجمعة الحزينة المشرقية، التي كانت ولا تزال تمارس أيضاً في العراق جنباً إلى جنب مع الطقوس الإسلامية في موسم الربيع كما هو معروف. لعل من أهم الطقوس المشتركة هي صوم نينوى، أي ما يدعى بصوم «الباعوثة»، وتكون مشاركة كافة الطوائف في هذا الصوم واضحة في مدينة الموصل، المتاخمة لأطلال نينوى، حيث تشارك فيه كافة الطوائف ولمدة ثلاثة أيام تبدأ عادة يوم الاثنين السابق للصوم الكبير، وتنتهي مساء يوم الأربعاء، «أربعاء الرماد المعروفة»، هذا الصوم هو إعادة لإحياء ذكرى التكفير في نينوى «لنا عودة إليها في مبحث آخر».

إن هذه الاحتفالات الشعبية، والتقمص الاجتماعي التشبيهي داخل إطار السير الدينية. بين فاعل مشارك أو مؤدٍّ للحدث، أو راوٍ ومنشد، ومشاركيه، هي السير الملحمية التشبيهية، الأكثر حيوية، والأعم انتشاراً، أو الأقرب لنفوس الجمهور. وما سرّ امتدادها والصراع حول بقائها، إلا ذلك الصراع ما بين الجمهور المتعلق بها، وما بين السلطة. وما بين الفعل التشبيهي، والتمثيلي. وما بين الرغبة في التكفير، والتطهير. بطرق مختلفة يصل بعضها إلى موت الفرد. إنها في

الحقيقة الدراما المتأصلة في روح الشعب مهما اختلفت أسماؤها وأبطالها ومهما تنوعت أحداثها، وتفاصيل مواقعها. من طائفة إلى أخرى ومن دين إلى آخر، ومن معتقد إلى ثانٍ، ومن شعب إلى غيره.

تداخل ثقافات الشرق الأوسط

إن تداخل الثقافات سواء على صعيد الشرق الأوسط القديمة أو في العالم، هو ما أدى إلى إغناء البشرية بتأريخها الثرّ العظيم، على كافة الأصعدة، ومنها الميثولوجية فإن بعض الأمثلة تشير إلى احتفالات واعتقادات متشابهة كالتي تحدث في ملطية مثلاً حيث تذهب امرأة من «ملطية» إلى العالم الأرضي لتبحث عن زوجها سواء، أكان «تموز» أو «أدونيس» أو غيره. تدلها «هنا» أمها «سامالا» خارج الأورفيوس أو الـ «ACHERON» في أنظمة «أورفا ـ ORPHIC» لتربح أو تعيد زوجها من جديد عائدة به من «هاديس».

يبين «يارشاتر»[1] أصول مثل هذه الاحتفالات على كونها مظاهر قبل تأريخية تبدأ منذ احتفالات «تموز» أدونيس. وتتكرر في فارس ضمن التضحية الزرادشتية لكل من «داريز ـ زهراب ـ جمشيد». وقد ذكرت الاحتفالات في الشهنامه، مثل موضوع عودة فتاة من هاديس إلى الحياة من جديد، «لا تختلف في جوهرها عن عودة عشتار من العالم السفلي في بحثها عن حبيبها «زوجها». وتقام في الأناضول التعزية الأولى للاحتفال النباتي في الربيع[2]. بينما تقام التعزية الثانية للمقتل، ما دام الحسين (رض) قد مات عندما كانت الشمس تحرق الأجساد، لذلك يتم احتفال التعازي في الأناضول باسم «باز قرباني»، أي التضحية الواقعة، أو الحادثة المكتوبة، حيث تتم طقوس التضحية من خلال ذبح حيوان للتعبير عن الحب لـ «الحسين». ويكون في شهر «آب» فيوزع الماء مجاناً ويقدم البعض رقصة السماح، ويحضّر طعام خاص من ذبيحة التعزية يطلق عليها «دوفوجا قرباني» طعام التضحية[3].

---

(١) صورة أب، رفعة الجادرجي، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ـ لبنان، ط، ١٩٨٥.

(٢) عن كتاب «DRAMA CROSSRAOD»، من تأليف «MATIN AND» ـ متين عوند جامعة أنقرة عام ١٩٨٦.

(٣) إن فعالية التعازي تدور على مدار السنة الميلادية «الغريغورية» لاختلاف التوافق بين السنة القمرية، والأولى بأحد عشر يوماً، مما جعل السنة القمرية تتغير مواعيد مناسباتها كما في طقوس التعازي.
وهناك طبخة أخرى تسمى «عاشوراء» هي خليط من العصيدة متكون من حبوب «بقول، قمح، بندق» هي كما يعتقد أنه في يوم العاشر من محرم الذي هو يوم «آدم، وحواء»، ويوم نزول نوح من السفينة. لذلك يطبخ ما تبقى من الحبوب على شكل ثريد وحلو، وهناك أشكال متعددة في الأناضول شبيهة =

هناك مصادر عديدة يمكن أن تدلنا على التشابه الكبير بين كثير من الفعاليات المختصة بتكريس بطل أو حادثة أو سيرة وقد وضعناها على النحو التالي:

أولاً - ماذا في المصادر القديمة؟

من المفيد أيضاً أن نتتبع أحد أهم المصادر الخاصة بالبحوث التأريخية والمتعلقة بالمخيلة البشرية منذ أقدم العصور التي انعكست في أكثر من مؤلف وباحث، تناقلوا عن بعضهم تلك الفكرة المتعلقة عن منشأ الأسطورة، ومنهم على سبيل المثال صموئيل هنري هووكك الذي نسرد بعض أفكاره المتعلقة بالجذور التأريخية للسير الدينية.

١ - فيقول عن أسطورة الفصح التعبدية التي يرجعها إلى المصدر[١] فيشير لتكرار النسق العام لأسطورة الفصح التعبدية عدة مرات في المزامير وخصوصاً المزامير ٧٨ - ١٠٥ - ١٠٦ وتحديداً في المزمور ١٣٦ حيث تبدو السمة الترنيمية بارزة في الاستجابات التعبدية، وحيث يرد المتعبدون على كل تعبير يصدر عن الكهنة باللازمة التالية: «لأن إلى الأبد رحمته» في هذه المزامير حفظت أسطورة التعبّد في «شكلها الترنيمي الثابت» بينما في «الخروج» استخدمها محررو «البنتاتيك» كأشكال تأريخ الخلاص الذي يسجّل نشاط يهوه الافتدائي. وطبقاً للأناجيل الثلاثة الأولى، احتفل يسوع وتلاميذه بوليمة الفصح في أورشليم قبل وفاته مباشرة. وقد يلاحظ أن العديد من الذين التزموا بوحي إنجيل يوحنا لا يعتبرون العشاء الأخير وليمة الفصح. لكن اكتشافات معاصرة متصلة بتقاويم مختلفة استخدمها اليهود في عصر يسوع قد زعزعت أسس هذا الرأي، ولم يعد هناك من سبب يدعو للشك في أن يسوع قد «احتفل بالفصح مع حوارييه»[٢].

٢ - ويختلف عرض ما جرى في العشاء السري من حيث التفاصيل، لكن الشائع هو الحقيقة المركزية حول تحويل يسوع لطقس الفصح إلى شيء جديد، بفعل بعض الأفعال الرمزية والكلمات ذات الدلالة. لقد أخبرنا حواريوه بأن الخبز الفصحي الذي يباركه، ويكسره، ويوزعه عليهم ليأكلوه هو جسده، وأن كأس النبيذ التي باركها وطلب منهم شربها هي دمه. وقال إنه بموته سيقوم عهد جديد وتؤسس علاقات

= بفعاليات الإغريق، وبخاصة موت ديونسيس، أو هرمس، أو أوديب. «راجع أيضاً تحليلنا الموثق لمسرحية ملحمة «صعود وهبوط أنكيدو».

(١) PEDERSEN, ISRAEL - IV, PP. 726 FF.

(٢) Jaubert, A. La Date De La Cene, And «Van Goudoever, Biblical Calender».

جديدة بين الله والإنسان، وألمح إلى أن ما يزمع الإقدام عليه ومعاناته، نشاط التخليص الإلهي متمثلاً في الأسطورة التعبدية وطقس الفصح، يتجسّد الآن به.

٣ ـ إن قاطني وادي الرافدين ومصر قد خلقوا نسقاً معقداً من النشاطات، هي ما نُطلق عليها اليوم باسم الطقس. كانت تلك النشاطات تنفّذ وتُمارس من قبل هيئات ضخمة من الكهنة في المعابد. إنها تؤسس نظاماً من الأفعال يؤدى بطريقة ثابتة ـ في أوقات منتظمة ـ من قبل أشخاص مخوّلين يمتلكون المعرفة المتخصصة بالطريقة المثلى لأداء تلك الأفعال. إن الطقس لم يكن يتألف من الأفعال وحدها، لقد كانت الأفعال تترافق مع الكلمات المحكية، مع التراتيل، ومع التعاويذ التي كانت فعاليتها السحرية جزءاً جوهرياً من الطقس.

٤ ـ وتتولى الأسطورة في الطقس سرد القصة التي يجري تمثيلها منتصف الموقف. لكن القصة لم تكن تُروى للترويح عن المشاهدين. لقد كانت كلمة القدوة ـ تكرار الكلمات السحرية ينطوي على قوة تجسّد الموقف الذي تصفه، أو تعيد خلقه. قد نُدرك أن الحقيقة التأريخية للقصة الواردة في الأسطورة لا صلة لها بالموضوع.

٥ ـ لقد عاشت البشرية في الماضي طيلة أحقاب هائلة من الزمن دون الإحساس بالحاجة إلى التأريخ، لكن الأسطورة، وقبل ظهور أقدم أشكال التسجيل التأريخي، كانت لها وظيفة حيوية في حياة الجماعة، وساعدت كجزء جوهري من الطقس في ضمان الشروط التي اعتمدت عليها حياة الجماعة.

٦ ـ وكما في الرواية السومرية كذلك في الشكل البابلي من الأسطورة، لا يُعطى سبب لهبوط عشتار إلى العالم المنخفض، ولكن في نهاية القصيدة، بعد إطلاق سراح عشتار، يتم تقديم تموز باعتباره شقيق عشتار، وعشيقها دون تفسير لسبب وجوده في العالم المنخفض، وتدل الأبيات التالية ضمناً على عودة تموز إلى أرض الأحياء، وملاقاته بالابتهاج. ومن شعائر تموز وحدها نعرف بسجن تموز في العالم السفلي، وبالاقفار الذي سببه غيابه عن أرض الأحياء. في الرواية البابلية لهبوط عشتار إلى أرض لا عودة منها نعثر على وصف لفشل تام للخصوبة الجنسية بسبب غيابها: «لا ثور يقفز على بقرة، لا جحش يُحمّل أتناً، وفي الشارع لا يخصّب الرجل الصبية». هذه الكلمات يعلن «بابسوغال» وزير كبار الآلهة غياب عشتار بلا عودة، وآثار غيابها. ويتبع وصف هبوط الآلهة الرواية السومرية في خطوطها الرئيسية، ولكن هناك اختلافات جديرة

بالاعتبار. حين تقرع عشتار بوابة العالم السفلي تهدد بتقويض البوابة وتحرير الأموات الأقدمين في العالم السفلي إذا لم يسمح لها بالدخول. ويصف مقطع مفعم بالحيوية ذلك المشهد. ـ أي حارس البوابة، افتح البوابة ـ:

«افتح بوابتك كي يتسنّى لي الدخول!
فإذا أحجمت عن فتح بوابتك لتمنع دخولي
فسأُهشّم الباب ـ سأُحطّم المزلاج ـ
سأُهشّم عضّادة الباب، سأهُزّ الأبواب
سأُوقظ الموتى من سباتهم ـ آكلي الأحياء ـ
حتى يفوق عددهم الأحياء»[1].

٧ ـ وإذ تمرّ عشتار في البوابات السبع تُجرّد من جزء من أرديتها عند كل بوابة كما في الرواية السومرية. لكن الرواية البابلية تغفل الوصف المقبض لتحوّلها إلى جثة هامدة بفعل «أعين الموت» المشؤومة، لكنها لا تعود في كل الأحوال. ثم يسأل بابسوغال التماسه السابق إلى كبار الآلهة. ورداً على هذا التوسّل يخلق «أيّا». وهو أنكي في الرواية السومرية «أسوشونامير» الخصي ويرسله للهبوط إلى آريشكيغال، وإغوائها بإعطائه سلة ماء الحياة. وينجح سحره في ذلك ـ فتطلب آريشكيغال على مضض أن يقوم وزيرها «نامتار» بنثر رذاذ ماء الحياة على عشتار. يطلق سراح عشتار، وتعود بعد استرداد مواد العبادة، والأردية التي أخذت منها عند عبورها البوابات السبع في رحلة العودة. ولكن هناك إشارة الفدية التي يتوجب عليه دفعها. تقول آريشكيغال لنامتار: «إذا لم تعطك ثمن افتدائها فعذّبها من جديد». ولا تحدد ماهية الفدية، لكن ذكر تموز في نهاية الأسطورة يبدو وكأنه يستبطن عودته من العالم السفلي، رغم غياب الإشارة إلى كيفية وصوله إلى هناك. لقد رأينا من قبل وجود أسطورة سومرية حول نفي إنليل إلى العالم السفلي، ومرافقة إنانا له ـ وقد أُشير عندها إلى اقتران تموز بإنليل في طقوس العبادة. من هنا يبدو أنه في مسار تطوّر الأسطورة جاء هبوط تموز إلى العالم السفلي ليستأثر بأهمية متزايدة، وليرتبط بموت، وولادة البنت. وحين انتقلت الأسطورة بمرور الزمن إلى بلدان أخرى كان موت تموز والحداد عليه هو الذي يحظى بالتشديد على

(١) «IBID, P.170».

حساب سمات أخرى للأسطورة. وهكذا نجد إشارة «حزقيال» إلى نساء إسرائيل وهنّ يبكين تموز، كما تمثّل أسطورة فينوس، وأدونيس الشكل الذي انتقلت به الأسطورة إلى الميثولوجيا الإغريقية. إن إشارة ميلتون إلى نهر أدونيس الذي ينساب «وردياً» إلى البحر، مخضباً بدماء تموز المجروح في كل عام ليست سوى تذكرة بالشكل السرياني(*) من الأسطورة. ولسوف نرى أن موت «بعل» في الميثولوجيا الأوغاريتية قد يمثّل مرحلة مبكّرة من تطوّر الأسطورة في انتقالها إلى سوريا.

٨ ـ يبدأ اللوح الثاني عشر بغلغامش يندب فقدانه «بوكو، وميكو» اللذين اختفيا بطريقة ما في العالم السفلي. يتطوّع أنكيدو للهبوط إلى العالم السفلي واستعادة الشيئين الضائعين. ينصحه غلغامش باتباع بعض قواعد السلوك كي يتفادى الأسر والمكوث هناك، يخرق أنكيدو كل تلك القواعد فيقع في الأسر ويحجز في العالم السفلي، عندها يتقدم غلغامش بالتماس لإنليل كي يساعده، دون جدوى. يتقدم سن دون جدوى أيضاً، وأخيراً يتقدّم إلى إيا الذي يأمر نيرغال بصنع حفرة في الأرض تسمح بصعود روح أنكيدو.

٩ ـ إن العبرانيين استولوا على أماكن العبادة الكنعانية بعد الاستيطان في الأرض وحوّلوها إلى عبادة يهوه. كانت «شكيم ـ نابلس» إحدى أهمّ مراكز العبادة هذه. ويمكن رؤية بدايات الأسطورة في عرض الإصحاح الخامس عشر في «التكوين» للعهد الأوّل مع إبراهيم، بعد أداء الطقس القديم ذاته حول توزيع الضحايا المذبوحين يرى إبراهيم في غشية منه «تنور دخان ومصباح نار»، وعند عبور البحر الأحمر يظهر يهوه في عمود من السحب والنار، ويفصل بين إسرائيل ومطارديها. وفي الأسطورة التعبدية الخاصة بالظهور على سيناء يهبط يهوه فوق الجبال المشتعلة بالسحب والنار. هذا العنصر الرمزي في الأسطورة يبقى حياً في التاريخ العبري. في محافل إشيعيا يعلن الكاهن حضور يهوه فوق جبل صهيون، كنار متأججة تحمي أورشليم من أعدائها، وتمحق الكفرة[1].

١٠ ـ لقد كانت أسطورة موت الإله وانبعاثه إحدى أهمّ العناصر في الأسطورة، والنسق الطقسي القديمين، كما يتجليان بالشكل الأقدم في أسطورة تموز، وكما يتوصلان على

(*) «وردت في نص صموئيل هنري هووكك ـ السوري».

(١) أشعيا ٣١: ٩، ٣٣: ١٤..

مرّ العصور ليظهرا في عدة أساطير شرقية غامضة سادت العالم الإغريقي ـ الروماني في حقبة العهد الجديد. لقد طرح بعض الباحثين رأياً مفاده أن أقاصيص الأناجيل الخاصة بالآلام وانبعاث يسوع قد قيست وفقاً لنسق الأسطورة الطقسية البابلية، وأن الاذلال الطقسي للملك في طقس احتفال السنة البابلية الجديدة يهيىء النسق للعرض الوارد في الأناجيل المعترف بها حول السخرية من الملكية، وإذلال يسوع. وجهة النظر هذه طرحها قبل عدة سنوات الباحث الفرنسي «م. كوشو» في مقالة بمجلة «hibbert journal»، وهي تستدعي أمرين إلى الأذهان: **الأول** ـ لو كان لأي عامل غير تأريخي دور في تشكيل نسق أقصيص الآلام فيجب «اقتفاء أثره في مقاطع من العهد القديم» مثل «مزمور ٢٢»، «إشعيا ٥٣» حيث توصف مشّاق إسرائيل المقدّس، وخادم يهوه بعبارات تُشبه كثيراً وصف مشّاق يسوع خلال آلامه. من نتائج دراسات «العهد الجديد» المتفق عليها عموماً، تلك القائلة إن يسوع اعتبر شخصية خادم يهوه المعذّب.. والذي توضّح عذاباته مقاطع من «التثنية»، و«أشعيا». تجسيداً لمصيره هو.. من هنا نجد في حالات التشابه بين أقصيص الآلام، ومقاطع «العهد القديم» تلك ليس الجهد الأسطوري، ولا استعارة أسطورة تموز، بل أثّر ذلك الاتجاه.. اتجاه البحث عن إتمام للنبوءة في حياة يسوع.

ثانياً: قد يقال ضمن رؤية أوسع إن وجود هذه الأساطير القديمة الخاصة بآلهة تتألّم، وتموت، وتُبعث من جديد هو دليل على عنصر عميق الجذور في التجربة الدينية، دليل على الإحساس بوجود خلل ما في النظام الأخلاقي للكون، وإن الموت التكفيري للكائن الإلهي هو وحده القادر على ملاقاة الموقف. وأخيراً في آلام وقيامة ابن اللّه الموعود تجد الأسطورة إدراكها، ومسوّغاتها..

لقد ذهبت أسطورة «متى» إلى درجة أبعد بكثير، في عرضه لا تجيء المرأتان إلى القبر لتنضحا جسد يسوع كما فعلتا في الأناجيل الأولى، بل لتنظرا القبر. فترى المرأتان ملاكاً يهبط من السماء، توصف هيئته بأنها شبيهة بالبرق، يدحرج الحجر عن باب القبر، ويجلس عليه. يكلّف الملاك المرأتين عندها بإيصال رسالة هي نسخة معدّلة عن رسالة الشاب في «مرقص»، إذ قال مرقص إن المرأتين هربتا من القبر فزعاً، ولم تبوحا بشيء لأحد، لكن «متى» يقول إنهما هربتا من القبر بخوف وفرح عظيم لتزفا النبأ إلى الحواريين. يقابلهما يسوع حين تذهبان ويحييهما فتمسك المرأتان بقدميه وتسجدان له، يطلب منهما يسوع ألا تخافا. بل تبلغا حوارييه

الذهاب إلى الجليل حيث سيقابلونه. وينتهي عرض «متى» بالقول إن الأحد عشر تلميذاً انطلقوا إلى جبل الجليل «حيث أمرهم يسوع». هناك يجيء إليهم، فيتشكك البعض عند رؤيته، لكن الآخرين يسجدون له، فيخبرهم أن كل سلطان السماء والأرض، قد أعطي له، ويكلفهم بتلمذة مع الأمم، وتعميدهم باسم الآب والابن والروح القدس.

بالنسبة للكتّاب العبرانيين الذين سجّلوا تأريخهم كان خلق الكون، وإنقاذ اليهود في العبودية المصرية، وظهور يهود في سيناء، كلها حوادث حقيقية جرت في الزمن، لكن سمتها كنماذج فائقة للنشاط الإلهي وضعتها وراء مستوى الحكاية التأريخية العادية.

ثانياً ـ المصادر المسيحية

ومن المصادر الأخرى نورد هنا مقتطفات من دراسة للأب يوسف مؤنس كالآتي:

١ ـ ونأخذ من ملحمة بعل الأوغاريتية القسم الأخير المتعلق بصراع بعل والموت لنقول إنه صراع «اندمج الفينيقي فيه بطقوسه، فأصبح صراعُه صراعَه، وغدت آلامُه آلامَه، وانبعاثُه انبعاثَه».

إنها عملية تماهٍ كاملة وكأن هذا الطقس هو أحد أهم المخارج النفسية للوجدان الإنساني المفجوع أبداً في لقائه مع الموت. فالطقوس هنا منفذ، وتنفيس عن آلام النفس الإنسانية واستيعاب ما فيها من انفعالات وما في الطبيعة من موت وبعث[(١)].

٢ ـ أما القميص الذي كان على جسد الميت حال وفاته، فيجب أن يحرق أو يمزق، لأنه كان ملاصقاً للجسم، وهو يحمل بذور الموت. وكأننا نتذكّر أعمال عناة كما رأينا سابقاً. وإلا لحق الموت بمن يُلامس هذه الثياب التي تصبح ـ هي أيضاً ـ عنصراً للخراب والفوضى، فيجب أن تُوزّع على الغرباء. كذلك الشرشف الذي سيوضع على السرير تحت جسد الميت يجب أن يكون جديداً، ولم يلامس جسد إنسان آخر، وإلاّ حمل ويلاً لمن يلامسه فيما بعد ولمن لامسه في السابق. بعد كل هذا، يُسجى الميت على السرير وسط الغرفة. أو على مرتبة تُسمى بـ «الصمدة» وجهه للشرق، أو صوب

(١) فصل **التقاليد الشعبية في الجنازات اللبنانية**، الأب يوسف مؤنس، أستاذ في معهد الليتورجيا ـ شباط ١٩٨٩ ـ كتاب **الجنازات المسيحية**، منشورات قسم الليتورجيا في جامعة الرّوح القدس ـ الكسليك ـ لبنان ١٩٩٠. القسم الثاني ص ١٢.

مدخل الباب، جاهز للخروج ولملاقاة العالم الآخر...

لا يُفشخ فوق جثة مطلقاً، ومَن فشخ فوقها لحق بها.

لا يمرّ ماء فوق جثة مائت، وإلاّ أصاب صحة الشارب الويل.

لا تُضاء الشمعة التي في غرفة الميت من الشمعة التي سبقتها لتلصق بها. فإذا حدث ذلك يجعل روح الميت تلصق بأهل الدار، وتشدّهم للحاق بها إلى المقابر. لا يمرّ أي غرض فوق جسد الميت فاليد التي تقدّم الشيء، واليد التي تُمسك به يُمسك بها الميت ويشبك فيها يده ليواصل برفقتها درب الرحيل[1].

٣ ـ لكنني لا أجد فرقاً بين نص توجع داؤد على يوناتان، ونحن نقرأه في كتب طقوسنا صباح سبت النور في أسبوع الآلام، وبين هذا النص النادب الأليم. وكيف لا يكون صلاة هذا التعداد الدامي الموجوع، هذا التنويح المؤثّر؟ أيمكن أن يُصلي موجوع في تلك الساعة. أو أن يقول أجمل من هذه المزامير اللبنانية الطقسية النابعة حقاً من تراثنا وتقاليدنا، دون أن لا يُتّهم بالوثنية واللامسيحية. كأن المسيحية لم تكن تكاملاً حضارياً وثقافياً وانفتاحاً على ذاتية الشعوب والأشخاص واحتراماً لهم، وتراثهم، وتقاليدهم:

«يا مشكى ضيمي ومودع سرّي

يا طاعم الجوعان وكاسي العريان

يا عامود ضهري وانحنى/ وجسر بيتي وانقطع

يا شمعة وانطفا ضوءها/ يا قرّة عيني وحشاشة كبدي».

أو هذه الندبة الرائعة الموجعة الضارعة إلى اللّه بكل الحنان والحب:

«وما بقي لي غير طلبي/ من إله العرش ربي

ليت نفسك من ضلوعي/ ومدفنك بغلاف قلبي

ليت نفسك من ضلوعي/ والكفن حبّي وولوعي

وليت بقدر في ربوعي/ احفظك جوّات قلبي».

كل هذه الأقوال والحركات ـ وأبرزها الرقص والحوربة ولعب السيف والترس وقلم

---

(١) المصدر السابق، ص ١٧.

الخيل والقواس، وقرع الطبول - هي إعادة رمزية للحرب العتيقة والصراع الدائر أبداً على قرع الطبول والمزامير بين الموت والحياة، تقوم به طقوسية محددة مواكب حملة البيارق والرايات والكهنة وعازفو الموسيقى والراقصون وحاملو الأزهار والندابون والندابات. وذلك يلتقي مدلولا العرس والمأتم في طقوسية واحدة[١].

٤ - أكيد أن هناك من الترسبات الحضارية الباقية في طقوسنا الجنائزية المأتمية، وكعالم في عالم الأنثروبولوجيا ألاحظها، وأترك لغيري شجبها، أو تحبيذها. فالأنثروبولوجيا، ومن موقف علمي بحت، تؤمن بالتكامل، والتكامل الحضاري والمثاقفة، ولا موقف تقييمي معياري لها بل موقف المتفهّم والاحترام لذاتية الشعوب ولشخصيتها المتفاعلة. هناك حلقة سحرية رمزية واحدة وكأنها طقس واحد بالرغم من تنوّع وبُعد الثقافات والحضارات جغرافياً، وتأريخياً. هذه الحلقة السحرية الطقوسية تلد نوعاً من العدوى النفسية الجماعية في حالات الفرح وحالات الحزن، ويجب علينا دوماً أن نُدرك بُنيتها الأساسية، وأبعادها الروحية، وأهميتها النفسية الاجتماعية والشخصية. فهي ليست وثنية رجعية مَرَضية، بل شفائية علاجية. دواء هي يَحقُن به المجتمع نفسه ليستطيع الاستمرار والتخطي والفهم والبقاء والتوهّم. فالحلم بُعدٌ هام في ذهنية الشعوب، أكانت قديمة أم حديثة[٢].

٥ - هذه الطقوس هي ترسبات وجدانية هامّة غيّرت الثقافة قسماً منها وبدّل الإيمان القسم الأكبر. لكن هناك في قعر الذات بعد غامض أبقى تواصلية طقوسية لهذه الظواهر والتقاليد والعادات والممارسات، وعلينا أن نحترمها ونُطوّرها، وأن نتفهمها، وأن نعرف كيف نخلق آلية التبديل والتحويل، وإلاّ قسرنا النفس والجماعة وبطشنا بالذات الحضارية للشعوب ونفينا كلّ تفكير الكنيسة بعد المجمع الفاتيكاني الثاني، وقد وعت أهمية الثقافة، والمثاقفة والتكامل الحضاري[٣].

ثالثاً - توثيق عملي من ميدان التطبيق

١ - غريب كيف يصبح الميت غريباً مُخيفاً وساحراً، طاهراً ونجساً مرذولاً ومقدّساً، مرفوضاً ومقبولاً، زهيداً وثميناً غالياً، في الوقت نفسه. إنه ما يُسمى بـ «أمبيفالنس»

(١) المصدر السابق، ص ١٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٩.

الأشياء. إنه حقاً السر المجهول الذي وحده المسيح أعطانا معناه. هو الذي صار بكر الراقدين، وأعطانا أن نقترب دون خوف للوصول إلى ميناء الخلاص والقيامة. وبالرغم من كل هذا الإيمان، فإن «الجسد الضعيف»، واللاوعي وترسباته لهما الدوافع الخفية والقواعد اللامعقولة والمنطق اللامنطقي أحياناً، وهذا ما يسمّى وثنية أحياناً[1].

٢ ـ قبل الخروج من عتبة الدار، خاصة إذا كان الفقيد متزوجاً، وزوجته في أول حملها، تُرفع الجُثّة عند عتبة باب المنزل أمام الجماهير فتمرّ الزوجة من تحتها إشعاراً بحملها من رجلها، لئلا يلحق بها العار فيما بعد، ولئلا تقسم تركة الميت، قبل وضع المولود الجديد وفرز نصيبه منها. هذه العتبة التي وضعت المرأة يدها عليها عند زواجها، وكأنها استمرار لرتبة وضع اليد التي حدث شبه لها في وضع يد الرجل والمرأة تحت بطرشيل وصليب الكاهن، هي شيء هام لم يدرس بعد لفهم الفصل القائم بين المسافات المقدّسة والمسافات غير المقدّسة. فالمرأة التي تضع بيدها الخميرة على العتبة العليا كأنها تضع يدها على كلّ البيت، وكأنه صار تحت سلطانها، وهي سيدة هذا البيت وهذا العالم، وهي قادمة بعهد رباني من خمير طاهر تضع عليه علامة الخصب والخير والبركة والحياة. هذا هو ملكوتها الذي لن تخرج منه إلاّ محمّلة على الأكتاف. وتجدر بنا هنا ملاحظة هامة: إن المرأة ـ وهي كائن الخصب والحياة ـ لا تعبر عتبة الباب عندما يحمل الرجال توابيت الأموات إلى المقابر وهم ينشدون مع الكهنة أناشيد المرافقة والطريق، لأنه ـ حسب التقاليد ـ لم يكونوا يأتون بالميت إلى الكنيسة للصلاة عليه، كما أعلمني بذلك صديقي الآب يوحنا تابت[2].

٣ ـ فالمرأة هي عالم وأحشاء الحياة والبقاء، لا تذهب مع الرجال إلى عالم المقابر والأموات، إلى الحفرة والتربة، هذه الفوهة المفتوحة للفناء. وحدهم الرجال يذهبون إلى المقابر والفناء. أمّا هي فمن لحمها تلد الحياة والاستمرار، فلا تذهب إلى مسكن الأموات..

وهنا نعود فتلقى الأناشيد الأوغاريتية القديمة:

«ارفعيه على الراحات/ ارفعيه على الأكتاف

ارقصوا له في الساحات/ فالبعل قد مات».

---

(١) (٢) راجع تحليلنا الموثّق لمسرحية **ملحمة هبوط وصعود أنكيدو**، في دراسة عن نقل جنس الملحمة من عصرها إلى العصر الحالي بأجناس أخرى، ص ٢٢.

لذلك يصير المأتم عرساً. فيُرقّص الميت ومَن معه بحلقة سحرية على أصوات الدفوف والمزامير، حاملين قطعاً من ملابس الميت. وترقص أمّ الفقيد وشقيقاته وهنّ يُصفقّن بالأكف، حاملين أشياء من ثيابه، أو صورة له، منشدين له أناشيد الأعراس. والرجال يهزّون ويرقصون بالنعش على نوعين: فإما بشكل دائري وكأنها إدارة المقاتل في ساحة القتال. وكم نرى ذلك في الأفلام اليابانية اليوم، أو بشكل ارتجاج من الأمام إلى الوراء. وهي كلّها حركات صراع واستفزاز وتحدّ للخوف واستعاضة عن الهزيمة والانكسار في الساحات وأمام عيون الناس. العمق الأساسي يبقي دوماً هذه العلاقة بين طقس الحياة، وطقس الموت الذي تجلّى لنا في العقائد الأوغاريتية القديمة، والذي يُظهر لنا أن الوجدان الإنساني واحد. فكل شخص منّا يعيد في ذاته قصة آدم الخائف أمام غياب الشمس. لكن لو حدث في هذا الترقيص للميت ولتابوته أن وقع الميت، فهذا شرّ كبير وفأل عظيم. ولا يعود يجرؤ أحد على مرافقة الميت. الويل له إذا فعل ذلك. فالتابوت الفارغ هناك ينتظره هو. أمّا إذا انفتح التابوت في حال الترقيص، أو السير، فإن شراً عظيماً سيقع أيضاً على الحاملين. فالتابوت المفتوح بيد الذين يحملونه هو دعوة ليفتحوا بيدهم قبرهم، وليموتوا مع الميت وينقلوا برفقته إلى المدافن[1].

٤ - في نهاية الجنّاز، كانت تُنضح الجثّة بالزيت «المقدّس»، كما كان ينضح جسد العروسين في طقوسنا بالزيت المقدس. إنه أهمّ طقوس البدء، أو التنشئة والعبور. بعد ذلك، يرشّ على النعش الماء المبارك وهذا ما رأيناه يتمّ في السابق في رتب دفن الأموات عند مجمل شعوب الشرق القديم. بعد ذلك، يُرفع التابوت ويُدار رأسه صوب المذبح وقدماه إلى الخارج صوب باب الكنيسة، ويُخرج به بهدوء صوب المقابر أو صوب «البيت الحقيقي». وتبدأ عندها أناشيد وترانيم المواكبة الجميلة، والتي، إلى اليوم، لم تُعط لها قيمتها النفسية والعقائدية والتراثية[2].

٥ - حوار وتراب على باب القبر - عند الوصول إلى القبر الذي يكون قد فتحه ونظّفه قبل يوم بعض المختصّين في ذلك، يبخّر الكاهن المدفن ثم يُفتح التابوت على باب القبر، ويرشّ الكاهن على الجثّة التراب بشكل صليب، وهو يقول: «اذكر يا إنسان أنك من تراب، وإلى التراب تعود». وهنا تُمزّق القميص على باب القبر كما رأينا سابقاً، وإن لم تكن قد مُزّقت في البيت. خلال كل هذه الأشياء، تُرتّل ترانيم وأناشيد حوارية رائعة

(١) **الجنازات المسيحية**، ص ٢٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٥.

كما في الملاحم المصرية، والأوغاريتية، والإغريقية القديمة تتمّ بين الجماعة - الكورس المواكبة والميت، وقد استسلم إلى مصيره، وهو يطلب منها أن تضع عليه الحجر «أحاي سيم كيفو وحتوم على قبرو - يا إخوتي، ضعوا الحجر وأغلقوا عليّ القبر». فتجيب الجماعة: «قد وضعنا عليك الحجر، وختمنا القبر». فيقول: «أنا خائف أطلب المغفرة»، والجماعة تشجّعه للعبور، للولادة الجديدة في العالم الثاني: «لا تخف! صليب المسيح يكون لك جسراً، ومعموديته ستراً، فلن تقع في الهاوية»[١].

٦ - ويقول صديقي الآب تابت «الحديث للأب يوسف مؤنس» إن هناك الكثير من هذه الأناشيد التي بقي لنا مقطع منها في القدّاس في نشيد «فلنطلب»:

صليبك جسراً يكون لهم/ ومعموديتك ستراً لهم

جسدك ودمك يُبلغهم/ طريقاً للسماء يُرشدهم»[٢].

رابعاً - ومن تجاربنا، وتحليلاتنا

١ - من خلال الكثير من المؤشرات التأريخية، والميثولوجية الحية سواء في الذاكرة الجمعية أو في الليتورجيا فإن مثال أنكيدو ينطبق في كثير من عناصره الخفية على شخصية المسيح الذي جاء «أرسل» بغير أب لكي يصالح ما بين البشر، ثم عندما ينتهي دوره يضحي بنفسه في سبيل إسعاده. رغم كل ما في شخصية أنكيدو الظاهرية من تشابه بينها وبين شخصية يوحنا المعمدان.

٢ - إذن فقد جاء أنكيدو هو لتغيير المفاهيم العامة.. أو إنه هو الذي تمّ التوسّط به لحماية القوانين الجديدة التي سنّت ويخرقها دائماً غلغامش. يأتي أنكيدو بعد السخط العام.. وربما بوجود القوانين المتعارف عليها.. التي اعتادت الناس عليها الآن ما زال العاهل يخترقها... كما في مسرحية أنتيغون.. وما يأتي في الملحمة ليس إلاّ نوع من العرض الاجتماعي... والديني. فقد كان النظام الاجتماعي الجديد قد توصّل إلى حالة معينة، وهامة تريد التخلّص من قوانين الزواج المقدس، وعلى الآلهة أن ترسل لها بطلاً قومياً ليقود العملية. أو لكي يكون حكيماً يرشد غلغامش لنظام جديد، وللحكمة الجديدة.

أ - والسؤال هنا؟ ما رمز سقوط آلتي البكّو، والمكّو في الهاوية؟ أو السقوط في النهر،

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٦.

فما دامت شجرة الصفصاف قد انتشلتها عشتار من النهر، فقد أعاد النهر أخذها. إن النهر الذي يأتي ليذهب، ولكنه لا يعود، ولا يعيد ما يأخذه فهو مثل الزمن، مثل العمر، يأخذ ما يصادفه معه، وعلى من يريد جلب حاجاته، ومنها حياة عزيز له، أن يلحق بالنهر، ويسبق التيار، ويتحمّل في العودة السباحة عكس التيار.

ب ـ وإذا ما كان الوباء قد عمّ أوروك، فما أنكيدو إلاّ قائد هذه الهجمة التي سبقت التيار، وتعود عكسه. فهل هو انقياد لشيء يبعد الوباء.. وينقذ البكو، والمكو منه... وهما الدواء، وعلاج روحي مثلاً؟ ولكن كيف على محتضر أن يصارع التيار؟ لكن ما دام فيه إنقاذ للجميع، فالمحاولة/ المجازفة أحسن من الموت بسكون.

ج ـ إذن فالضحية القديمة كانت البديل، وليس الأصل. أي أنكيدو لكي يكفّر عنه عوضاً عما يمكن أن يصيب أهل أوروك، وليس غلغامش لوحده.. أو الجماعة لسبع سنوات مثلاً.. بديل غلغامش الملك، والملك تموز الماضي.. ويسوع الملك، المسيح الحالي.. ولكنه بدأ كيوحنا المعمدان.. أما غلغامش فسوف يتقمّص دور أنكيدو في أن يكون فداء جديد للموت ومسيحاً آخر..

٣ ـ هناك محاور متعددة في مصير وفلسفة الإنسان.. أسطورة الجوع والشبع. وأسطورة الحياة، والموت، «وفيما بينهما تداخل» تموز يموت باعتباره رمزاً لموت المحاصيل، بعد إعطاء أثمارها، وأنكيدو يموت باعتباره رمزاً للحيوان، لتوالد الأحياء، وتعاقبها من جيل لآخر، أنكيدو محصلة بين الحكمة، والرعي، فهل في مهنة الرعي حكمة وهل كلمة الراعي، والراعي الصالح بالذات هي من مدلولات مهنة الرعي، وحياة، وموت أنكيدو الضحية، وكبش الفداء. نعم إن أنكيدو هو كبش فداء لغلغامش. ولكن لوقت معين، كما صار يوحنا المعمدان كبش فداء للمسيح، ولحين، على الرغم من أن كل من غلغامش، والمسيح هما من ثلثي إله. ومع هذا حق عليهما الموت، لأن ثلثهما الثالث من الطبيعة البشرية.. لهذا يبدو لنا بأن شخصية أنكيدو متكررة في التاريخ بأنماط متشابهة، ومتعددة، فقبل ألفي عام جاء يوحنا المعمدان من الصحراء، بدوياً، بله وراعياً، ليعتقد الناس بأنه المسيح الذي جاء ليخلص البشر كما اعتقدوا وقتها. ولكنه بشّر بالمسيح الآتي من بعده، وقام بتعميد المسيح بنفسه، ولم يعمّد نفسه لأنه من معتقد غير متطابق مع ابن خالته، فلو كانا متفقين لصب أحدهما في الآخر مثل الصنو الحكيم لغلغامش، وبما أن المجتمعات في تطور، فإن المعتقدات هي الأخرى تتطور، وتتحرر. بل وتخدم غرض التصور الجديد. ورغم أن يوحنا لم يدع أنه المسيح فقد

اغتيل من أمة تذبح أنبياءها دوماً. لعله نتيجة للصراع بين أربع معتقدات هي: الوثنية الرومانية من جهة، وهي التي كانت ذات سيادة على الكل، والتوحيدية اليهودية، والتوحيدية المعمدانية «الصابئية» والتوحيدية النصرانية المسيحية فيما بعد. ولكن لو أخذنا المسألة من جانب آخر فإن غلغامش هو مسيح من نوع أقدم وأسبق، كان جبّاراً بمعاني عصره بينما اتهم المسيح بالجبروت الساحر، أما الحكيم أنكيدو فهو مروّض، ومحوّل غلغامش، فماذا فعل يوحنا يا ترى قبل مجيء المسيح. لقد كان دوره قصيراً جداً، ولم تسمح له الظروف التي عاشها بالبقاء، ومزاملة من بشّر به لأن اليد الطويلة امتدت لقتله. ربما يكون مجيء أنكيدو تأكيداً على الانتقال من حالة مجتمع الرعي إلى حالة المجتمع الزراعي، ولكن ما الفرق بين آكل العشب، وآكل الحبوب، فمن يأكل إذن الشواء، ومتى؟ إن الشواء كان أكل أهل نيرغال من الأموات وآلهة «الخبز، والجعة، حنطة، وشعير» فليس هناك راعٍ يفرّط بمن يرعاهم إلاّ لو اضطّر لذلك وأجبر عليه، ولكن الصياد أقسى على الحيوان من الراعي وهو بالطبع قد جاء في مرحلة قبل مرحلة الرعي، بينما جاء الراعي قبل المزارع وبعده، فعندما توافر الزرع ازداد بأس الإنسان في تدجين حيواناته المفضّلة...

٤ - مقطع من الكلام في آكي:

يقول الباحث د. يانوش مارسيوش في كتابه الموسوم أقنوم الأقانيم: إن العقاب ترضية، لأن كفة الصراع بين الآلهة مالت هذه المرة ضد أنكيدو، وهنا ينعكس الدور المتكرر التضاد من الإنسان إلى شفعائه ومن الشفعاء إلى الإنسان، وينتصر الأقوى أو الأكثر حيلة، وهكذا، يخلق كل شفيع وسائل دفاعه. بينما يقوم الآخر بالتحضير لانتقام مرصود. أو ربما بالعكس فإن الكثير من أموات البشر تحوم أرواحهم حولنا. أو نحن الذين نود أن يبقوا معنا فلا ننفك نتخيلهم، ونتمنى أن يكونوا معنا، حتى يتجسدوا فينا. أو من خلالنا في شبه واقع، استعصى هذا التفسير على أجدادنا الأسبقون، فألّهوه، وبالحقيقة إن ما يمكن تفسيره ليس أكثر من دعوة داخلية لسمو النفس البشرية لكي تتخلص من سجنها الجسدي، وتبقى ماثلة أبداً طالما أن الجسد الذي تتنكبه، ويحملها لن يفتأ أن يهرم ويموت، فلماذا التعلق به ما دام التواجد من خلاله مرحلي، لا يرضي طموح الروح وآمالها العريضة، لهذا تتخذ كل شخصية بشرية لها مثالاً، ليحملها، وينقذها من الملمات المحدقة، ربما تتخلص من خلالها من المصير المحتوم، وهو الموت والفناء. يذكرنا هذا بما دار فيما بعد في الملاحم الإغريقية، التي انعكست من

خلال أدباء وظفوها لعصرهم. بله واستخلصوا منها الكثير من العبر، وناقشوا من خلالها مختلف الأعراف، والقوانين التي كانت سائدة والتي لا بدّ أن تتبدّل بحكم التطور، وأبرز مثال على ذلك المعضلة التي نوقشت في مسرحية أنتيغون التي تصدّت لقانون حرمان الميت من الدفن...

أ ـ إن أيام البشر معدودة «فدعني أسير أمامك، وليناديني فمك، سرّ ولا تخف، فإذا هلكت أكون قد صنعت اسماً لنفسي»..

ب ـ الخوف عليه لا بدّ أن يسير أنكيدو أمامه، وهو أقوى أيضاً، وأكثر تدريباً في الصحارى، والبراري..

ج ـ رؤية أنكيدو عن عالم الأموات قبل المعري ودانتي بعشرات القرون «تكدس تيجان الملوك.. رداؤهم من أجنحة مكسوة بالريش»..

د ـ عن موته يقول: من يسقط في القتال يكون مباركاً.. أما من يموت في الفراش فهو الذّل... وللتأكيد على الوباء، وليس الصراع، لكن ذلك يوحي لتأويل جديد، ربما ليقول أنكيدو، لو أنه صارع الوباء حتى ولو كان بألف رجل، أو صارع من دسّ له السُّم بألف رجل. أم أن يشلّه عدوّه بالسُّم، ويبقى طريح الفراش.. فذلك؟.

هـ ـ كالبشر عندما خلقوا أول مرة لم يعرف الأنانونكي أكل الخبز، لا ولم يعرفوا لبس الثياب، بل أكلوا النباتات بأفواههم، وشربوا الماء من الينابيع والجداول..[1].

(١) راجع تحليلنا الموثّق لمسرحية **ملحمة هبوط وصعود أنكيدو**، في دراسة عن نقل جنس الملحمة من عصرها إلى العصر الحالي بأجناس أخرى.

الفصل الأول

جمعة الآلام سابع جمعة في الصوم الكبير(*)

إن طقوس الجمعة الحزينة التي تبدأ منذ بداية صوم الخمسين «خمسون يوماً لدى بعض الطوائف، وأربعون لدى بعضها الآخر - يُصام كل الأيام، أو بعضها، وبخاصة يومي الأربعاء، والجمعة من مجموع الأيام»، ولست جمع متتالية، تعقبها كلها الجمعة «السابعة» العظيمة، أو الحزينة. فهي سبع جمع الصوم الكبير، عند المسيحيين تمثل الجمع الست الأولى تمهيداً للشعب الصائم الذي يسير دائراً مع المسيح الحامل لصليبه في درب الآلام. ليصلوا بجموعهم معه إلى جبل «الجُلجلة». ومن خلال تسابيح وصلوات تتناوب ما بين حاملي الصليب والكاهن الدائر معهم أمام أربع عشرة لوحة. تمثل محطات الدرب التي توقفت فيها مسيرة مراحل آلام المسيح إلى قمة جبل الجلجلة حيث سيتم الصلب[1]. تركت ذكرياتها الراسخة في ذاكرة الجمعية المسيحية المشرقيّة. وبعد أن يُعلّق المسيح على الصليب في كل من الجمع الست، تعود جموع الشعب الصائمة إلى بيوتها على أمل العودة في الجمعة التي تليها. حتى موعد الجمعة «السابعة» الحزينة وتسمى أيضاً جمعة الآلام. ففي هذه الجمعة، وبعد اكتمال طقس دورة المراحل الأربع عشرة، يستمر إكمال مراسم الصلب والدفن، وذلك بإنزال الصليب بدلاً عن الأصل، ووضعه في

(*) ملاحظة إن تدوين هذه المراسيم لا يختص بالجانب الديني، ولا تدخلاً في خصوصياته المذهبية، وإنما هي محاولة جادة لشرح هذه الحالات المظهرية من الجانب التشخيصي المسرحي، وصولاً لتوضيح أهمية المسرح في توصيل المعلومة الدينية، وهذا ما كان دور المسرح في القرون الوسطى. ولهذا فإن هذه الدراسة تحترم كل معتقد، وعقيدة. ومن جهة ثانية فإننا ننوّه بأن كل ما جاء في الدراسة ينضوي تحت مبادىء البحث العلمي البحتة، ولا يمتنع عن أي تنويه أو تصويب.

(1) والمراحل هي: ١ - توديع نساء أورشليم له. ٢ - وإجبار «سمعان القيرواني» على مساعدته في حمل الصليب. ٣ - مقابلته لأمه، «مريم العذراء». ٤ - مقابلته لـ «مريم المجدلية» التي تمسح وجهه بمنديل سيبقى رمزاً منذ ذلك الوقت، لأن صورة وجهه قد انطبعت منذئذٍ على المنديل، وهكذا.

نعش يطوف المحتفلون به، وقد وضعت زهور فوق الصليب في النعش نفسه. يقوم الشعب بتوديع المصلوب إلى مثواه الأخير. «الذي يحدث في نفس الوقت تقريباً في كنائس البلد». وهذا ما يحدث في نفس الوقت في كل من سوريا، والعراق، وفلسطين، ولبنان، ومصر، والأردن، والسودان، وغيرها من دول المشرق العربية، أو غير العربية مثل إيران، وتركيا، وعلى مختلف طوائفها المسيحية الكاثوليكية، من كلدان، وسريان، وروم، وأرمن، وأشوريين، وأقباط. ولكن ببعض الاختلافات الجزئية لكل قومية، لغة، وطقساً، وفعالية[١].

الجمعة السابعة حلقة الاتصال

على أن طقس يوم الجمعة العظيمة، هو الوحيد الذي يكون متصلاً بما قبله وما بعده. أي اتصاله بأحداث الأسبوع كاملة، ابتداءً من يوم أحد الشعانين ويكون يوم خميس الفصح هو البداية الفعلية للآلام، وهو ذكرى اليوم الذي يودع فيه المسيح تلاميذه بمناسبة العشاء الرباني[٢] لعيد الفصح اليهودي[٣]. وهو في وقتنا الحاضر، وفي مجال التشبيه فإن الكاهن يقوم باختيار اثني عشر فرداً من الأمة، إما صغاراً أو شباناً، ليقوم هو الكاهن «ممثل المسيح على الأرض» بغسل أرجل من يشخّص دور التلاميذ الاثني عشر كما فعل المسيح أيامها. وتتلى في هذا اليوم الأحداث التي مرّت بعد العشاء السري، حيث حادثة إلقاء القبض على المسيح في بستان الزيتون، بعد أن ودّع تلاميذه، في ختام صلاته الطويلة ببكاء يتضمن طلب المسيح من ربه أن يبعد عنه تلك الكأس «كأس العذاب، أو كأس التضحية، والفداء». وقد سبق للمسيح أن أشار لتلاميذه، وهم يؤدون طقس العشاء الأخير أن أحدهم سوف يسلّمه، وغاب طوال هذا الوقت في بستان الزيتون يهوذا الإسخريوطي، وجاء مع ثلة الحرس لكي يسلم سيده، وقد اتفق معهم، على أن الرجل الذي يقبله هو رجلهم المقصود، وذلك مقابل ثلاثين قطعة من الفضة. إذ ربما استعصى على الحكام آنذاك معرفة المسيح، طالما كان يسير، ويبشّر بتعاليمه، مع تلاميذه الاثني

(١) **سسيولوجية المسرح**، ج١، جان دوفينيو، ترجمة حافظ الجمالي، منشورات وزارة الإرشاد القومي السورية ص ٣٦ ـ ٤٢، عن الفرنسية بعنوان Sociologie Du Theatre/ Jean Du Vignaud 1964.

(٢) ويدعى أيضاً العشاء السرّي، أو العشاء الأخير، الذي أقيم في علية صهيون. هو العشاء الذي كان المسيح وتلاميذه يحتفلون به كإحدى طقوس الديانة التي كانوا يعتنقونها حتى ذلك الوقت.

(٣) خميس الفصح هو مناسبة عيد الفصح اليهودي الذي تضحى فيه، وربما في اليوم التالي أي الجمعة ضحية اعتاد الشعب في الغالب على أن تكون الضحية آدمية من البشر. تداولت في عصور ما قبل المسيحية صلب بعض المجرمين من اللصوص والقتلة. لها جذورها الوثنية، سواء كانت ضحية آدمية أو ضحية حيوانية.

عشر دونما انفصال عنهم[1].

ويكون ما يقدم في ليلة الخميس بعد طقس التغسيل، من أحداث لا يتعدى أفعال الرواية والسرد، من خلال قراءة في رسالة، أو في فصل من أحد أناجيل، أو في موعظة يقوم بها الكاهن، يتبعها بالمثال[*].

ولا يمر يوم الجمعة إلاّ والكنائس وما فيها من أيقونات، وتماثيل، وقد تكللت بالسواد أو باللون الأرجواني «البنفسجي الغامق»، في حين يكون الشعب الصائم قد حزن هو الآخر. ولا يفرح إلاّ ما بعد الثانية عشرة من مساء يوم «سبت النور». وهو صباح اليوم الثالث «الأحد» الذي يقوم فيه المسيح كما يؤمن به المسيحيون.

البداية في أحد الشعانين[**]

ويبدأ أسبوع الآلام بيوم الأحد «يوم أحد الشعانين»، وينتهي شكلياً يوم «أحد القيامة»، لأن هناك أحدين تابعين، هما «أحد الصعود، وأحد العنصرة». ففي يوم الأحد الأخير من الصوم الكبير، وهو موعد دخول المسيح إلى القدس «مدينة السلام ـ أورشليم» تقوم الجماعات المسيحية وبخاصة الكاثوليكية منها في البلدان العربية، والمشرقية، بإعادة هذه المراسيم، كل حسب الطقوس التي تتلاءم وطبيعة تراثها، وفولكلورها. وعلى الرغم من اختلاف البيئات، والقوميات في الدول العربية، فإنها تتوحد في العام، وتختلف في التفاصيل. وغالباً ما تتم مباركة

(١) المعروف أن للمسيح اثني عشر تلميذاً، هم رسله، فإن التشبيه في عصرنا الحالي يقوم على اختيار الكاهن لاثني عشر فرداً من الأمة، إما صغاراً أو شباناً ليقوم هو الكاهن «ممثل المسيح على الأرض» بغسل أرجل من يشخّص دور التلاميذ الاثني عشر. دلالة على تواضع الراعي، أمام رعيته كما فعل المسيح أيامها. وتتلى في هذا اليوم الأحداث التي مرّت بعد العشاء السري. وغالباً ما يتم تجنّب تسمية، المشخّصين كل على اسم أحد التلاميذ، ما عدا شخصية سمعان «بطرس». لأنه وبمجرد تسمية البقية، سيفسح مجالاً لتشخيص دور يهوذا الإسخريوطي، الذي لا يرتضي أحداً القيام بدوره مهما كان، ومع هذا يبدو أن في كل منهم يهوذا. كما لو أن في كل منهم بقية من جميع الرسل. ففي تجنب التسمية، مجالات أرحب لصفات أوسع. ومن جهة ثانية فإن الرسل «تلاميذ المسيح» تبدّل بعضهم، إذ إنهم عادوا ليصبحوا اثني عشر رسولاً بعد انضمام بولس الرسول «شاؤول» مؤخراً إليهم.

(*) **الجنازات المسيحية**، «سلسلة محاضرات» من منشورات قسم الليتورجيا في جامعة الروح القدس ـ الكسليك ـ لبنان ١٩٩٠.

(**) وصف لمشاهدات، ومعايشات عيانية، لطقوس الكنيسة الكاثوليكية سواء في أيام السنة العادية أو مناسباتها في كنائس السريان، والكلدان، والأرمن في كل من المدن العراقية «سنجار، والموصل، وبغداد». وكنيسة «سان جوزيف» في أبو ظبي ـ الإمارات.

سعف «نخيل»، وأغصان زيتون الشعانين في ساحة الكنيسة[١]. وذلك من خلال مراسيم طقس المباركة، تتضمن صلوات، وتراتيل بين الكاهن والشعب، فتوزع تعليمات المدائح على الشعب، حيث يبدأ الكاهن بقوله:

ك ـ لنباشر مع الكنيسة كلها الاحتفاء بسر المسيح الفصحي.
ابن الرب الذي أتى إلى «أورشليم»، مدينته المقدسة،
ليتم بذلك السر بآلامه وموته، فلنسر إذن وراءه[٢].

ويقوم الكاهن بمباركة السعف والبخور، ورش الماء المقدس وسط الجماهير الغفيرة التي تحوطه في باحة الكنيسة «كل كنيسة»، هي بداية تشبيهية لما فعله الشعب في استقبال المسيح عند دخوله «أورشليم»، فقاموا بفرش الأرض بأغصان «سعف» النخيل، وحملوا بأيديهم أغصان الزيتون، يهللون، ويباركون منشدين:

ش ـ هللويا، هللويا القادم باسم الرب.

وهنا في باحة الكنيسة يقول الكاهن عند مباركته للسعف، وأغصان الزيتون:

ك ـ قدّس ببركتك «يرسم علامة الصليب (+) باتجاههم» هذه الأغصان فنسر على خطوات المسيح الملك متهللين، ونبلغ إلى أورشليم الأبدية «ويُقصد بدار السلام الأبدية، أي الجنة».

ويطبق الشعب الأفعال، بممارسات تختلف من فرد لآخر، فمنهم من يقوم بالفعل تلقائياً، ومنهم من تعوّد الممارسة فيؤديها روتينياً، ومنهم من تستفزّه المناسبة، فيتفاعل معها وجدانياً، ويزيد من ردود أفعاله، تعظيماً، وتكبيراً.

ولما كان الغد، سمع الجمع الكثير الذين أتوا للمعبد أن يسوع قادم إلى أورشليم. فحملوا سعف النخل، وخرجوا لاستقباله وهم يهتفون:

«هوشعنا! تبارك الآتي باسم الرب، ملك إسرائيل!»

فوجد يسوع جحشاً فركبه، كما ورد في الكتاب:

«لا تخافي، يا بنت صهيون

---

(١) وربما تقتصر على أغصان الزيتون في الدول الشمالية، وسعف النخيل في الدول الجنوبية، أو كليهما في الدول المعتدلة.

(٢) ك = الكاهن. ش = الشعب.

هوذا ملك آتٍ، راكباً على جحش ابن أتان».

لم يفهم تلاميذه أول الأمر هذه الأشياء، ولكنهم تذكروا، بعدما مجّد يسوع، أنها فيه كتبت، وأنها هي نفسها له صُنعت[١].

«المقارنة بين الأصل، والتشبيه»

في الأصل يكون دخول المسيح المنتظر لدار السلام ـ أورشليم ـ بعدما يبشّر به «يوحنا المعمدان». وغالباً ما كان كلاهما قد غابا معاً. أو أن المعمدان قد سبق ابن خالته للخلوة التي غاب فيها يسوع الناصري ثلاث سنوات، «برية كانت أم صومعة أم رحلة أسفار قد تصل إلى الصين كما يشير كولن ولسن في كتابه اللامنتمي «لسنا بصدد البحث حولها الآن». لكن لا ذكر لأن يسوع قد كان مع يوحنا المعمدان، أو أنهما على الأقل كانا قد التقيا عند غيابهما. إننا نعرف أن المعمدان استقبل يسوعاً، وقام بفعل تعميده بماء نهر الأردن، ولكن الأحداث تتابعت بعد عودة يسوع «الناصري» المسيح، فقد سبقت رأس يوحنا رأس المسيح إلى حتفها، ولكن «بأحداث تبدو كأنها منفصلة تأريخياً»، وبفارق ـ : أن الرأس الأولى ذهبت على طبق من فضة بين يدي «سالومي» ابنة «هيروديا» ليس لشيء إلاّ لأن المعمدان، قد بشّر بمجيء المسيح[٢]، وشهد على وجوده بعماده له، وهذا ما لا يُسمح به، لأن مجيء المسيح يعني الآخرة. فمن هو المعمدان هذا لكي يبشّر الأحبار بالآخرة، دون علمهم، أو أخذ اذن منهم بالإعلان عن قدومها، لهذا لا بدّ أن يقتل بأية طريقة. أما الرأس الثانية «رأس يسوع المسيح» فقد توّجت بإكليل من شوك تيمّناً بالملوك «لأنه دعي من قبل جموع الشعب بملك الملوك»،

---

(١) يوحنا ١٢: ١٢ ـ ١٦.

(٢) إن حالة تبشير يوحنا المعمدان بالمسيح قد ذهبت سدى، لأنه كان قد بشّر بملك الملوك. ملك إسرائيل المنتظر التي قد كتب أنها ستظل تنتظره، وإلاّ فإن مجيئه يعني إما نهاية العالم. أو التحول لدين آخر. كان المسيحية في وقتها. لذلك فمن غير المنطقي ألا تنتظره حتى الآن، لأنه لم يأت بعرفها لا فيما مضى، ولا فيما سيأتي من الأيام، لأنه هكذا قد دُوّن على شعب الله المختار، أن يبقى منتظراً المسيح القادم لكي ينقذ الأمة من الخطايا. فمهما جاء من مدعي النبوة «المسيحية» قبل وبعد المسيح لن يصدقه اليهود. لأنه سوف يكون بمثابة تغيير لا يرتضيه الأحبار. ولأنه قد كُتب أيضاً أن المسيح سوف يأتي في نهاية العالم، ويقود الجموع إلى العالم الآخر، وسيطاً بينهم، وبين ربهم. «ولكن أي مسيح هو هذا المنتظر؟». وما دام في الدنيا حياة، فلا الناس بحاجة لمسيح، ولا الأحبار. لهذا فإن عودة يسوع الناصري من رحلته في جموع اقليم يهوديا، ومدينة الناصرة بالذات، كانت من علائم النهاية من جهتين. فإما نهاية للعالم وقتها، أو نهاية للديانة السائدة آنذاك، وكلاهما مستحيل. لهذا قدّمت الضحية في الفصح اليهودي وتم الاحتفال في سبت التثنية..

ولعل نداءات المعمدان قد ذهبت كلها سدى لأنه قد بشّر بملك الملوك، ملك إسرائيل المنتظر، إلاّ مع الشعب البريء الذي يرى، ويؤمن بالمعجزات التي تحصل أمامه ومعه. وها هي الجموع تلتف حوله بعد أقل من ثلاث سنوات، هذا من ينتظر أعجوبة، وذلك ينتظر حكمة، وثالث سينتظر خلاصاً أبدياً ورابع خلاصاً من المسيح الذي لا تنتظره اقليم «يهوديا»، ولن يأتي لا فيما مضى، ولا فيما سيأتي من الأيام، لأنه هكذا قد دُوّن، على شعب اللّه المختار. أن يبقى منتظراً المسيح القادم لكي ينقذ الأمة من الخطايا. ويبدأ منها الإعداد ليوم الفصح ببداية يوم الأحد التالي للسبت الأخير قبل سبت التهيئة الذي يلي خميس الفصح بعينه. وعند هذا الحد ذاته يكون التداخل والانفصال بين المسيحية واليهودية، من ليلة عيد الفصح اليهودي الذي تنصّر في التعاليم المسيحية، واتخذ له مظهراً لطقس مسيحي، بعيداً عن الطقس اليهودي القديم الذي بقي على حاله، لكي يليه سبت التهيئة. أما لدى المسيحيين، فإن السبت قد ألغي تماماً، ودعي سبت النور لأن في نهايته طلع فجر الأحد بنوره الذي دحر ظلام الموت بقيامة المسيح. يسبقها بالطبع يوم الجمعة الحزينة، جمعة الآلام التي سارت فيها، وخلالها آلام تعذيب، ومحاكمة، وصلب المسيح[1].

إن الإعادة الاحتفالية، في أي من أماكن العبادة المسيحية، جغرافياً وتأريخياً، هي تشابيه قمينة بالتصور الحسي للهواجس التطهرية لذلك الحدث الذي جاء خارج إرادة الجموع. وبخاصة تلك الجموع التي تبعت التيار الجديد. تيار التنصّر «على يد يسوع الناصري». وبوجود تلاميذ اثني عشر له هم تشبيه لنوع من مجلس الأسباط اليهودي، ولكن بمرتبة متطورة زمنياً، ومختلفة فكرياً وعقائدياً، وبخاصة، وأنهم ممن امتهنوا الصيد البحري، وفي توضيح مهنتهم أبعاد فلسفية كامنة. ويبقى هنا موقف المشهد القائم، في كيفية تصور تنفيذ دخول المسيح لحوش

---

(١) إن حادثة إلقاء القبض على المسيح في بستان الزيتون، بعد أن ودّع تلاميذه، في ختام صلاته الطويلة حيث يبكي فيها، طالباً من ربّه أن يبعد عنه تلك الكأس «كأس العذاب، أو كأس التضحية، والفداء». سبق للمسيح أن أشار لتلاميذه، وهم يؤدون طقس العشاء الأخير أن أحدهم سوف يسلمه. وقد غاب طوال هذا الوقت في بستان الزيتون يهوذا الإسخريوطي، وجاء مع ثلة الحرس لكي يسلّم سيده. وكان قد اتفق معهم، ولكي يتعرفوا على رجلهم المطلوب، أن يقبله، وذلك مقابل ثلاثين قطعة من الفضة. سرعان ما أصبحت هذه القبلة، تمثل انطباعاً عن قبلة الخيانة. فيقول أحدهم للآخر: بأن الشخص الفلاني قبله صديقه قبلة يهوذا.

إن العقدة الجديدة في عقد المسألة التوراتية هي في عودة «أي مسيح» تعني تحقيق المصير، والقدر المحتومين كما في النبوءات. وبمجرد قيادة يسوع الناصري لمجموع شعب إسرائيل يعني قيادتهم للنهاية، وتحقيق النبوءة. وانتهاء كل أمل في خلاص بعيد المنال، فلماذا لا ينتهي هذا اليسوع لوحده. وتتجدد بنهايته النبوءة، وبخاصة في أعياد الفصح التي تحتاج لضحية.

أو باحة أي كنيسة، أو باحة أي مدينة. تمثيلاً لدخوله المدينة «مدينة القدس ـ أورشليم» وتصوير مواقع، ومواقف المؤدين من المحتفلين. كاهن قائد وشعب مصلٍّ مكفّر «بينهم من يؤدي دوره في الاحتفالية، ومن يتفرّج، ومن يصلي». ومنهم من جاء للتبرّك بصدق، خصوصاً من له ـ أو لقريب عزيز عليه ـ عاهة، لعل أعاجيب تتكرر هذا اليوم لذاته، كما حصل عند استقبال ذوي العاهات للمسيح الذي جاء أورشليم. ويختلف الموقف من فرد لآخر حسب درجة التعبّد ودرجة الفهم ودرجة الموقع ضمن الحدث. فالمتفرج غير الناذر، وغيره الذي جاء ليطلب بركة، وأعجوبة، إذ يقوم من جاء للتبرّك، ببركة الشعانين للتطهّر، وبخاصة هؤلاء الذين نذروا، أو من لهم علة أو عاهة جاء تيمّناً بالبركة التي حصلت، وربما تحصل مجدداً معه من خلال ممثل الشفيع على الأرض. وهكذا يقبل الناس السعف، ويتقبّل ذرات الماء المقدّس كأنما هي هبّات نسيم جاءت من الجنة أو دواء شافٍ للعلل. وبينما يتمثّل الكاهن، ومجموعة الشمامشة، وخدّام الكنيسة الحالة في التبريك، وذلك من خلال المرور بموكب المسيح الداخل لأورشليم، تتنازعهم نوازع متعددة، نوازع لها علاقة بالإيمان الراسخ، للقيام بهذه المهمة من جهة، وعظمة الدور الذي يقوم به من جهة ثانية[1].

---

(١) ولعله من المناسب هنا أن نورد هذا الفصل من رسالة القديس مرقس الإنجيلي البشير (٨: ٢٧ ـ ٣٥) لكي نوضح الأرضية التي كان يتعامل بها المسيح، مع تلاميذه آنذاك، والتوجس الذي كان يغلف علاقته مع الأحبار بخاصة:

«في ذلك الزمان، ذهب يسوع وتلاميذه إلى قرى قيصرية فيلبس، فسأل في الطريق تلاميذه:

ـ من أنا في قول الناس؟

فأجابوه:

ـ يوحنا المعمدان. وبعضهم يقول: إيليا، وآخرون: أحد الأنبياء.

فسألهم:

ـ ومن أنا، في قولكم أنتم؟

ـ أنت المسيح.

فنهاهم أن يخبروا أحداً بأمره. وبدأ يعلمهم أن ابن الإنسان، يجب عليه أن يعاني آلاماً شديدة، وأن يرذُله الشيوخ، والأحبار، والكتبة، وأن يقتل، وأن يقوم بعد ثلاثة أيام. وكان يقول هذا الكلام صراحة. فانفرد به بطرس وأخذ يعاتبه. فالتفت فرأى تلاميذه. فزجر بطرس وقال:

ـ اذهب عني، يا شيطان، لأن أفكارك ليست أفكار الله، بل أفكار البشر.

ودعا الجمع وتلاميذه، وقال لهم:

ـ من أراد أن يتبعني، فليزهد في نفسه، ويحمل صليبه ويتبعني. لأن الذي يريد أن يخلّص حياته يفقدها، وأما الذي يفقد حياته في سبيلي، وسبيل البشارة، فإنه يخلّصها».

مساق طقس القدّاس الإلهي

بعد أن تدخّل الجماهير الغفيرة داخل الكنيسة، وهي تنشد ما يتناسب من المزامير، وفي الداخل تبدأ مراسيم القداس الإلهي، الذي يتكرر في هذا الأحد، وفي كل من «خميس الفصح، والجمعة العظيمة، وأحد القيامة، وأحد الصعود، وأحد العنصرة»، وكل أحد من آحاد السنة، وهو كما في السياق التالي:

ويقوم الكاهن منذ البداية، أي قبل قراءة الرسالة الأولى بالطلب من الشعب بقول فعل الاعتراف «إني أعترف بإله واحد.... إلخ»، فيردده الشعب بصوت مسموع:

١ - قراءة الرسالة الأولى: وفيها فصل من إحدى رسائل الرسل، أو المزامير، وغالباً ما تكون إحدى القيم المهمة في العهد القديم «التوراة».

٢ - القراءة الثانية: ولكن بلون آخر، أي نموذج من مزمور آخر. غالباً ما يكون حادثة مشابهة لما تقدم من العهد القديم في الرسالة الأولى للتأكيد عليها، وللمطابقة معها من جهة ثانية ولكن بالمعايير، والقيم المسيحية الجديدة.

٣ - الإنجيل المقدس: بمادة تتناسب مع موضوع المناسبة. وهو تأكيد لموضوعتي الرسالتين الآنفتين، سواء على شكل اقتباس من تعاليم المسيح، أو إحدى رسائل الرسل للأمم، غير المسيحية التي دعوها للتنصّر.

٤ - خطبة الكاهن: تكمّل موضوع الإنجيل، وموضوع المناسبة. وتقرأ قبلها وبعدها، بالترتيب أفعال «الإيمان، والندامة، والتوبة».

٥ - التقدمة، أو الرفعة: وهي أهم فعل طقسي، ورئيسي قبل فعل طقس المناولة. ألا وهو فعل طقس تجسيد حلول الروح القدس بين الناس في هذا القداس، من خلال استحضار الأقنوم الثالث «الروح القدس» بواسطة تحضير جسد ودم المسيح، الممثل هنا بالبرشام، والنبيذ المقدسين. ثم يطلب الكاهن من الشعب أن يتلوا فعل الإيمان «نؤمن بإله واحد، القادر على كل شيء... إلخ»، وذلك بصوت مسموع أسوة بما قبله من الأفعال. وبعدها يقول:

ك - لنصافح بعضنا بعضاً بسلام المسيح.

عند ذاك يستلم منه اثنان من الخدّام الصغار «السلام المقدّس» لكي يسلموه للشعب، حتى آخر مقعد من مقاعد الكنيسة.

وقبل المناولة يطلب من الشعب تلاوة فعلي «أبانا الذي في السموات.... إلخ»، «السلام عليك يا مريم...إلخ». إن الإيمان الذي يداخل المتعبد أثناء تأدية هذه الطقوس لها علاقة بمدى تقبّل الفرد الداخلية، لممارسة تقديم السلام، والمصافحة العامة، وهي نقلة حيوية، مؤثرة بين فعل المصافحة، والصفح بالسلام كما يقول الآب توما بهنام عزيزو، خوري كنيسة القديس توما للكاثوليك / ساوثفيلد، ميتشيغان، إذ إن هناك بالتأكيد فرق كبير بين المتعبد والراهب، ولكن كلاهما يتقاسمان عنصراً مشتركاً واحداً وهو ذلك النقاء، والهاجس البسيط، والحقيقي.

٦ ـ المناولة: أي مناولة القربان «جسد، ودم المسيح» الخبز والنبيذ، اللذين حضرا في طقس التقدمة، أو الذبيحة الإلهية. وترتل ما بين هذه الأفعال، وخطواتها، كل التراتيل، والأدعية، والأناشيد المحلية، بالألحان المشرقية. وتقال صلاة بعد التناول مثل الصلاة التالية:

ـ أعطِنا، يا رب، أن نشبع يوماً من التمتع سرمدياً بلاهوتك في الوليمة السماوية:

التي إليها يشير في هذه الحياة الدنيا.

تناولنا لجسدك، ودمك الكريمين. أنت الحي المالك إلى دهر الدهور.

ويختم الكاهن القدّاس بقوله:

ك ـ اذهبوا بسلام المسيح.

وهو يرسم علامة الصليب، بينما يتوجه بالإشارة للجهات الثلاث التي تمثل جمهور الكنيسة، فيجيبه الجمهور قائلاً:

ش ـ الشكر لله.

ثم يقوم الجمهور بالخروج أفراداً، أو جماعات كما دخلوا بممارسة فعلي السجود، والتبرك بالماء المقدس، وهم يرسمون علامة الصليب على أنفسهم ابتداءً من جباههم كما سيأتي. ويكون الشعب طوال مراسيم القدّاس الإلهي متبعاً لتعاليم إما مكتوبة أو بالإيعاز الذي يصدر عن الكاهن. ويقرأ الرسالتين الأولى والثانية أفراد من جوقة الشمامشة. أما قراءة الإنجيل فتتم من قبل الكاهن الذي يتبعها بالخطبة، وغالباً ما تكون الخطبة تفسيرية لموضوع قراءة فصل الإنجيل الخاص بقدّاس هذه المناسبة كذلك يقوم بفعل المناولة الكاهن فقط، ويساعده بحمل طبق الخدمة «أي الطبق الذي يوضع أمام فم المتناول، تحت حنكه لكي لا تسقط الفتات على

الأرض» أحد الشمامشة. ولكن أقدم الشمامشة ممكن أن يساعد بفعل المناولة لو كانت أعداد المتناولين غفيرة. ونلاحظ أن الكاهن، يلبس مع بقية الشمامشة، والخُدّام من الشعب في الكنيسة، ملابس تختلف أنواعها بمستويات، ودرجات القدسية. إن هذه الملابس التي يرتديها هؤلاء لها تأثيرات خاصة نفسياً، وجمالياً، وقدسياً تفصلهم عن عامة الشعب، بمسافة أولية شكلاً ومهابة، قبل أي من الدرجات المميزة الأخرى، كالحركات الخاصة، وأفعال تابعة للطقس، واستخدام البخور، والشموع، والإشارات العامة، رش الماء «المقدّس»، ودق الأجراس. إن لكل حركة من حركات الكاهن معانيها التي غالباً ما اعتاد عليها أفراد الشعب المواظب على الحضور لتكرارها لكن بعضها تحتاج لإيعازات خاصة، حتى حالات الجلوس، والوقوف، والركوع، فهي حركات متبادلة بين الكاهن، والشمامشة، والخُدّام من جهة، وأفراد الشعب من المصلين من جهة أخرى، تكون على العموم مفهومة ومعتادة، غير أن هناك حركات تختلف من طقس قدّاس لآخر. خصوصاً تلك التي لا تتكرر إلاّ في الاحتفالات الخاصة التي تأتي لمرة واحدة في السنة. كأحد الشعانين، وخميس الفصح، والجمعة الحزينة مثلاً.

عناصر الطقوس الكنسية

والعناصر الطقسية كثيرة في تقاليد الحضور في الكنيسة، ابتداءً من الدخول حتى الخروج منها، ففي الدخول والخروج على المصلي سُنة تبليل يده اليمنى بالماء المقدّس، الموضوع في جرنين على طرفي بوابة الكنيسة «كل كنيسة كاثوليكية»، والقيام برسم إشارة الصليب على جسده. ويتم ذلك والمصلي الداخل أو الخارج يقوم بفعل السجود «الركوع» بركبة ونصف باتجاه المذبح. ثم بعدها يقوم خاشعاً إما لإيجاد محله في الجلوس، لحضور القدّاس أو المغادرة.

ومن العناصر الطقسية الأخرى فعل المصافحة بعد حلول الروح القُدُس، عند الانتهاء من الرفعة «التقدمة». أي تمرير السلام المقدّس من البركة التي حصل عليها الكاهن إلى الشعب، حيث ينطلق اثنان من الصبية «الخدّام»، وقد استلما السلام بكفيهما المضمومين على بعضهما، كل على انفراد وبأحد اتجاهات ممر الكنيسة الوسطى، يميناً، وشمالاً. وذلك لتسليم «السلام» لأحد المصلين الواقفين في رأس صف من صفوف المقاعد، حتى نهاية صفوف المقاعد في الكنيسة. بينما يلتفت كل من في رأس صفه للمصلي الذي بجانبه ليسلمه «السلام»، مهما كان، صغيراً، أو كبيراً، رجلاً، أم امرأة. وحال أن ينتهي أي منهم يقوم بتقبيل «رمز السلام بين كفيه، ويرسم إشارة الصليب على جسده، ويجلس خاشعاً». وهكذا يفعل كل من يستلم «السلام»، بتسليمه للذي بعده في الصف حتى نهاية الأفراد في كل صف.

وفي طقس المناولة يتقدم كل من يريد التناول من المصلين بالتتابع، وفي صف طويل أو صفين، حتى يصل كل منهم لمكان المناولة، أمام الكاهن الذي جاء إلى حافة الدرج في نهاية حقل المذبح، وقد واجه الجمهور. على أن فعل المناولة هذا، يكون قد سبقه بوقت كافٍ فعل الاعتراف الذي يتجسّد في الذهاب إلى كرسي الاعتراف، بعد أن كان قد قام بعملية فحص الضمير، وتذكّر خطاياه بأصنافها المميت منها، والصغير، الكبائر العظيمة، والصغائر الجانحة، وما إليها. ويكون وراء نافذة كرسي الاعتراف، أحد الكهنة المختصين، يسمع، ولا يرى، باعتباره الشفيع والوسيط لتوبة الخاطىء، ويبدأ فعل الاعتراف بتوجيه الكاهن السؤال للمعترف الذي يحس باحتلاله لمكانه بعد رحيل المعترف السابق قائلاً:

ك ـ هل صليت فعل الاعتراف؟/ م ـ نعم.

ك ـ وهل فحصت ضميرك./ م ـ نعم.

ويصمت الكاهن بانتظار اعتراف المصلي، فيقوم بسرد خطاياه، بالأسلوب الذي يرتئيه هو نفسه، فإما أن يجمع كل ما عنده من الخطايا دون التخصيص، فيقول إجمالاً:

م ـ إنني خاطىء.

وقد يقوم الكاهن بالتدخّل لتذكير المعترف قائلاً:

ك ـ ما نوع خطاياك؟

م ـ كذا، كذا، حسب درجاتها، وتصنيفها في سلّم الأوليات، والكبر. وعندما ينتهي المعترف من سرد خطاياه، يضيف:

م ـ أطلب المغفرة.

وينصحه الكاهن، ويطلب منه الندم، وعدم معاودة ما قام به. ويكلّفه بعدد من الصلوات الفرض عليه، ويودعه بجملة:

ك ـ اذهب بسلام.

ويعود المصلي خاشعاً، وقد استعد للتناول، بانتظار إنهاء صلوات الفرض، وحتى يأتي وقت طقس المناولة ضمن القدّاس. لكن البعض ممن لم يكملوا فروضهم، ولم تسنح لهم الفرصة يؤجلونها لما بعد المناولة، لهذا يبكر كثير ممن يريد الاعتراف للحضور قبل القدّاس بوقت كافٍ. لكن هذه العادة في الاعتراف قد باتت شكلية في وقتنا الحاضر، ولا يزاولها

الشبّان إلاّ نادراً. اللّهم إلاّ قبل الزواج أو يوم المناولة الأولى، ويكون فعل الاعتراف ذاتي، بين المعترف، وربه، دون وسيط بشري، حتى ولو كان كاهناً. وبعدها يذهب المعترف للمناولة.

ويبدو أن ما يقوم به المسيحي في فعلي الاعتراف، والمناولة يختص كليهما بمبدأين، الأول الخاص بفعل الاعتراف، وهو الطقس المتأصل في ترويض النفس على الاعتراف بالذنب. أو ما دعي فيما بعد بالنقد الذاتي وهو فعل ترويضي أخلاقي، لا يتم إلاّ بفعل المجاهرة الجريئة بين المعترف «الخاطىء»، وبين منصت «مندوب» عن الآخر، «اللّه»، أو المجتمع، ولكن بنوع من التحفظ، والحفظ للسرية التامة، يقترب دور الكاهن هنا من دوريّ كل من الطبيب، والمحامي اللذين يكشف كل منهما الخصوصية الذاتية للفرد، ولا يجوز له في مهنته أن ينشر تلك الخصوصية أو الأسرار على الملأ أبداً. أما اكتمال فعل النقد الذاتي، فيتم بتلك المصالحة، التي تتوج بفعل التناول «تناول جسد الرب ـ المسيح» يتم على ضوئه ذلك التطهير الوارد في نظرية أرسطو «الكثارسس»، ورضى المعترف عن ذاته، وتخلّصه من كل ما أثقل كاهله من خطايا. وهذه الأفعال الطقسية للاعتراف والمناولة، يتدرّب عليها الفرد قبل دخوله طقس المناولة الأولى عندما يتم السبع سنوات من العمر، «أي في عمر يميز بين الخير والشر، وذلك ما يقرره أهل الصبي أو الصبية» فيجرى للصغار طقس جماعي يدعى بالمناولة الأولى «نعرض له لاحقاً».

أفعال طقسية تؤدى بالإيعاز

إن الكاهن الذي تقوم عليه أكثر الأفعال الطقسية، هو الذي يؤدي كل حركة بروح طقسية كاملة التفاعل حتى البسيط منها تنعكس على الشعب المصلي سواء بردود أفعال صامتة خاشعة، أو بأداء الأدوار الموكلة إليهم من خلال إيعازات الكاهن. وتشتمل أفعال الكاهن الطقسية على:

- فتح، وغلق خزانة البرشام، وهي المستودع المقدس لجسد الرب.

- تحضير شرب النبيذ، وغسل كأس النبيذ المقدسة، ومسحها بمنديل أبيض، وطوي هذا المنديل ووضعه فوق الغطاء المربع للكأس.

- حركات السجود المتكررة، والإشارات الخاصة بمباركة المصلين، والإيعازات الخاصة للشمامشة، والخدّام، والمصلين معاً، أو وحده.

- أما طقسية توليد الحضور الإلهي في القدّاس أثناء الرفعة، تتكون من فعل إخراج

البرشام من مكانه المقدس، وأخذ برشامة كاملة، ووضعه بين السبابتين، والوسطيين فوق الكأس لرفعها، وإعادة إنزالها مع الكأس، فوق الرأس، ثم وضعها على المذبح باتجاه جمهور المصلين، والسجود أمامها لمرات مع تكرار إجراء عملية التأشير بإشارة الصليب باتجاه الجمهور. وبعدها يرفعها فوق الرأس مع رنين الأجراس، وسجود المصلين، والكاهن، والكل يمارس فعل التحضر لاستقبال توليد جسد الرب. ويرافق هذا الفعل شرح الكاهن لأصل الحدث، والفعل التشبيهي له كالآتي:

ك ـ عندما حضر المسيح مع تلاميذه في علّية صهيون للعشاء الأخير «السرّي» أخذ يسوع خبزاً، وكسره، وباركه. وقال لهم:

ـ هذا هو جسدي.

يكسر الكاهن البرشام، ويراكمه في صحن بقدر يكفي لجمهور المصلين لكي يتناولوه، وعندما ينتهي يقوم اثنان من الخدّام الصغار بسكب النبيذ والماء من دورقين، في الكأس التي بيد الكاهن، وهو يردد:

ك ـ ثم أخذ يسوع الخمر، ورفعه وباركه قائلاً:

ـ هذا هو دمي. فمن شربه شرب ماء الحياة.

ويقوم الكاهن برفع كل من الصحن، والنبيذ بكلتا يديه، مردداً صلاة، ودعاءً. بعدها يمزج النبيذ، والخمر في الكأس، ثم يقوم بفعل التقدمة، مردداً بأن هذه التقدمة، هي الذبيحة الإلهية التي يقدمها الشعب في هذا القدّاس الإلهي تضحية منا له. وتقرع الأجراس الآن لرفع البرشام فوق الكأس مع ترديد دعاء:

قُدّوس/ قدوس، قدوس أنت الرب القوي الإله الصباووت.

السماوات والأرض مملوءتان من مجدك العظيم.

هوشعنا في العلى، «في الأعالي»،

مبارك الآتي باسم الرب./ هوشعنا في العلى.

وقتها يكون الفعل بتحول المادة/ الكلمة إلى روح تحل بين الحشد المصلي. فيقوم الكاهن بفعل المناولة الآن، ويطلب من الشعب استلام سلام المسيح «السلام المقدّس»، والمصافحة فيما بينهم من خلاله، بينما يتلى ابتهال مناسب. إن ابتهال الكاهن بجمع المصلين

هو ذلك الطقس الذي يستحضر حلول روح القدس بينهم، من خلال حضور الجسد، والدم في الكأس وهما أصلاً برشام «خبز»، ونبيذ مباركان. حينذاك لا أحد يجرؤ السماح لنفسه بالنظر إلى فوق، إلى الخالق الذي حلّ بينهم. وفي هذه الأثناء، يقوم كورس الإنشاد بتلاوة أحد الأناشيد المقررة، بعدها يتلو الكاهن بعض الأدعية التي يتضرّع فيها للعذراء مريم بأن تتوسط لدى ابنها لكي يقبل هذه التقدمة، والتضحية الإلهية، ويتقبّل أيضاً توبة الخطاة... إلخ.

هذا الطقس يتجاوز في تأثيره الدرامي حتى فعل المناولة الذي يبدأ فردياً، ويتم جماعياً بفعل المناولة. لأن ما يؤدى هنا الجوهر الذي اعتنت الكنيسة به لتجسيد معنى التكامل بين الطبيعتين الإلهية والإنسانية اللتين تتمثلان في يسوع المسيح «عيسى ابن مريم» من جهة، وفعل التضحية القديمة «التي تدرجت من تقديم إنسان كضحية، إلى تقديم حيوان، فأي ضحية أخرى، حتى ولو كانت بشكل باقة زهور أو إيقاد شمعة» جاء المسيح لكي يضحي بنفسه من أجل المصالحة بين بني البشر، وخالقهم منذ المعصية التي ارتكبها كل من آدم، وحواء، وطردا نتيجتها من جنة عدن. لهذا يطلب الكاهن والشعب من ورائه قبول التقدمة، والتوبة من جهة ثانية. ورغم أن كل فرد مسيحي لا يعتبر مسيحياً بالولادة ما لم يعمد من الخطيئة الأصلية، وهي معصية آدم وحواء لخالقهم بأكل التفاحة، فإن ذلك التطهير بالعمادة، لا يعفي المسيحي من الندم وتقديم التضحية في كل قدّاس إلهي يحضره.

ولهذه الطقسية الخاصة بفعل تحضير الدم، والجسد، أبعادها التأريخية، والميثولوجية المتوارثة، وترتبط بعلاقة جدلية مع فعل الانحناء، والسجود العظيمين، خصوصاً، وأن تحضير دم وجسد المسيح «مع تناسي الروح في هذا الجسد، ربما لأن ما يقوم به أقنوم الروح القدس قد عوّض بالفعل عنه» فإن الأمر بالسجود، هو لعدم استطاعة المؤمن تقبّل قوة الإشعاع المتكوّن من هذا التمازج، ويبدو أن ذلك مرتبط من جانب آخر بالقدرة، أو الجانب الإلهي للمسيح.

طقس أحد «السعانين» الشعانين

إن طقس أحد الشعانين، جزء لا يتجزأ من مسيرة السيرة المسيحية، التي تدور في مناسبات على مدار أيام السنة. ويبدأ طقس قدّاس أحد السعانين كالمعتاد بقراءة الرسالة الأولى التي تكون متضمنة غالباً لما يُشير إلى فصل من بشارة القديس «متى» الذي يصف حادثة دخول المسيح إلى «القدس - أورشليم» على جحش، وأتان[١].

(١) إنجيل متى، الإنجيلي البشير «٢١، ١٦ - ١١».

أو هذه القراءة التي تتصدّرها العبارة التالية من النشيد الثالث لعبد الرب المتألم من سفر أشعيا النبي[١]:

قد أتاني السيد الرّب لسان العُلماء، لأعرف أن أُغيث المُعيي بالكلمة. إنه يُنبّه أذني، صباحاً فصباحاً، لأسمع كالعلماء. السيد الرّب قد فتح أذنيّ.

فلم أعاصِ، ولا رجعت إلى الوراء. بذلت ظهري للضاربين، وخدّي للنّاتفين؛ ولم أستر وجهي عن التعبيرات والبصق.

اليد الرب ينصرني، لذلك جعلت وجهي كالصّوان، وأنا عالم بأني لا أخزى.

أما القراءة الثانية فقد تكون من رسالة القديس بولس الرسول إلى أهل فيلبي[٢]:

أيها الأخوة: إن المسيح يسوع، مع أنه في صورة اللّه، لم يعد مُساواته اللّه غنيمة، بل تجرّد من ذاته، متخذاً صورة العبد، وصار على مثال البشر، وظهر بمظهر الإنسان. فوضع نفسه، وأطاع حتى الموت، موت الصليب. لذلك رفعه اللّه فوق كل شيء، ووهب له الاسم الذي يفوق جميع الأسماء. كيما تجثو لاسم يسوع، كل رُكبة في السماء وفي الأرض وفي الجحيم، ويشهد كل لسان، أن يسوع هو الرب، تمجيداً للّه الرب.

ويتبع القراءتين مديح فيه ما يتضمن الآتي:

- «قولوا لابنة صهيون:
- هوذا مَلِكُك قادماً إليك،
- وديعاً راكباً على أتان،
- وجحش ابن أتان».

وتنشد جموع الشعب في الكنيسة مديحاً يتلاءم مع دخول المسيح إلى أورشليم، وذلك بعد وصف الكاهن لاستقبال الشعب له بأغصان أشجار الزيتون التي يتهلّلون بها[٣]، وسعف النخيل التي فرشوا أرض أورشليم «الأصلية، والمتخيلة» بها، هاتفين:

(١) أشعيا: ٥٠: ٤ ـ ٧.

(٢) رسالة القديس بولس الرسول إلى أهل فيلبي ٢: ٦ ـ ١١.

(٣) وربما تقتصر على أغصان الزيتون في الدول الشمالية، وسعف النخيل في الدول الجنوبية، أو عليهما في الدول المعتدلة.

- «حيّوا ابن داوُد،
- تبارك الآتي باسم الرب،
- هوشعنا في العلى»[1].

ويُنشد أثناء الطواف في ساحة الكنيسة أيضاً مقطع من مزامير داوُد الذي مطلعه:

- «للرب الأرض وملؤها،
- الدنيا وكل الساكنين فيها،
- هو على البحار أسسها،
- وعلى الأنهار هيأها،
- من هوذا الذي يصعد جبل الرب،
- ومن يقيم في موضع قدسه........ (إلى)،
- ارفعي أيتها الأبواب رؤوسكم،
- وارتفعي أيتها المداخل الأبدية،
- ليدخل ملك المجد،
- من هو هذا ملك المجد،
- رب القوات هو ملك المجد».

ومن الإنجيل المقدس يُقرأ مثلاً فصل من بشارة القديس يوحنا الإنجيلي البشير[2]:

«ولما كان الغد، سمع الجمع الكثير الذين أتوا للعيد أن يسوع قادم إلى أورشليم. فحملوا سعف النخل، وخرجوا للاستقبال، وهم يهتفون:

- «هوشعنا! تبارك الآتي باسم الرب، ملك إسرائيل!».

فوجد يسوع جحشاً فركبه، كما ورد في الكتاب:

«لا تخافي، يا بنت صهيون

(١) هوشعنا: هللو.

(٢) بشارة القديس يوحنا الإنجيلي البشير ١٢: ١٢ ـ ١٦.

هوذا ملكك آتٍ، راكباً ابن أتان».

لم يفهم تلاميذه أول الأمر هذه الأشياء، ولكنهم تذكّروا، بعدما مجّد يسوع، أنها فيه كتبت، وأنها هي نفسها له صنعت».

وتتم في الكنيسة بعد ذلك التسابيح والأناشيد، ثم يبدأ القداس الإلهي حسب السياق «كما ذكرنا آنفاً» مثل ما جاء في المزمور ٢١:

الردّة: أعظّمك يا إلهي الملك

وأبارك اسمك مدى الدهر، وإلى الأبد.

١ - فرحت عندما قيل لي:

«هيا بنا إلى بيت الرّب!»/ ها قد وقفتْ أخيراً خطانا عند أبوابكِ يا أورشليم.

٢ - إلى هناك توجهت الأسباط/ توجهت أسباط الرّب صعوداً

ليصبح آل إسرائيل شُهوداً/ ويرفعوا إلى اسم الرب حمداً

هناك نُصبتْ عروش للقضاء/ عروش لبيت داوُد.

وقد يقول الكاهن بهذه المناسبة مثلاً:

الكاهن: يا جميع الشعوب، صفقوا بالأكف، اهتفوا للّه بصوت الترنيم، اهتفوا للّه بصوت الترنيم، فإن الرّب صالح، قدّس، ملك عظيم، عظيم على جميع الأرض. حيّ المسيح ربنا، حيّ رجانا وميراثنا، عن يمين اللّه في الأعالي، يسوع المسيح الفادي. أشيدوا للّه أشيدوا لمليكنا أشيدوا. فإن الرّب هو ملك الأرض كلها. أشيدوا بصوت ترنيم. ملك اللّه على الأمم، اللّه العلي مدى الدهور. رنموا للرّب ترنيماً:

اللازمة: رنّموا للرّب ترنيماً جديداً.

أحسنوا العزف مع الهتاف/ فرحين مُرنمين.

١ - اعترفوا له بالكِنارة، وبعُشاري الأوتار.

أشيدوا له، رنّموا فإن التسبيح يجمُل بالمستقيمين.

٢ - الرب يُحبّ البِرّ والعدل ومن محبته امتلأت الأرض.

به تبتهج قلوبنا وعيوننا، فهو نُصرتنا وملجأنا وعليه توكلنا.

وتترك الأيام الأربعة التالية بلا احتفالات تذكر، لأن المسيح في تلك الأيام كان قد التقى بالشعب في «القدس - أورشليم». وأجرى كثيراً من الأعاجيب، ومنها أعجوبة «تكاثر السمك، والخبز»[1]. والتقى الأحبار في الهيكل، لينشر تعاليمه بين الشعب. ويناقش الأحبار في أمور الدين خلالها. لذلك لا يتم أي احتفال يذكر في الكنائس.

ونلاحظ من هذا التمهيد لاحتفال شعبي عام، سواء تمّ ذلك في ساحة الكنيسة، أو شوارع المدينة، خاصة لو كانت المدينة للغالبية المسيحية، كما في لبنان، وقرى سوريا، وشمال العراق. فيتعدى الابتهاج بالاحتفال الديني إلى طقس لكرنفال شعبي بهذا العيد، بشكل تبدو فيه المراسيم متداخلة التعابير بين فعلي التعبّد، والتشبّه بالشعب الذي عايش المسيح المنقذ، واستقبله آنذاك..

الفصح المسيحي
غسل الأرجل في خميس الفصح

وما إن يأتي يوم الخميس مساءً، وهو خميس الفصح، ويسمى لدى المسيحيين «خميس الأسرار»، أو العشاء الرباني «العشاء الأخير»[2]، فإن سياق الاحتفال يتم هو الآخر من خلال القداس الإلهي.

- فتتم قراءة الرسالة الأولى حيث يقتطف فيها نموذجاً من «سفر الخروج»[3] فيها توضيح للتشابه. فيها شرح لحادثة الخروج من مصر القائل فيه: هذا الشهر يكون لكم رأس الشهور، هو لكم أول شهور السنة كلما كلّ الجماعة وقولاً لهم: «ليتخذ لهم في العاشر من هذا الشهر، كل واحد حملاً، فإن كان أهل البيت أقل من أن يأكلوا حملاً، فليأخذوه هو وجاره، القريب من منزله، حتى يجتمع عليه (...) ويأخذون من دمه، ويجعلون على عضادتي الباب وعتبته العليا، على البيوت التي يأكلون فيها، ويأكلون لحمه في تلك الليلة شِواء نار فطير، مع أعشاب مُرّة يأكلونه. وهكذا تأكلون أحقادكم مشدودة، ونعالكم في أرجلكم، وعصيكم في أيديكم، وكلوه بعجلة، إنه فصح الرّب... إلخ[4].

---

(١) إنجيل مرقس، ٦/٣٥ - ٤٤.

(٢) العشاء الرباني نسبة لمعنى كلمة «رابي» أي المعلم بالآرامية، والسريانية، وحتى العربية.

(٣) سفر الخروج، ١٢، ١ - ٨، ١١ - ١٢.

(٤) سفر الخروج ١٢، ١ - ٨، ١٨ - ١٤.

ـ وتتم الرسالة الثانية التي هي عبارة عن فصل من رسالة القديس «بولس الرسول» الأولى إلى أهل «قورنتس» مثلاً[1] فيها تأكيد على الحادثة القديمة في العهد الجديد. وتتصدّر القراءة عبارة مثل:

«إنكم أكلتم وشربتم، تخبرون بموت الرّب».

ـ وفي قراءة الإنجيل يقدم الكاهن فصل من بشارة القديس «يوحنا الإنجيلي البشير»[2]. فيها وصف تفصيلي لأحداث يوم الخميس، وكيف قام المسيح بغسل أقدام تلاميذه، مبيّناً موقف «سمعان ـ القديس بطرس فيما بعد» الرافض لأن تغسل قدماه بيد المعلم «يسوع المسيح». وبعد الخطبة الشارحة والدالة لمعاني هذا الطقس، يقوم الكاهن، هو الآخر بغسل أقدام اثني عشر شاباً من أبناء الشعب ويقبّل أقدامهم، ويتميز من بينهم من يقوم بدور «سمعان»، وذلك أثناء ترتيل أناشيد مثل هذه التي تبدأ باللازمة التالية:

«إني أعطيكم وصية جديدة: أن يحب بعضكم بعضاً كما أحببتكم».

ويطلب إنشاد أحد هذه الأناشيد:

ك ـ الرب قام من العشاء، ثم صبّ ماء في مطهرة[3].

ك ـ وأخذ يغسل أقدام تلاميذه: تاركاً لهم هذه القدوة.

قال سمعان ليسوع[4]:

مشخّصاً دور سمعان ـ رب، أأنت تغسل قدميّ؟

ك ـ فأجابه يسوع ـ وإذا لم أغسلك، فلا حظّ لك معي.. إلخ[5].

---

(١) قور ١١: ٢٣ ـ ٢٦.

(٢) انجيل القديس يوحنا الإنجيلي البشير «١٣: ١ ـ ١٥».

(٣) المطهرة: وعاء للماء المقدّس.

(٤) سمعان: القديس بطرس، فيما بعد.

(٥) هلم يا أبا المساكين،
هلم يا مانح المواهب،
هلم يا ضياء القلوب،
يا معزياً جليلاً،
يا ضيف النفس العذب،
يا هناءً حلواً، =

ويكون هذا مثالاً جاهزاً، للشعب الحاضر في الكنيسة، وموعظة حية له كلاماً، وغناءً وفعلاً جاهزاً من خلال الطقس التمثيلي والتشبيهي، حيث يلبس الأشخاص الذين سوف يشخصون أدوار التلاميذ الاثني عشر، ملابس بيضاء، ويكونون قد اغتسلوا، فنظفوا أجسادهم من الخارج، واغتسلوا داخلياً عندما مارسوا سرّيّ الاعتراف، والمناولة «وبخاصة أبناء الطائفة الكاثوليكية» فأصبحوا أطهاراً أنقياء تعتمل في دواخلهم هواجس عديدة بين الإيمان، أو التباهي أمام الناس، والأقرباء، والأحباء. ومن جهة ثانية فإن نظرة الناس إليهم سوف تتسم بالوقار والتقدير، على اعتبارهم نخبة مزكاة من بين الرعية، اختارها الكاهن كما اختار المسيح تلاميذه وقتها. ونلاحظ بوجه خاص بأنه على الرغم من أن المحاورة في سياق القدّاس تتم برواية الكاهن، ومن يعاونه من الشمامشة، إلاّ أن المحاورة عن القيام بفعل غسل الأرجل التشبيهي تنتقل إلى الجانب الأدائي حيث يتلبس الكاهن شخصية المسيح، فيردد كلامه، وهو يقوم بفعل غسل أقدام التلاميذ. بينما يكون التلاميذ قد حفظوا ديباجة أدوارهم، وبخاصة من اختير لدور «سمعان» الذي يردد كلام القديس بطرس المار آنفاً.

على أننا نود التهميش هنا لملاحظة قلما تبرز، وتبدو واضحة للدارس ففي الوقت الذي يشار لكون خميس الفصح، هو ذكرى العشاء الأخير في علية صهيون عندما تناول يسوع «الناصري» المسيح عشاءه الأخير بين تلاميذه، وقسّم الخبز، وباركه، وتناول قارورة نبيذ،

= يا رفيق الدرب،
أنت في الكدّ راحة،
وفي الحرّ برودة،
وفي البكاء عزاء.
يا بهجة النور الساطع،
املأ قلوب المؤمنين،
اضرمها بنار المحبة،
املأها حتى الصميم.
نقّ ما كان دنساً،
اروِ ما كان جافاً،
واشفِ منا الجراح.
امنح أبناءك المواهب،
والفضيلة ثوباً،
والخلاص مصيراً،
والسعادة الأبدية.

وأضاف منها إلى الخبز مشيراً لكون أن هذا الذي يضيفه هو دمه. وهما أي الخبز والنبيذ اللذين من دونهما لا يحيا الإنسان، ولا يدخل ملكوت السماوات التي وعدوا به، وذلك هو الطقس الذي يعاد في كل قدّاس إلهي في الفعل التشبيهي للتحضير لحلول الروح في الجسد «الآنف ذكره»، وهو غير ما يُدعى بالفصح اليهودي، موعد أعياد اليهود، لأن خميس الفصح قد انتقل للتعاليم المسيحية بشكل جديد ومجدد، وهو موعد سجن المسيح وبداية آلامه، وثم موته. لهذا نجد أن احتفالات خميس الفصح المسيحي يشير لحادثة مخالفة. وهي حادثة تغسيل الأقدام، عندما قام المسيح بغسل أقدام تلاميذه. فهل حصل هذا قبل العشاء السري، مع غسل الأيادي؟ أم أن هذا التغسيل حدث فيما بعد؟ أم أنه لم يحدث أصلاً؟ بل إنه رمز للدلالة على التواضع الذي على الراعي أن يتمثله في الجماعة بينما تتم طقسية المناولة، رغم أنها ظاهرة ترمز للعشاء الأخير بشكلها التأريخي واللاهوتي؟ لكن احتفالاً آخر يتم بعد أسبوع من أحد القيامة أو أكثر وهو الاحتفال بالمناولة الأولى لأبناء الطائفة الذين بلغوا عمراً يستطيعون فيه التمييز بين الخير والشر. يتم الاحتفال من خلال طقس قدّاس إلهي هو الآتي:

قدّاس التناول الأول

القراءة الأولى:

«أخرج خبزاً وخمراً» ـ قراءة من سفر التكوين[1].

في تلك الأيام: أخرج ملكيصادق، ملك شليم، خبزاً، وخمراً «لأنه كان كاهناً للّه العليّ» وبارك أبرام، وقال: «مبارك أبرام من اللّه العليّ، مالك السماوات والأرض، وتبارك اللّه العلي، الذي دفع أعداءك إلى يديك». وأعطاه العُشر من كل شيء.

كلام الرب

وكالعادة فإن قراءة في الرسالة الأولى للقداس تقتبس من العهد القديم، ويتم ربطها بموضوع مشابه في قراءة الرسالة الثانية من العهد الجديد فإن الأمر يسري كذلك على قراءة الرسالة الثانية:

قراءة من رسالة القديس بولس الرسول الأولى إلى أهل قورنتس[2].

---

(١) سفر التكوين ١٤: ١٨ ـ ٢٠.

(٢) رسالة القديس بولس الرسول الأولى إلى أهل قورنتس ١٠: ١٦ ـ ١٧.

أيها الأخوة:

أليست كأس البركة التي نبارك، مشاركة في دم المسيح؟ أليس الخبزُ الذي نكسره، مشاركة في جسد المسيح؟ فلما كان هناك خبز واحد، فنحن على كثرتنا جسد واحد، لأننا نشترك كلنا في هذا الخبز الواحد.

كلام الرب

• هــلــلــويــا، هــلــلــويــا، هــلــلــويــا •

يقول الرب: أنا الخبز الحي، الذي نزل من السماء، من يأكل من هذا الخبز، يحيا للأبد.

• هــلــلــويــا

أما في الإنجيل المقدس فيتم أيضاً التأكيد على موضوعة خبز الحياة، وتمثّل جسد المسيح فيه «الخبز الذي أعطيه أنا، هو جسدي ليحيا العالم»:

فصل من بشارة القديس يوحنا الإنجيلي البشير[1].

في ذلك الزمن: قال يسوع لجموع اليهود:

- «أنا الخبز الحي الذي نزل من السماء. من يأكل من هذا الخبز، يحيا للأبد، والخبز الذي أعطيه أنا، هو جسدي أبذله ليحيا العالم».

فخاصم اليهود بعضهم بعضاً، وقالوا:

- «كيف يستطيع هذا أن يعطينا جسده لنأكله؟».

فقال لهم يسوع:

- «الحق أقول لكم: إذا لم تأكلوا جسد الإنسان وتشربوا دمه، فلن تكون فيكم الحياة. من أكل جسدي، وشرب دمي، فله الحياة الأبدية، وأنا أقيمه في اليوم الأخير. لأن جسدي طعام حق، ودمي شراب حق. من أكل جسدي، وشرب دمي، ثبت فيّ، وثبتُّ فيه. وكما أن الآب الحي أرسلني، وأني أحيا بالآب، فكذلك الذي يأكلني سيحيا بي. هوذا الخبز الذي نزل من السماء، غير الذي أكله

(١) بشارة القديس يوحنا الإنجيلي البشير ٦: ٥١ - ٥٩.

آباؤكم ثم ماتوا. من يأكل هذا الخبز يحيا للأبد».

كلام الرب

ثم ينشد الكاهن:

هلمّ أيها الروح القدس،

وأرسل من السماء شُعاع نورك.

هلمّ يا أبا المساكين،/ هلمّ يا مانح المواهب،

هلمّ يا ضياء القلوب/ يا معزياً جليلاً،

يا ضيف النفس العذب،/ يا هناءً حلواً،

يا رفيق الدرب،/ أنت في الكّد راحة،

وفي الحر برودة،/ وفي البكاء عزاء... إلخ.

ويقوم الشعب بترديد اللازمة التالية:

ش - أرسل روحك أيها المسيح فيتجدد وجه الأرض.

ك - (١) إن الروح يُصلي فيكم بأنّات لا توصف.

ك - (٢) روح الرب يرفرف على المياه.

ك - (٣) إن الروح يشهد مع أرواحنا بأننا أبناء اللّه

جسد المسيح ودمه، عربون الحياة.

تخاطب الكنيسة أبناءها المدفونين، وتثبّت قلوب المؤمنين مؤكدة لهم بأنّ جسد المسيح ودمه هما عربون الحياة: «لا تحزنوا أيّها الموتى الذين عبرتم هذا العالم. لن يترككم المسيح في التراب، فهو باعثكم إذ معكم عربون الحياة جسده ودمه الحيّ اللذان أخذتموهما. ومَن يتقبّل هذا السر الإلهي يهيىء لنفسه زاد المَعاد: «لقد أخذتك لي، يا بن اللّه، زاداً للطريق أتناولك حين أجوع يا مقيت البرايا». والرائحة الزكية التي تفوح من جسد المسيح ودمه تُبعد لهيب النار، كما يضيف الراقد في صلاته «وعندما يفوح من أعضائي رائحة جسدك ودمك تبتعد عني النار.. فأراك هناك يوم القيامة.

وهل ينسى المسيحي سرّ المعمودية

ويكون لسرّ المعمودية رمز، بل أكثر من رمز تأريخي، ولاهوتي: ويكون الرمز التأريخي له علامة بالمعمودية التي جاء بها يوحنا المعمدان، مبشّراً بالمسيح، وقام بتعميد من يدخل الدين الجديد، ومنهم المسيح ذاته بعد أن طلب ذلك من ابن خالته بنفسه. أما الرمز الثاني فهو عيد الغطاس «أو الدنح كما يرد في الثقافات المشرقية»، وتكون مراسيم طقس قداس الغطاس كالآتي:

وتبدأ غالباً: يدعو الكاهن قائلاً:

الكاهن ـ أيها الإله الذي في مثل هذا اليوم، أظهرت ابنك الوحيد لأمم الوثنية بالنجم الهادي * أنعم علينا، وقد عرفناك في الأرض بالإيمان * بأن نُعاين جلالك البهي في السماء. بربنا يسوع المسيح ابنك * الإله الحي الملك معك ومع الروح القدس * إلى دهر الدهور.

وتكون القراءة الأولى في الرسائل غالباً من أشعيا[1] فيقرأ الشماس: «قومي استنيري، يا أورشليم، فإن نورك قد وافى، ومجد الرب أشرق علينا. ها إن الظُلمة تغشى الأرض، والديجور يشمل الشعوب؛ ولكن عليك يُشرق الرّب، ويتراءى عليك مجده. فتسير الأمم في نورك، والملوك في ضياء إشراقك. ارفعي طرفك إلى ما حولك، وانظري: كلهم قد اجتمعوا، وأتوا إليك، بنوك من بعيد يأتون، وتحملين بناتك في حضنك. حينئذٍ تنظرين وتتهللين، ويخفق قلبك ويرحب، إذ تنقلب إليك ثروة البحر، ويأتيك غنى الأمم، كثرة الإبل تغشاك، بكران مدين وعيفة؛ كلهم من شبأ يأتون، حاملين ذهباً ولباناً، يبشّرون بتسابيح الرّب».

وتتلو القراءة الأولى مدائح من المزامير، منها على سبيل المثال ما جاء في المزمور ٧١:

الردة: لك يا رب، تسجد أمم الأرض.

الكاهن: اللّهم، هب حُكمك للمليك، هب عدلك لابن الملوك، فيقضي بالعدالة لشعبك، وبالإنصاف لبائسيك. «الردة».

الكاهن: ملوك ترشيش والجزر يحملون إليه الهدايا، ملوك شبأ، وسبأ يقدمون له العطايا، وكل الملوك له يسجدون، وإياه كل الشعوب يخدمون. «الردة».

الكاهن: يزهر العدل في أيامه، ويستتب السلام، إلى أن يضمحل القمر، ويملك من البحر إلى البحر، ومن النهر إلى أقاصي المعمور. «الردة».

---

(١) أشعيا ٦٠: ١ ـ ٦٠.

الكاهن: إنه ينقذ المسكين المستجير، والبائس الذي ليس له من نصير يُشفق على الكسير والفقير ويخلّص نفوس المساكين «الردة».

وتبدأ القراءة في الرسالة الثانية من رسالة القديس بولس إلى أهل أفسس مثلاً[1].

الشماس: أيها الأخوة: سمعتم بالنعمة، التي أنعم اللّه بها عليّ من أجلكم، لتحقيق تدبيره، وكيف عليه بنو البشر، في القرون الماضية، وكشف الآن في الروح، لرسله وأنبيائه الأطهار بوحي. وهو أن الوثنيين هم، في المسيح يسوع، شركاء اليهود في ميراثه، وجسده ووعده؛ ويعود ذلك إلى البشارة.

ويقف الجمع المصلي في الكنيسة عند موعد قراءة فصل من الإنجيل المقدس، منشدين:

الشعب: هللويا، هللويا رأينا نجمه في المشرق فجئنا لنسجد للرب.

وغالباً ما يكون فصل من بشارة القديس متى الإنجيلي البشير[2].

الشعب: المجد لك، يا رب.

الكاهن: ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية، في أيام الملك هيرودس، إذا مجوس قدموا أورشليم من المشرق وقالوا: «أين ملك اليهود الذي ولد؟ فقد رأينا نجمه في المشرق، فجئنا لنسجد له». فلمّا بلغ الخبر الملك هيرودس، اضطرب واضطربت معه أورشليم كلها. فجمع الأحبار وكتبة الشعب كلهم، واستخبرهم أين يولد المسيح. فقالوا له: «في بيت لحم اليهودية»، فقد أُوحي إلى النبي فكتب: «وأنتِ يا بيت لحم، أرض يهوذا، لست أصغر ولايات يهوذا؛ فمنك يخرج الوالي الذي يرعى شعبي إسرائيل». فدعا هيرودس المجوس سراً، وتحقق منهم في أي وقت ظهر النجم. ثم أرسلهم إلى بيت لحم، وقال: «اذهبوا فابحثوا عن الطفل بحثاً دقيقاً؛ فإذا وجدتموه، فأخبروني لأذهب أنا أيضاً وأسجد له». فلما سمعوا كلام الملك ذهبوا. وإذا النجم الذي رأوه في المشرق يتقدّمهم، حتى بلغ المكان الذي فيه الطفل، فوقف. فلما أبصروا النجم، فرحوا فرحاً عظيماً جداً. ودخلوا البيت، فرأوا الطفل مع أمه مريم. فجثوا له ساجدين؛ ثم فتحوا حقائبهم، وأهدوا إليه ذهباً، وبخوراً، ومُراً. ثم أُوحي إليهم في الحُلم ألا يرجعوا إلى هيرودس، فانصرفوا في طريق آخر إلى بلادهم.

---

(١) بولس ٣: ٢ ـ ٣أ، ٥ ـ ٦.

(٢) متى ١٢ ـ ١: ٢.

الشعب: التسبيح لك أيها المسيح.

وتستمر طقوس القداس في سياقها المعتاد. على أن هذا القداس يختلف من طائفة إلى أخرى، وكذلك الحال في طقس قدّاس عيد البشارة الذي يصادف في يوم ٣/٢٥ من كل عام.

أما طقس تعميد الأطفال فيكون مناسبة منفصلة كلياً عن طقوس القداديس، وتجري على انفراد لتشمل كاهن الرعية، وشماس واحد أو أكثر مع لفيف من أفراد عائلة الطفل، وعلى رأسهم الأب، والأم. وبالتأكيد القريب «الإشبين أو العراب» للابن، والقريبة للابنة. أو كلا الزوجين اللذين كانا إشبيني الأب والأم في طقس زفافهما. ويتعرف الكاهن مسبقاً على والدي الطفل، والإشبين، ويتداول معهم في سياق المعمودية، والأهمية اللاهوتية لهذا الطقس بالنسبة للمسيحيين، وما يرد في هذا الطقس من رموز تلميحية بالإشارات، وصلوات مكرّسة لهذه المناسبة، وعناصر مادية، وحسية مكملة.

يتوزع الطقس بين قراءات، وتكاريس، وأناشيد مخصصة للمناسبة عبر ممارسة أفعال رسم الطفل على اسم أحد الشفعاء، إضافة لاسمه الشخصي، وربما يكون للإشبين دوره الخاص هنا فهو الذي يحمله، ويتعهده أمام الرب، ويتعهد التعاون مع والديه لرعايته وصيانته من الأخطاء. وأهم فعل هو تغطيس الطفل كله أو رأسه في الماء أو صب الماء على رأسه، والأجزاء البارزة من جسمه كأطرافه مثلاً. وذلك استعداداً لدهن جسمه بالزيت المقدس «الميرون». وتتلى أدعية خاصة من قبل الكاهن، والشماس ويرددها الرعية وبخاصة الوالدين والإشبين بالنيابة عن الطفل، وعند الانتهاء من هذا الرسم، تبدل ملابسه القديمة، ويصار للبس حلة بيضاء باهية ناصعة البياض. حين ذاك يدعو الكاهن لإشعال الشموع، والطواف بالطفل المعمد حول المذبح. وتعطى كلمة الكاهن الأخيرة للجميع: أن اذهبوا بسلام. حين ذاك يبدأ الفاصل الاجتماعي أولاً بالتقبيل لكل من الطفل، والحصول على البركة الطاهرة منه، وتهنئة الأبوين، والإشبين معاً.

ويكون لخدمة المعمودية سياق طقوسها الرسمية كما يأتي في نموذجين هما البيزنطي، والماروني حيث:

• يلبس الكاهن البطرشيل والفلونيون من اللون الأبيض، ثم يأتي إلى جرن المعمودية ويبخّر حوله، ويحمل الحاضرون شموعاً موقدة وتبدأ:

الشماس: بارك يا سيد.

الكاهن: مباركة مملكة الآب والابن والروح القدس، الآن وكل أوان، وإلى دهر الداهرين.

الجوق: آمين.

أما في الطقس البيزنطي فتضاء الشموع، وتهيأ المبخرة والبخور، ويقف الكاهن والخادم في الجوق، وطالب العماد، وعراباه وسائر المؤمنين في صحن الكنيسة.

الكاهن: المجد للآب والروح القدس في ابتدائنا وانتهائنا، ولتفض مراحمه ومننه علينا نحن الحقيرين الخطأة، الآن وكل أوان إلى الأبد.

الشعب: آمين.

الكاهن: أهّلنا أيها الرب لأن نُتمّ الآن بواسطتنا نحن الخطأة، خدمة العماد المقدّس الروحانية التي سلّمها إلى الرسل القديسين وهي أن يعمّدوا العالم بالنار والروح، تجاه هذه النفس المعدّة للمعمودية المقدسة، حتى إذا تزيّنت بمواهب الروح القدس الذي تمنحها إياه، تصعد لك المجد والشكر ولأبيك المبارك ولروحك الحي القدوس، الآن وكل آن إلى الأبد.

الشعب: آمين.

الجوق: «المزمور الخمسين» ارحمني يا الله بحسب رحمتك به وبحسب كثرة رأفتك امحُ معاصيّ. زدني غسلاً من اثمي وطهّرني من خطيئتي. فإن معاصيّ وخطيئتي أمامي في كل حين... إلخ.

الكاهن: يضع بخوراً ويقول: لنؤهلّن لأداء المجد والشكر والسجود والتبجيل والمدح والتعظيم والإكرام الواجب السامي لذلك المقدّس القدسيات المقدسة والمشرّف الخدمة السرية، لذلك رئس الكهنة الذي بدأ فعلّمنا التنقية بنفسه على مياه الأردن. ونهج سبل الحياة أمامنا، لأجل تنقيتنا من خطايانا.

وفي الطقس البيزنطي يتلو الشمّاس الطلبات التالية، وإذا اقتضت الحال يصوغها بصيغة الجمع أو المؤنث وعلى كل طلبة منها يجيب الجوق:

- يا رب ارحم.

الشماس: بسلام إلى الرب نطلب لأجل السلام العلوي وخلاص نفوسنا، إلى الرب نطلب. لأجل سلام العالم أجمع، ... (...) لأجل أن يقدّس هذا الماء بقدرة الروح القُدس وفعله وحلوله، إلى الرب نطلب ... (...) لأجل أن يحلّ في هذه المياه فعل

الثالوث الفائق الجوهر المنقى إلى الرب نطلب ... (...) لأجل أن يؤهّل المعتمد فيه للملك الخالد؛ إلى الرب نطلب. لأجل المتقدّم الآن إلى الاستنارة المقدّسة، ولأجل خلاصه، إلى الرب نطلب ... (...) لأجل أن تُحفظ له حلّة المعمودية وعربون الروح بلا دنس ولا عيب في يسوع المسيح إلهنا الرهيب، إلى الرب نطلب. لأجل أن يصير له هذا الماء حميم الولادة الجديدة لغفران وسربال عدم الفساد إلى الرب نطلب ... (...).

الجوق: لك يا رب.

ثم يقول الكاهن هذه الصلاة بصوت جهير:

الكاهن: عظيم أنت يا رب، وعجيبة أعمالك، وما من قول يكفي للإشادة بعجائبك «ثلاثاً» فإنك أنت الإله الأزلي غير المحصور والفائق كل وصف، أتيت على الأرض آخذاً صورة عبد، وصائراً شبه البشر. لأنك بحنانك أيها السيد، لم تحتمل أن ترى جنس البشر استبداد الشيطان، بل أتيت وخلصتنا. فنعترف ونذيع الرحمة ولا نكتم الإحسان. مواليد طبيعتنا حررت، والمستودع البتولي بمولدك؛ وقد سبّحتك الخليقة كلها عند ظهورك. لأنك يا إلهنا، على الأرض ظهرت وبين الناس ترددت. أنت قدّست مجاري الأردن أيضاً، إذ أرسلت من السماء روحك القدوس وسحقت التنانين الكامنة فيها. فأنت إذن، أيها الملك المحب البشر، احضر الآن أيضاً بحلول روح القدس + وقدّس هذا الماء «ثلاثاً»؛ اعطه نعمة الفدا، بركة الأردن. اجعله ينبوعاً لعدم الفساد، موهبة للتقديس، للخطايا غافراً، ومن الأرض واقياً، وللشياطين مبيداً، منيعاً على القوات المعادية، مملوءاً قوة ملائكية. ليهرب منه المتآمرون على جبلتك، لأني دعوت اسمك العجيب، يا رب الاسم المجيد الذي يرعب الأعداء.

ويرتل الجميع في الطقس الماروني بالسريانية «قدوس أن يا إلهنا... إلخ». ثم يتلو الكاهن صلاة العطر، ويرتل الجميع بعدها مزموراً وتقرأ الرسائل إحداهما من رسالة القديس بولس[1]. أما الإنجيل فيكون غالباً بالقول: «وكان هناك رجل من الفريسيين اسمه نيقوديموس، رئيس اليهود. فهذا جاء إلى يسوع ليلاً وقال له: يا معلّم، نحن نعلم أنك أُرسلت من لدن الله معلماً، لأنه لا يقدر أحد أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعملها، إلاّ من كان مع الله... إلخ». يوليها

(١) رسالة القديس بولس ٣: ٤ ـ ٧.

تلاوات من صلوات الواعظين (...) أيها المسيح إلهنا، يا من بعماده المقدس قدّس مياه الأردن وكل الينابيع... إلخ «ثم» يأتي الكاهن إلى باب الدرابزين ويقف تجاهه، أمام الباب، العرّاب والعرّابة، حاملاً أحدهما الطفل، وليكونوا بنظام الكنيسة، بينما يرتّل الخادم بالسريانية (...). ويصلي الكاهن على الطفل (...) حينئذٍ يلتفت إليه إذ يحمله عرّابه ووجهه إلى الشرق، ويرسم صليباً على وجهه في كل الأدعية. وفي الطقس البيزنطي: يرسم الكاهن على الماء شكل الصليب + ثلاثاً، نافخاً عليه قائلاً:

- لتنسحق تحت رسم علامة الصليب + جميع القوات المعادية «ثلاثاً». اظهر يا ربّ على هذا الماء، وامنح المعتمد فيه أن يتبدّل فيخلع الإنسان العتيق الذي أفسدته شهوات الغرور، ويلبس الإنسان الجديد الذي جددته على مثالك أنت خالقه، حتى يُغرس معك في شبه موتك بالمعمودية، فيصبح شريك قيامتك أيضاً. وبعد أن يحفظ موهبة روحك القدوس ويُنمّي النعمة يأخذ جائزة الدعوة العلوية ويُحصى مع الأبكار المكتوبين في السماء، بك يا إلهنا وربّنا يسوع المسيح. لأنه لك ينبغي المجد والعزة والإكرام والسجود، ولأبيك الأزلي وروحك القدوس الصالح والمحيي الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين.

الجوق: آمين.

الكاهن: السلام لجميعكم.

الجوق: ولروحك.

الشماس: احنوا رؤوسكم للرب.

الجوق: لك يا رب.

وعودة للطقس الماروني فإن الكاهن يرد وجه الطفل إلى الغرب ليكفر بالشيطان إذ يقول والعرّابان يراجعان بعده: أكفر بالشيطان... إلخ. ثم يرد وجه الطفل لجهة الشرق، ليؤمن بالله إذ يقول والعرّابان يراجعان من بعده: أؤمن بك يا الله... إلخ.

ويقدّم الشماس في الطقس البيزنطي وعاء الزيت فينفخ الكاهن فيه ثلاث مرات ويباركه. فيقول الشماس:

الشماس: إلى الرب نطلب.

الجوق: يا رب ارحم.

ويقول الكاهن على وعاء الزيت الصلاة التالية:

الكاهن: أيها السيد الرب إله آبائنا، يا من أرسل إلى الذين في سفينة نوح حمامة حاملة في فيها ورقة زيتون، رمز المصالحة والنجاة من الطوفان، رامزاً بذلك إلى سرّ النعمة؛ يا من رزقنا ثمر الزيتون لتكملة أسراره المقدّسة؛ وبه ملأ الذين في الناموس من الروح القدس، وأكمل الذين في النعمة؛ أنت بارك + هذا الزيت أيضاً بقوة روحك القدوس وفعله وحلوله، ليصبح للممسوحين به أو المتناولين منه إيمان مسحة لعدم الفساد، سلاحاً للبر، تجديداً للنفس والجسد، حرزاً من كل قوة شيطانية، صيانة من كل الشرور. لمجدك ومجد ابنك الوحيد وروحك القدوس الصالح والمحيي، الآن وكل أوان، وإلى دهر الداهرين.

الجوق: آمين.

الشماس: فلنصغ «بروسخومن».

ويسكب الكاهن الزيت فوق الماء على شكل صليب، وهو ينشد مع الشعب:

ـ هللويا، هللويا، هللويا.

ثم يعلن الكاهن:

الكاهن: تبارك الله الذي ينير ويقدس كل إنسان آتٍ إلى العالم، كل حين الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين.

الجوق: آمين.

ويؤتى بالمزمع أن يتعمّد، معرّى من ثيابه، فيأخذ الكاهن من الزيت بطرف إبهامه ويرسم شكل الصليب على جبهة المعتمد قائلاً:

الكاهن: يُمسح عبد الله «فلان ـ فلانة» بزيت الابتهاج، باسم الآب والابن والروح القدس.

الجوق: آمين.

وعلى صدر المعتمد وبطنه قائلاً: لشفاء النفس والجسد.

وعلى أذنيه قائلاً: لسماع الإيمان.

وعلى رجليه قائلاً: ليسلك سبلك يا رب.

وعلى يديه قائلاً: يداك صنعتاني وجبلتاني، فهمني فأتعلّم وصاياك.

ثم يمسك الكاهن المعتمد موجهاً إياه نحو الشرق ويعمّده قائلاً:

الكاهن: يُعمّد عبد الله «فلان ـ فلانة» باسم الآب والابن والروح القدس. آمين.

وعلى كل اسم من الأقانيم الإلهية الثلاثة يغطّسه في الماء، إذا كان طفلاً، وينتشله. وبعد المرّة الثالثة يناوله إلى عرّابه دون سواه. بعد ذلك يلقي الكاهن على جسم المعتمد العاري ثوبه الجديد، أو قميصه الداخلي الجديد قائلاً:

الكاهن: يُلبس عبد الله «فلان ـ فلانة» ثوب البر + باسم الآب والابن والروح القدس.

الجوق: آمين.

ويُنشد الكاهن والجوق بالتناوب هذا النشيد، على اللحن السابع:

ـ امنحني ثوباً منيراً، يا لابس النور مثل الثوب، أيها المسيح الجزيل الرحمة إلهنا.

وفي الطقس الماروني يبارك الكاهن الماء بالنافور التالي. أما إذا كان لديه ماء مبارك فيسكب منه في حوض المعمودية ويكمل الرتبة: أي يمسح بالزيت ويعمّد إلخ. فيذهب إلى حوض العماد بنظام وترتيب: العرّابان، حاملاً أحدهما الطفل، والوالدان وسائر المؤمنين وبعدهم الخادم ثم الكاهن. وينفخ الكاهن في الماء شكل صليب، ويدعو الروح سراً، ثم يركع ويدعو الروح بصوت هادىء ومتخشع...إلخ. ويقوم بعدها الكاهن بمزج الميرون المقدس في المياه ويصب منه شكل صليب.

وبعد أن يتلو الكاهن الصلاة التالية في الطقس البيزنطي واضعاً يده على رأس المعتمد. وإذا كان المعتمدون كثيرين يبسط يده فوق رؤوسهم.

الشماس: إلى الرب نطلب.

الجوق: يا أرحم.

الكاهن: مبارك أنت أيها الرب القدير، ينبوع الخيرات وشمس العدل؛ يا من أظهر للذين في الظلمة نور الخلاص بظهور ابنه الوحيد إلهنا، ومنحنا نحن غير المستحقين التنقية السعيدة بالماء المقدس، والتقديس الإلهي بالمسحة المحيية؛ يا من سُرّ الآن أيضاً بأن يجدد ميلاد عبده المستنير حديثاً بالماء والروح، ومنحه غفران الخطايا الاختيارية وغير الاختيارية؛ أنت أيها السيد ملك الكُل الجزيل التحنن، هب له أيضاً ختم موهبة روحك القدوس القدير والمسجود له، وتناول جسد مسيحك المقدس ودمه الكريم. احفظه في قداستك، ثبته في الإيمان القويم، ونجّه من الشرير ومن جميع أخلاقه، احرس نفسه بمخافتك الخلاصية في الطهارة والبر،

حتى يرضيك في كل عمل وقول، فيصير ابناً ووارثاً لملكوتك السماوي.

لأنك أنت يا إلهنا إله الرحمة والخلاص، وإليك نرفع المجد، أيها الآب والابن والروح القدس، والآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين.

الجوق: آمين.

بعد هذه الصلاة يمسح الكاهن المعتمد بالميرون المقدّس، بشكل صليب، على جبهته، وعينيه، ومنخريه، وفمه، وأذنيه، وصدره، ويديه، ورجله قائلاً على كل مسحة:

+ ختم موهبة الروح القدس. آمين.

ثم يمسح الكاهن آثار الميرون بقطنة، أو بطرف منديل. ويلبس المعتمد ثيابه كاملة. بعد ذلك يدور الكاهن حول المعمودية ومعه العراب حاملاً الطفل، والحاضرون في أيديهم شموع موقدة. ثم يتوجهون نحو الهيكل، وهم ينشدون النشيد التالي، كما ينشد قبل تلاوة الرسائل في الليتورجية الإلهية:

- أنتم الذين بالمسيح اعتمدتم، المسيح قد لبستم. هللويا.

وفي نهاية الدورة يعلن الشماس:

الشماس: فلنصغ «بروسخومن».

القارىء: يتلو البوكيمنون.

- الرب نوري وخلاصي فممن أخاف؟

ستيخون: الرب صائن حياتي، فممن أفزع.

الشماس: الحكمة «صوفيا».

القارىء: فصل من رسالة القديس بولس الرسول إلى أهل روما.

الشماس: فلنصغ «بروسخومن».

القارىء: يا إخوة، إنّا جميع من اعتمدنا للمسيح قد اعتمدنا لموته. فدفنّا معه المعمودية للموت. حتى إننا كما أقيم المسيح من بين الأموات بمجد الآب، كذلك نسلك نحن أيضاً في جدة الحياة. لأنا إذا صرنا متحدين معه بشبه موته، نصير «متحدين معه» بشبه قيامته أيضاً. عالمين هذا أن إنساننا العتيق قد صُلب معه، لكي يُبطل جسد الخطيئة، حتى لا نُستعبد بعد الخطيئة. لأن الذي مات قد تبرأ من الخطيئة.

فإن كنا قد مُتنا مع المسيح، نؤمن أنا سنحيا أيضاً معه، عالمين أن المسيح، بعدما أقيم من بين الأموات، لا يموت أيضاً، لا يسود عليه الموت من بعد. لأنه من حيث إنه فقد مات للخطيئة مرة؛ وأما من حيث إنه يحيا فيحيا للّه. فكذلك أنتم أيضاً أحسبوا أنفسكم أمواتاً للخطيئة، أحياء للّه في المسيح يسوع ربنا.

الكاهن: + السرلام لك، أيها القارىء.

الجوق: هللويا «ثلاثاً».

ويعيدها بعد كل من الآيتين التاليتين:

ـ فاض قلبي بنشيد رائع. أقول إن نشيدي هو للملك. أنت الأبهى بين بني البشر. أُفيض اللطف على شفتيك، لذلك باركك اللّه إلى الأبد.

الشماس: الحكمة. لنقف «صوفيا. أورثي» ونسمع الإنجيل المقدّس.

الكاهن: + السلام لجميعكم.

الجوق: ولروحك.

الكاهن: فصل شريف من بشارة القديس متى البشير.

المجد لك يا رب، المجد لك.

الشماس: فلنصغ «بروسخومن».

الكاهن: في ذلك الزمان، ذهب التلاميذ الأحد عشر إلى الجليل. إلى الجبل حيث أمرهم يسوع، فلما رأوه سجدوا له، لكن بعضهم شكوا. فدنا يسوع وكلّمهم قائلاً: قد أُعطيت كل سلطان في السماء وعلى الأرض. فاذهبوا وتلمذوا كل الأمم، معمدين إياهم باسم الآب والابن والروح القدس. وعلّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به. وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر. آمين.

الجوق: المجد لك يا رب، المجد لك.

بعد الإنجيل، جرت العادة بأن تقال، بدل الأكتاني الذي كان يقال قديماً، صلاة تغسيل المعتمد كما يلي:

الشماس: إلى الرب نطلب.

الجوق: يا رب ارحم.

الكاهن: إن الذي قد لبسك، أيها المسيح ربنا وإلهنا، قد حنى لك رأسه معنا. فصنه ليلبث مجاهداً لا يغلب بإزاء المعادين لنا وله بلا سبب. وأظهرنا جميعاً ظافرين حتى النهاية، مكللين بإكليلك الذي لا يذوي. لأن لك الرحمة والخلاص، وإليك نرفع المجد وإلى أبيك الأزلي وروحك القدس الصالح والمحيي، الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين.

الجوق: آمين.

حينئذٍ يأخذ الكاهن المنشفة، ويبللها بماء نقيّ، ويمسح بها وجه الطفل قائلاً:

الكاهن: يا «فلان» قد اعتمدت، قد استنرت، قد تميرنت، قد تقدست، قد اغتسلت، باسم الآب والابن والروح القدس.

الجوق: آمين.

ثم يختم الكاهن الصلاة بالحل الصغير، وهكذا:

الكاهن: المجد لك أيها المسيح الإله رجاؤنا المجد لك. ليرحمنا إلهنا الحقيقي الذي قبل أن يعتمد من يوحنا في الأردن لأجل خلاصنا ويخلّصنا، بشفاعة أمه الكاملة الطهارة والقديسين المجيدين الرسل الجديرين بكل مديح، والقديس «فلان» شفيع المعتمد الجديد وجميع القديسين، بما أنه صالح ومحب للبشر. بصلوات آبائنا القديسين، أيها الرب يسوع المسيح إلهنا، ارحمنا.

الجوق: آمين.

وفي الطقس الماروني شرح لفعل رتبة التثبيت حيث يصطف أمام الدرابزين طالبو التثبيت، الصبيان ثم البنات، مع عرّابيهم، ويقف الكاهن، ويمدّ يمينه مصلياً عليهم (...) ويغمس إبهام يمينه بالميرون ويسمُ به المعمد في جبهته شكل صليب ثلاث مرات قائلاً: بميرون المسيح... إلخ (...) وينشف الكاهن الميرون بالقطن عن جبهة المثبت. ومتى ما تثبت الجميع يقول الكاهن عليهم: ها قد لبستم الآب الحي. وأخذتم الابن المسيح، واتشحتم بالروح القدس، وقبلتم حلة المجد التي خلعها آدم. ثم يقف الكاهن ويسم المثبتين بالصليب قائلاً: ثبّت يا رب، عبيدك... إلخ. وهنا يصير زياح المعمّد في الكنيسة مع البخور والشموع المضاءة ويرتلون بالسريانية (...) وفي نهاية الزياح يقف الكاهن على باب الدرابزين فينزع عن الطفل الوشاح الأبيض ويقول صلاة الختام:

ـ أيها الرب الإله، العظيم والمخوف، يا من تهب مغفرة الخطايا للمولدين بالماء والروح المعمودية. يا من تمنح البالين بالخطيئة ميلاداً ثانياً، وتقيم الساقطين وتحفظ المتقدمين. أنر قلب عبدك هذا الذي تعمّد. وكما أهّلته ليكون ابن نعمتك، احفظه بعذوبة تحننك في ذخيرة البنين الثابتة... إلخ.

ولأهمية سرّ المعمودية فإنها ترد أيضاً في صلوات الموتى بمثابة جسر يمر فوق اللهيب ويوصل الميت إلى مقر القديسين. ويناجي الدفين يسوع المخلّص بقوله: «حنانيك أيها الرحوم... لتنطفىء النار من أعضائي... ولتكن لي المعمودية التي ولدتني روحياً جسراً أمامي يقودني إلى مقرّ الحياة[1]. إنها سلاح ودرع واقٍ [2]. وهي سفينة لا تغرق، وفُلك توصل المسيحي إلى الشاطىء الأمين. وتخاطب الكنيسة موتاها الراقدين مشجعة: «إن كان الديّان يدين بالنار، كما يقول إشعيا، فلكم بالمعمودية فلك لا تغرق. والمعمودية اشتراك بموت المسيح وقيامته، كما يعلّم بولس الرسول: «أيها الراقدون بالمسيح، لا بأس عليكم؛ ها قد اقترب يوم القيامة والمكافأة. إنكم اعتمدتم بموت المسيح الذي حرركم بآلامه وخلّصكم بدمه، فهو يبعثكم بالمجد بلا فساد، ولن يتسلّط عليكم الموت[3]. ومما يبعث الرجاء في قلب المسيحي بملاقاة المسيح بعد الموت هو الثقة بأنه يحمل معه عربون الحياة أي جسد المسيح المحيي ودمه الغافر[4].

الجمعة العظيمة ـ حيث أطبقت السماء على الأرض

وفي يوم الجمعة العظيمة، من آلام المسيح، وبعد إكمال مراسيم درب الصليب، ذي الأربع عشرة مرحلة. وكما جرى ذلك في الجمع الست الماضية من الصوم الكبير. تبدأ احتفالات جمعة الآلام الكبيرة بالمراثي. حيث تقرأ مراثي من مزامير «إرميا» النبي مثلاً. ويسبقه تقديم على النحو التالي[5]:

ك ـ «اذكر مراحمك يا رب، وتنازل فاحرسنا، وقدسنا دائماً، نحن عبيدك الذين أنشأ المسيح من أجلنا سر الفصح المقدس، بسفك دمه المزكى، هو الحي المالك إلى دهر الدهور».

---

(١) المخطوط ٣٨/٧، ص ١٨.

(٢) المخطوط ٣٨/٧، ص ٥٦.

(٣) المخطوط ٢٤/٧، ص ٣٣٦.

(٤) المخطوط ٢٤/٧.

(٥) مزامير إرميا النبي ٢: ٨ ـ ١٢.

ش ـ آمين.

وفي القراءة الأولى أن تتصدّر العبارة التالية:

«جرح لأجل معاصينا، وسحق لأجل آثامنا».

ويقرأ فصل من سفر إشعيا النبي[1] ومما يأتي فيها:

ـ هوذا عبدي يعمل بالحزم، يتعالى ويرتفع ويتسامى جداً، كما أن كثيرين دهشوا منك، هكذا يتشوّه منظره أكثر من الإنسان، وصورته أكثر من بني البشر. هو ينضح أمماً كثيرة، وأمامه يسدّ الملوك أفواههم، لأنهم رأوا ما لم يُخبروا به، وعاينوا ما لم يسمعوا به مَن آمن بما سمع منّا ولمن أعلنت ذراع الرب؟

١ ـ ويقرأ إنجيل الآلام وهو ربما أطول إنجيل لأنه يستعرض سيرة آلام المسيح منذ القبض عليه. وحتى صلبه، وموته. مروراً بالتحقيق معه من قبل «حاننيا»، و«قايافا» المحققان اليهوديان[2]... إلى مقابلته لـ «بيلاطس البنطي» وإلى قيصر الروماني على القدس القديمة «أورشليم». ثم ترحيله إلى الوالي «هيرودس»، على إقليم «هيروديا» التي ينتسب إليها «يسوع»، «ولادة، وعرفاً» لأنه من مواليد «بيت لحم»، من أعمال مدينة الناصرة، لذلك كني بـ «يسوع الناصري»[3]. وعودته منها ليمثل أمام «بيلاطس البنطي» من جديد. يُشرح بعدها فصل تسليم «يسوع» للشعب «اليهودي» لكي يصلب. بعد أن يكون «بيلاطس» قد برأ نفسه من دم المسيح، من خلال تلك الواقعة الشهيرة، عندما قام بغسل يديه أمام الناس، لأنه لم يجد ما يستوجب صلبه قائلاً:

بيلاطس ـ إني أغسل يدي من دمك.

«بينما ردد اليهود»:

اليهود ـ دمه علينا، وعلى أولادنا.

ولأن الشعب «اليهود» طالب به بدلاً عن «برأبا»[4]. وتعهدوا بأن يكون دمه عليهم، وعلى أولادهم. فقد تمّ ما كان.

---

(١) سفر إشعيا ٥٢، ١٣ ـ ٥٣، ١٢.

(٢) حنان، أو حاننيا.

(٣) يلقب المسيح عيسى ابن مريم يسوع الناصري نسبة لمدينة الناصرة مسقط رأسه.

(٤) كان برأبا هو الآخر يبشّر بكونه المسيح المنتظر، وله إنجيل هو الآخر، يدعى بإنجيل برابا.

٢ - وعندما ينهي «بيلاطس» التحقيق مع المسيح، يأمر بجلده عسى أن يكتفي الشعب بذلك. فينزع الجلادون ملابسه عنه. ويُقلد بتاج من الشوك فوق رأسه. ويُلبس رداء أرجوانياً خاصاً بالملوك[1]. لكن الشعب «اليهود» يظلون مصرّين على اختياره، لكي يصلب في هذا اليوم بالذات قبل حلول «سبت النور» ليكون ضحية عيد الفصح في طقوس اليهود. ولما يحمل المسيح صليبه في طريقه إلى جبل «الجُلجُلة»، تقابله في المراحل الأربع عشرة مواقف متعددة[2].

٣ - وعندما يُرفع المسيح على الصليب وقد توسّط لصين، يتقاسم الجنود ثيابه، ويبقى الرداء الأرجواني آخر ما تبقى من ثيابه، فيقترع عليه الجنود لأنه منسوج «غير مخاط» لا يمكن تقسيمه، «وهذا رمز قادم من عمق التأريخ»، وهو: «أن من يقسم قميصه ويعطيه لغيره هو من أكبر التضحيات. ظهر ذلك واضحاً في ملحمة غلغامش عندما تقسم شمخة رداءها لتكسي بنصفه الثاني أنكيدو» أما هنا فكل جندي يريد القميص له كاملاً. فلا معنى لنصف قميص، لأنه لا يفيد أحداً، ومن جانب آخر، وربما له تعليل في التفاسير المسيحية «النصرانية» أن الثوب غير المخاط دلالة على وحدة الجسد، لا يمكن تجزأته، وإلاّ انتفت عنه الحياة، وبالتالي الحاجة منه.

وقبل أن يموت المسيح يودع أمه لدى تلميذه «يوحنا الحبيب». وعندما يتيقن بأن كل شيء قد تم، يصيح:

- أنا عطشان...

فيناوله أحد الجنود اسفنجة مبتلة بالخل مشكوكة برأس رمح. وبعدما يذوقها يموت.

٤ - ولأن اليوم التالي هو يوم سبت التهيئة عند اليهود، يطلب الشعب من «بيلاطس» إنزال المصلوبين من على صلبانهم. بعد أن تكسر سيقانهم خشية عدم اكتمال موتهم، أو تماوتهم فيهربون أو يتم تهريبهم. ولأن المسيح كان قد مات فعلاً لم يفعلوا به ما فعلوه باللصين، وللتأكد من موته طعنه أحد الجنود بالحربة في جنبه فخرج على أثرها دم، وماء، وخل[3] بينما تكسر أقدام اللصين المرافقين. لعل في ذلك أيضاً اعتباراً

(١) لأن المسيح كان قد لقب بملك الملوك. يرجع ذلك لغرابة ميلاده وسجود ملوك المجوس له، عندما كان طفلاً في المهد.

(٢) جبل الجُلجُلة، أو جبل الجمجمة الجُلجثة، بالعبرية.

(٣) القديس يوحنا الإنجيلي البشير، «بعنوان» «وقبضوا على يسوع وأوثقوه ١٨، ١ - ١٩، ٤٢.

مسيحياً تاماً لاكتمال الجسد، قام من عمق التأريخ، بأن الضحية المقدمة للرب كاملة غير منقوصة، وأن الروح التي ترتفع إليه مكتملة، ومتعافية.

٥ ـ ويطلب «يوسف الرامي» تلميذ «يسوع» من «بيلاطس» أن يأخذ جسد «يسوع» فيأذن له. ولما يتم إنزال جسد المسيح من على الصليب. ويذهب «نيقوديموس» أحد تلاميذ المسيح ليلاً، فيطيب الجسد بدهن العود، وبخور المرّ. ثم يوضع الجسد في قبر جديد لم يدفن فيه أحد من قبل في بستان قرب موضع الصلب[١]. هو قبر الحياة الأبدية «الجديدة» قبر العقيدة النصرانية، والمذهب الحديث.

وهنا ينتهي سرد قراءة الإنجيل. وتليه الخطبة التي يرتجلها الكاهن، أو يقرأها، لتناسب الحدث، والموضوع. وبعد الخطبة تتلى تسابيح مناسبة. وذلك بعد أن يرفع التابوت الذي يمثل وجود جسد المسيح، بصليب خشبي، وجسد معدني لتمثال المسيح. مغطى بمنديل أبيض، وعليه زهور الربيع. ويدور الجميع مع التابوت في دورة في باحة الكنيسة أو داخلها إذا لم تتوفر مساحة كافية. منشدين أناشيد حزينة يكون منها أناشيد «أنا الأم الحزينة» التي مطلعها:

ـ «فليكن موت ابنك حياة لطالبيها،

ـ أنا الأم الحزينة وما من يعزيها،

ـ بنت صهيون «القدس» قد بكت، فأبكت ناظريها.... إلخ»[٢].

كذلك تنشد أنشودة «واحبيبي»، التي يقول مطلعها:

ـ «واحبيبي واحبيبي، أي حال أنت فيه،

ـ من شجاك من مناك ـ ما لذا الأمر شبيه،

ـ يا حبيبي أي ذنب ـ قد صنعت أو كريه...إلخ».

وتكون هذه الأناشيد قمة العزاء، «وربما لم تتبدّل منذ نصف قرن على الأقل، لا في الكلمات، ولا في الألحان، اللّهم إلاّ في بعض الكلمات تقديماً، وتأخيراً كإطار عام. لكن المعنى، والسياق واحد لمختلف الطوائف. إلاّ في جزئيات بسيطة فقط». ويكون الدعاء

(١) لاحظ تشابه حادثة تطييب جسد المسيح، مع حادثة تطييب رأس الحسين بن علي «عليه السلام» من قبل كاهن مسيحي في الصحراء بين الكوفة ودمشق.

(٢) لاحظ التشابه مع أناشيد تعازي فاطمة.

«الشعبي» رمز كبير للأم ومعنى أوسع من لفظة الأم لإبراز معاني العطاء والتضحية والحزن. هذه من رموز صبر البشرية على ضيمها في انتظار عودة المخلّص الذي وعد بالرجوع. يعود لكي يفتدي البشرية بدمه. وها هو المسيح قد باشر أول مراحل افتدائه لنفسه في سبيل بني البشر، بموته على الصليب. ولعل تكرر تجسيد «رسم، ونحت» نموذج «الحَمَل» أسفل الصليب يعود بالأصل إلى رمز الفداء، «لذلك يدعى المسيح بالفادي أيضاً» أي التضحية الوثنية التي كانت قد استبدلت التضحية بالبشر، إلى التضحية بالحيوان بديلاً، مثل كبش إبراهيم مثلاً، لكن إعادة المثال هنا، بالتضحية بالمسيح بنفسه هو رمز للتضحية بالطبيعة البشرية من خلال المسيح ذي الطبيعتين «البشرية، والإلهية». إن هذه التضحية الراجعة للنموذج، مع فعل الإبدال المقصود، لم تكن لتقوم لولا التأكد من العودة من جديد، سواء وقتها في فعل القيام، أو القيامة الموعودة للمسيح. وفيها أيضاً تأكيد على أن الطبيعة البشرية فانية. أو بفعل التجسيد الآني أمام الجمهور الحاضر في الكنيسة، لتحقير الجسد، وإماتة رغباته «غرائزه». أما الطبيعة الإلهية «ربما الروح، والنفس» فباقية. هذا المثال المتداخل المعاني، والأبعاد بين التأريخ، وبين الأسطورة. ولعل ما يميز طقس احتفال يومي الجمعة الحزينة، وسبت النور، أنهما لا يتضمنان قداساً إلهياً في احتفالاتهما، حتى الساعة الثانية عشرة من مساء سبت النور حيث يقام قداس القيامة، ويكرر في صبيحة الأحد «أحد القيامة»، لأن فعل التجسيد الإلهي، لا يمكن أن يتم إلاّ بعد القيامة، وعلى مدار السنة، ما عدا ذينك اليومين.

وبعد صلاة المؤمنين، يقام السجود للصليب المقدّس. وهناك طريقتان في عرض الصليب يختار منهما أنسبهما:

١ - عرض الصليب المقدّس للسجود.

يتوجّه الكاهن «أو الشماس» والخدّام نحو باب الكنيسة، حيث يتسلّم الكاهن صليباً مكشوفاً، والخادمان مع شمعدانين مضاءين، فيقام طواف في الكنيسة إلى مدخل قدس الأقداس.

القسم الأول من التقاريظ

وفي تقاريظ جناز المسيح نورد هذه الأبيات من طقس الروم الأرثوذكس[1]:

---

(١) «أبو ظبي ١٩٩٧/٤/٢٦.

الجزء الأول:

١ ـ يا يسوع الحياة/ في قبرك وضعت/ فالجنود السماوية انذهلت /كلها ومجّدت تنازلك.

٢ ـ كيف متّ يا رب/ وسكنت قبراً /غير أنك حللت سلطان الموت/ منهضاً من الجحيم المئتين.

٣ ـ يا مليك الجميع/ يا مقر الأرضين/ تسكن اليوم بهذا القبر الصغير/ كي تقيم الساكنين في القبور.

٤ ـ ميتاً يُشاهد/ سيد الخليقة/ ويوضع بعد ذا في القبر جديد/ مفرغ القبور من موتى الدهور.

٥ ـ عجب غريب/ وأمر عجيب/ مانح النسمة يحمل مائتاً/ ومجهّزاً بكفيّ يوسف.

٦ ـ ولئن قد غبت/ في قبر يا مسيح/ لكنك لم تغادر حضن أبيك/ ولئن أودعت في قبر صغير.

٧ ـ البرايا أجمع/ عرفت يا يسوع/ أنك حقاً مليك السماء والأرض/ ولئن أودعت في قبر صغير.

٨ ـ في قبر جديد/ وضعت يا يسوع/ فطبيعة البرايا تجددت/ حينما قمت سريعاً كإله.

٩ ـ إن الأرض ماجت/ كلها بخوف/ وشعاع الشمس أُخفي يا كلمة/ حينما قمت سرياً كإله.

١٠ ـ تحت الأرض غبت/ وكالشمس اختفيت/ واستترت بظلام الموت هناك/ فابزغ الآن وأشرق ببهاء.

١١ ـ إن آدم الميت/ قديماً بالجسد/ عاد حياً يا إلهي بموتك/ إذ طهّرت آدم الثاني الجديد.

١٢ ـ رُفعت على العود/ فرفعت الأحياء/ وحينما صرت في داخل الثرى/ عاجلاً أنهضت من تحت الثرى.

المجد للآب والابن والروح القدس.

١٣ ـ أيها الكلمة/لأبيك خضعت/ وانحدرت إلى أقصى الجحيم المر/ مُنهضاً من ليله جنس الآنام.

الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين. آمين.

١٤ - لك يا أم الله/ يا عذراء نُغبط/ ونكرم بشوق دفن ابنك/ الإلهي الثلاثي الأيام.

الجزء الثاني:

١ - نُعظّمك/ باستحقاق يا معطي الحياة/ يا من بسط يديه على الصليب/ ساحقاً قدرة سلطان العدو.

٢ - قالت الطهور/ إنني وحدي بلا أوجاع/ قد ولدتك وها أنا أحتمل/ حين آلامك ما لا يُحتمل.

٣ - إن السيرافيم/ حينما قد شاهدوك ارتاعوا/ في الأعالي مع الآب بلا انفصال/ وعلى الأرض طريحاً مائتاً.

٤ - أيها المسيح/ إذ دفنت انسحق الجحيم/ وأميت واضمحل الموت بالموت/ ونجا جنس الورى من الفساد.

٥ - أيها المسيح/ إذ وُضعت في الضريح بالجسد/ ذرفت أمك الدمع هاتفة/ يا بني قم كما قلت لنا.

٦ - يوسف واراك/ في قبر جديد يا مخلّصي/ منشداً لك المراثي اللائقة/ بالبكاء والنحيب امتزجت.

٧ - لما رأتك/ أُمك مسمّراً على الصليب/ سمر الحزن المروّع نفسها/ وسهام منه شكت قلبها.

٨ - كلمة الله/ بما أنك وحدك المحيي/ حينما صُلبت ما أمتّ اليهود/ بل أقمت مائتيهم باعثاً.

٩ - أيها المسيح/ قد رضيت أن تصير مثلنا/ وانحدرت يا رؤوف إلى الجحيم/ دون أن تترك أحضان أبيك.

١٠ - ويلي يا بني/ هتفت من لم تعرف زواجاً/ إن من كنت أريده ملكاً/ يُحكم الآن عليه بالصليب.

١١ - أيها المسيح/ نحن المؤمنين بك كلنا/ نسبّح الآن صلبك ودفنك/ إذ اعتقنا بهما من الممات.

المجد للآب والابن والروح القدس.

١٢ ـ أيها الإله/ الأزلي والكلمة/ المساوي له بالأزل والروح/ أيها الصالح أيد الحكام.

الآن وكل آوان وإلى دهر الداهرين آمين.

١٣ ـ يا نقية/ يا طهور يا والدة الحياة/ أبعدي عن الكنائس الانشقاق/ واشمليها بهدوء وسلام.

الجزء الثالث:

١ ـ كامل الأجيال/ تقرّب التسبيح/ لدفنك يا مسيحي.

٢ ـ يوسف الرامي/ عن الصليب أحدرك/ وفي القبر أضجعك.

٣ ـ أيها الخلائق/ قدّموا المراثي/ تكريمة للخالق.

٤ ـ يوسف المغبوط/ أضجع المسيح/ المُعطي لنا الحياة.

٥ ـ يا له من جهل/ مقتل المسيح/ من قاتلي الأنبياء.

٦ ـ يوسف ونيقوديموس/ يجهّزان الخالق/ كما يليق به.

٧ ـ أمّك النقية/ حين مُتّ مالت/ إلى البكاء والنوح.

٨ ـ أن يا إلهي/ قد أقمت الموتى/ بقدرة اللاهوت.

٩ ـ يا ضيا عينيّ/ يا بنيّ الحلو/ كيف في قبر تُحجب.

١٠ ـ سُمّرت فوق عودٍ/ يا مظلل الشعب/ بعامود السحاب.

١١ ـ هب لنا الغفران/ لأننا بخوف/ نكرّم آلامك.

١٢ ـ أمّك النقية/ تبكي وتنوح/ إذ مُتّ يا مخلّص.

١٣ ـ حاملات الطيب/ جئن صبحاً قبرك/ يدفقن الطيب فوقه.

١٤ ـ امنح بقيامتك/ لشعبك الخلاص/ والسلم للكنيسة.

المجد للآب والروح القدس.

١٥ ـ أيها الثالوث/ آب ابن روح/ ارحم جميع العالم.

. الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين.

١٦ ـ خوّلي عبيدك/ أيتها البتول/ مرأى قيامة ابنك.

السجود للصليب المقدّس
اليوم عُلّق

اليوم عُلق على خشبة، الذي عُلّق الأرض على المياه.

إكليل من شوك وُضع على هامة ملك الملائكة.

برفيرا كابا أُلبس، الذي وشّح السماء بالغيوم.

بعد لطمة، الذي أعتق آدم في الأردن.

خَتَنُ البيعةِ سُمّر بالمسامير،/ وابن العذراء طُعن بحربة.

نسجد لآلامك أيها المسيح/ فأنا قيامتك المجيدة.

ومن موضوع كتب الجنّاز المطبوعة والتعاليم الكهنوتية في صلوات الموتى: فقرة ـ الصليب نور يضيء في القبر نأخذ الرمز الذي يدلّ عليه الصليب: (...) والصليب هو أيضاً جسر وعامود من نار وجناح وهذه الصور تَرِدُ على لسان الراقد والكاهن المصلّي: «ليكن لي صليبك ـ تقول النفس ـ جسراً به أعبر بحر النار وأبلغ باب كنزك المملوء حياة وخلاصاً»[1]. وتتشفّع الكنيسة لأمواتها المؤمنين لدى يسوع قائلة: «ليكن صليبك للراقدين المؤمنين طريقاً وجسراً ومَعبراً به يبلغون إلى جنان المسرّات»[2]. ويضرع الكاهن المسيح الهنا كعامود من نور يسعى أمام عبدك هذا المتنيح وهو يمهّد طريق مسلكه... يوصله إلى محلّ سكينتك»[3].

مثال يتكرر اجتماعياً لكل حادثة موت
فللموتى أدعية طلباً للنجاة

قبل حدوث فعل الموت بانفصال الروح عن الجسد، وحالما يحس أهل الميت، أو الراحل نفسه بأوان المغادرة الأخيرة، يسرعون لأقرب كاهن لإسعاف المنازع بالمشحة، وقد يقوم بذلك أقرب من يكون معه، عندما يحس بأن لا مجال لوصول الكاهن، ويحلّ ذلك بشكل خاص للأطفال، وبخاصة هؤلاء غير المعمدين. غاية هذا الفعل إنقاذ الميت من أن يتيه في الشيول.. أي المطهر. أو حضن إبراهيم كما يقولون. وللتفصيل فإن أفعال هذا الطقس تتشكّل من العناصر التالية:

---

(١) المخطوط ٣٨/٧، ص ١٢.

(٢) المخطوط ٢٩/٧، ص ١٦.

(٣) المخطوط ١٢/٥، ص ٢٨.

١ ـ الاعتراف.

٢ ـ الندامة.

٣ ـ التوبة.

٤ ـ التناول، وإعطاء الحلّة «بقول الكاهن، أو النائب»: إنني أُحلك من ذنوبك.. ويقوم أثناء هذا الفعل بدهن المحتضر بالميرون «الزيت المقدّس». تماماً مثلما يدهن الطفل عند العماد.

يقول الخوري يوسف ملكي رئيس دير الشرفة، في دراسة عن صلوات الدفن ـ حسب طقس الكنيسة السريانية الأنطاكية تحت عنوان: الموت فراق مؤقت بين النفس والجسد[١]. إن الموت يفرّق النفس والجسد، فالنفس تعود إلى خالقها والجسد إلى تراب من حيث أُخذ. ويوم القيامة تتّحد النفس بالجسد وقد انبعث من الأرض حياً وتوشح حلّة المجد والكرامة: «تقول النفس للجسد امكث بسلام يا أخي ويا حبيبي، فإني أغادرك إلى حيث أمر الرب، ولي رجاء بالرب أن أراك يوم الانبعاث»[٢]. والفراق هذا كأس مرّ المذاق: «ما أمرّ كأس الموت... ما أمرّها وأرهبها وأقساها من ساعة إذا ما قال الملاك للنفس تعالي واذهبي فالرب يدعوك، فتسيل الدموع على خديها وتقول للجسد: أمكث بسلام من الآن حتى القيامة»[٣]. وتتوق النفس بكل جوارحها إلى لقاء رفيقها والعودة إلى مسكنها: «أمكث بسلام يا مَن كنتَ لي أخاً، امكث بسلام أيها البيت الذي قطنته، فرجائي بالرب أن نرى بعضنا ونهتف سوية يوم القيامة المجد: لك يا رب نفساً وجسداً»[٤]..

ويشير في فقرة بعنوان: الفراق غربة عن الجسد إلى وجوب اتحاد النفس والجسد بعد الموت لتكوين الإنسان المتكامل وتنعّمه بالسعادة الأبدية بعنصرية نظرة فلسفية سامية نجدها في الكتاب المقدّس ولدى الآباء السريان وتختلف عن النظرة اليونانية وفلسفة أفلاطون وبدعة ماني وبرديصان التي تعتبر النفس حبيسة الجسد الفاسد فيأتي الموت ويحرّرها من وثاقها، وتشهد صلوات الجنّاز أن النفس ليست محرّرة بل منفية عن الجسد: «أنا جالسة في الغربة، تقول النفس، استدعاني رب البيت، فلا يمكنني المكوث. وقال لي الرسول: أُخرجي من

(١) ص ٢٥٧.

(٢) المرجع نفسه؛ ص ١٢.

(٣) المرجع ذاته، ص ٤٣.

(٤) المخطوط ٣٨/٧، ص ١٨.

البيت وأفرغي المكان. أيها الجسد، يا مقري الزمني، امكث بسلام. يا بيتاً شهياً سكنته. لتكن مشيئة الرب، المجد لإرادته»[1] ـ.

أما عن مقرّ النفس في الأبدية فيشير إلى سؤال: أين يكون مقرّ النفس بعد مغادرتها الحياة الدنيا؟ إنها تمكث، إن كانت بارّة، في مخادع السعادة حيث تنعم برقاد هنيء وطمأنينة القلب وراحة الضمير، إلاّ أنها لا تدخل السعادة الكاملة إلاّ بعد القيامة العامة. يعبّر عن ذلك البيت التالي من جنّاز الرجال: «إذا ما دخل الكاهن ليقرّب الذبيحة للّه تؤمّه النفوس فتدخل إليه للتنعم بتلك الذبيحة؛ وبعد ذلك تعود وتُرسَل إلى مخادعها». وبهذا المعنى ننشد أيضاً: «في المكان المفعم مسرّات، هناك يستريح آباؤنا وإخواتنا الذين رقدوا على رجائك. وعندما تأتي لتدين القبائل أهل عبيدك يا رب أن يدخلوا جناحك مع قدّيسيك، ويرنّموا لك الشكر دون انقطاع». أما الأجساد فتبلى في التراب، غير أنها لن تبقى طول الأبد رميماً، فالمسيح بصوته يبعثها حيّة: «لا تكتئبوا أيها الأموات لتأخّر الختن. إنه آتٍ ويدعوكم. انهضوا وانبعثوا من القبر وخلّصوا من الثرى الذي فيه انحلّت أجسادكم. إنه حيّ فيكم جسده الحيّ الذي تناولتموه من بيت القدس، ودمه الحي كأس الخلاص ممزوج في أعضائكم»[2].

وربما يكون من المناسب أن نذكر هنا أن قدّاس الموتى الذي تجري فيه مراسيم قريبة من مراسيم يوم الجمعة العظيمة، «انبثق. أو تأكد فعله من خلال طقس الآلام». ويقام هذا القدّاس بناءً على حدث لوفاة أحد ما. سواء في اليوم الأول للدفن أو اليوم الثالث أو مرور أسبوع أو أربعين يوماً أو ذكرى مرور عام على الوفاة بما يسمى الجنّاز ولكن دون المرور بالمراحل الأربع عشرة لآلام المسيح. فبعد أن يختتم الكاهن قدّاس الموتى بالتراتيل، يقام طقس «الجنّاز» على روح المتوفى. تتم فيه قراءة الرسالة الأولى. وتكون مثلاً مناسباً من «سفر النبي أيوب». ثم يتلى مزمور من مزاميره «١٠٢»[3]. وتختص الرسالة الثانية بقراءة من إنجيل القديس «بولس» بعنوان «رسالة إلى أهل قورنتس» مثلاً. أما الإنجيل فمقتطف من إنجيل «بشارة القديس متى البشير الإنجيلي». حول ميراث ملكوت السماء للودعاء، والجياع، والمحزونين مثلاً[4]. إن مراسيم «الجنّاز» تختص بخليط من الأدعية، ومزامير الأنبياء. وفيه تنشد مدائح، وابتهالات تستدعي تخفيف الحكم على الميت في الآخرة لوضعه في موضعه الصحيح، وإن المتوفى جاء

---

(١) المخطوط ٣٨/٧ ص ٧.

(٢) المخطوط ٢٩/٧ ص ١٦ ـ ١٧.

(٣) سفر أيوب ١٩: ٢٣ ـ ٢٧.

(٤) إنجيل متى ٥:١ ـ ١٢.

لكي يجد له مكاناً في البيت الذي لا بيت آخر يوازيه. ويتم ذلك من خلال ترديد هذه الأدعية بين الكاهن، والشعب المصلي وأهل الفقيد. ويختتم «الجنّاز» بمزمور من مزامير «داوُد» القائل:

- «من الأعماق صرخت إليك يا رب/ يا رب استجب لصوتي،

- لتكن أذناك مصغيتين لصوت تضرّعي...إلخ».

ويتكرر هذا الطقس في كل من ذكرى مرور ثلاثة أيام على الوفاة، وذكرى السبعة أيام، والأربعين يوماً، ومرور عام على الوفاة، أما فيما بعد فلا يقام إلاّ جنازاً جماعياً، يذكر فيه كافة الموتى الذين أوصى أهاليهم بتسجيلهم لنيل البركة، ومع هذا يذكر الكاهن كل الموتى. ويقوم أهل المتوفى في بعض القرى بجلب خبز، أو حلوى يضعونها أمام المذبح، ليباركها الكاهن أثناء مراسيم الجنّاز. وتقدم فيما بعد، عند الخروج، وأداء مراسيم التعزية لأهل الميت في باحة الكنيسة. وغالباً ما ينذر بعض ممن عندهم مزارع، أو بساتين، بالمحصول الأول، أو القطفة الأولى، فيجلب منه مقدار للمباركة، وتركه في صوانٍ في باحة الكنيسة لمن يتذوقه، وتجري هذه غالباً في أعياد بعض القديسين، ومنها عيد السيدة «العذراء» المصادف في ١٥/٨ من كل عام، يكون في المدن الشمالية موسماً للعنب والتين، كما في بلدة سنجار في شمال شرقي العراق.

وتتلى في رتبة البخور بعد القدّاس التراتيل التالية على سبيل المثال:

نفحات العطر العذب عن أرواح موتانا

نرجو منك يا ربي عنهم رضوانا

بالخبز الحي اقتاتوا واجتازوا دنيا الشقا

للمجد الآتي باتوا في مثوى الرجا

إن جاء الحيُ الربُّ نادى بالموتى هُبّوا

من جوف الأرض قاموا للحكم قاموا

ما أشهى موت الأبرار أسرار ما أغناها

آمال ما أحلاها غفوٌ في الأنوار

ما لم تبصره عين ما لم تسمعه أذن

ما لم يُدركه ذهن يُعطى للأبرار

فُلك بانت في البعد يُغنيها كنزُ الوعد

يحدوها موجُ اليمّ والكنز ينمي

أنت الفلك يا مريم يسوع الكنز الأعظم

منه أشبعت المعمور حياة ونور

نحيي ذكر الأنبياء والرسل والصّديقين

والأبطال الشهداء فخر الظافرين

أذكر يا ربّ البيعة والعذراء الوديعة

والمتى بالقديسين أجمعهم آمين

ربي اسكن أبناءك دار النّور

ملء الحب يشدوا لك الدهور

يا من تُحيي ميتاً واراه التراب

اقبل منّا هذي الصلاة عمّن غابوا

يا من ذاق الموت القاسي كالإنسان

ابعد عنّا مُرّ الكأس الموت الثاني

عظّم وارفع ذكر العذراء والقديسين

جُد وارحمنا طيب ذكر الموتى آمين

بركة الخبز والمأكولات عن نية المتوفى.

الكاهن: معونتنا باسم الرب.

الشعب: صانع السماوات والأرض.

الكاهن: يا رب استمع صلاتي.

الشعب: وليأت إليك صُراخي.

الكاهن: الرب معكم.

الشعب: ومع روحك أيضاً.

الكاهن: فلنصل: أيها الرب يسوع المسيح، خبز الملائكة، والخبز الحي للحياة الأبدية، تنازل وبارك + هذا الخُبز كما باركت الأرغفة الخمسة في البرية، حتى أن كل مَن أكل منه باستحقاق، ينال صحة النفس والجسد المبتغاة. أنت الحي المالك إلى دهر الداهرين.

الشعب: آمين.

الكاهن: فلنصل: أيها الرب القُدُوس، الأب القادر على كل شيء، والإله الأزلي، تنازل وبارك + هذا الخُبز ببركتك الروحية المقدسة، ليكون لكل من يتناوله صحة للنفس والجسد، ودواء لكل الأمراض، ووقاية من جميع حيل الأعداء بربنا يسوع المسيح الخبز الحي الذي نزل من السماء، وأعطى الحياة، والسلام للعالم، والذي يحيا، ويمكث معك باتحاد الروح القدس إلهاً إلى دهر الداهرين.

الشعب: آمين.

ينضح الكاهن الخبز بالماء المقدس «ثم يبخّره». وإذا كان الخبز المقدّم ذكراً للموتى يزيد الكاهن الصلاة التالية:

الكاهن: أُذكر يا رب، عبدك (...) الذي دعوته للحياة الأبدية. وانصت إلى دعاء عبيدك الذين يطلبون له الرحمة والغفران. وأسبغ عليه مراحمك واعطه الراحة الأبدية والسعادة الخالدة: بربنا يسوع المسيح.

الشعب: آمين.

وتتم مباركة ما يقدم من خبز... عن نية المتوفى.

الكاهن: فلنصل: أيها الأب القدير، منبع كل الخيرات والبركات، يا مَن أرسلت إلينا ابنك الحبيب ليفتديك بسفك دمه الثمين، نسألك أن تبارك هذه الهبات والعطايا. اللّهم بارك مقدميها، وأهلهم أن يكونوا من المدعوين إلى وليمتك السماوية، وامنح نفس عبدك «أمتك»... الراحة والسعادة الأبدية. بربنا يسوع المسيح.

الشعب: آمين.

وتردد في الجنّاز الذي يلي القداس المحاورة التالية:

باسم الميت: خلصني يا رب. من الموت الأبدي.

في ذلك النهار المرهب. لما تتزعزع السماوات والأرض.

الشعب: حينما تأتي لتدين العالم بالنار.

الكاهن: ارتجفت وخفت من جراء الفحص والغضب الآتي.

باسم الميت: لما تتزعزع السماوات.... إلخ.

الكاهن: ذلك اليوم يوم غضب، ونكبة، ومصيبة. يوم عظيم ومرّ جداً.

الشعب: + حينما تأتي... إلخ.

الشعب: حينما تأتي... إلخ.

الكاهن: الراحة الأبدية أعطهم يا رب، والنور الدائم فليضىء لهم.

باسم الميت: خلصني يا رب... «إلى ارتجفت».

الكاهن: كيرياليسون.

الشعب: كريستا إليسون.

الكاهن: أبانا الذي في السماوات.

وهنا ينضح الكاهن النعش، ويبخّره بالماء المبارك فيدل على أن الميت المُصلّى من أجله قد توفي في حضن الكنيسة، وأنه يمكن للكنيسة أن تساعده روحياً، أما التبخير فغايته إكرام جثة المؤمن الذي كان هيكلاً للروح القدس. أو كانت حياته كمطر طيب الرائحة. ثم يتابع الكاهن الصلاة:

الكاهن: ولا تدخلنا في التجارب.

الشعب: ولكن نجنا من الشرير.

الكاهن: من باب الجحيم.

الشعب: نجّ يا رب نفسه «نفسها».

الكاهن: ليسترح بسلام «لتسترح».

الشعب: آمين.

الكاهن: يا رب استمع صلاتي.

الشعب: وليأت إليك صراخي.

الكاهن: الرّب معكم.

الشعب: ومع روحك أيضاً.

الكاهن: فلنصل: أيها الإله الذي من صفاته الرحمة والغفران دائماً: نبتهل متضرعين إليك من أجل نفس عبدك «أمتك»... التي أمرتها أن تنتقل «اليوم» من هذا العالم، حتى لا تُسلمها إلى يد العدو ولا تنساها إلى النهاية، بل تأمر الملائكة بأن يقبلوها، ويبلغوها إلى الوطن السماوي، بما أنها رجتك وآمنت بك، لا تكابد العذابات الجهنمية بل تفوز بالأفراح الدائمة. بربنا يسوع المسيح.

الشعب: آمين.

الكاهن: الراحة الأبدية اعطه يا رب.

الشعب: والنور الدائم فليضيء له.

الكاهن: ليسترح بسلام.

الشعب: آمين.

الكاهن: فلتسترح نفسه «نفسها» ونفوس جميع الموتى المؤمنين برحمة الله والسلامة.

الشعب: آمين.

ونعطي هنا نموذجاً عن الحوار الذي يتخيله الشاعر بين النفس المتنقلة والشعب المسيحي ننتقيه من سوغيت[١] في جنّاز الرجال[٢].

الميت: أغادركم يا أحبائي. صلّوا لأجلي.

الشعب: الرب الذي جبلك وخلّصك بابنه وبروحه القدوس سوف يبعثك.

---

(١) السوغيتات: هي منظومات شعرية متأثرة بالمداريش، تعرف بصيغتها البسيطة وتُنشَد دون لازمة «عونيت»، وتظهر في صلوات الجنّاز. من ميزاتها الشعرية أنها تُنظم على الأحرف الأبجدية مفردة أو مزدوجة الأبيات. فيكون للقصيدة اثنان وعشرون بيتاً، أو أربعة وأربعون يغلب فيها أسلوب المناجاة أو الحوار، فتناجي النفس باريها، أو يخاطب الميت الديّان الإلهي ويودّع بحسرة الكنيسة، وذويه وأبناء بلدته. تُنسب أغلبها لمار أفرام، وبعض منها لمار يعقوب السروجي، وتنظّم على بحور متنوعة منها (٤،٥) مكررة، و(٥ • ٨). أو (٧ + ٥) موزعة على أربع فقرات. وتأتي أيضاً على أوزان البواعيث المعروفة ص ٢١٠ - ٢١١.

(٢) **الموت فراق مؤقت بين النفس والجسد**، ص ٨٥ ـ ٩٥. الرحماني لا يثبت منه، في طبعته ص ٥٣ - ٥٤، سوى نصف السوغيت المزدوج الأبيات والمؤلف من ٤٤.

الميت: أنا خائف لما اقترفت من المعاصي.

الشعب: الرب الديّان رحوم وسيدعوك ويُقيمك.

الميت: اذهبوا بسلام واغلقوا الأبواب عليّ، ها الرّب آتٍ ليفتحها بوجهي.

الشعب: لا تيأس يا أخانا داخل اللحد، فالرب آتٍ يدعوك.

الميت: «مخاطباً الرب» لقد أكلتُ جسدك، فليوقظني صوتُك يوم البعث.

الشعب: ليكن لك صليب الرب دليلاً أمام وجهك ويقُدك إلى الفردوس.

في نهاية الترنيمة يتناول الكاهن أو المترئس وعاء الزيت بيده، ويتلو هذه الصلاة الواردة حرفياً في كافة المخطوطات «أرسل أيها الرب الإله ملائكتك لعبدك هذا المنتقل إليك وامنحه بواسطة هذا الزيت الذي يهراق عليه أن ينسلّ «لهله I هذ هـ حا» من قبضة القوات المناوئة التي تحارب نفوس البشر في الهواء، وأبلغه مطّال النور ومقرّ النيّاح». ثم يرسم على الزيت إشارة الصليب ثلاثاً مردّداً أسماء الأقانيم الثلاثة.

سكب الزيت: بسكب الزيت المبارك بشكل صليب على كل من الوجه والصدر والركبتين، في حين يتلو الكاهن هذه الصلاة «للفرج والراحة من المشقّات والتنعيم مع القديسين باسم الآب والابن والروح القدس آمين». إنّ التعليمات الطقسية ليست موحدة في هذه النقطة. بعضها لا يرسم سوى مرة للسكب[١]، ولا يأتي على ذكر والدهن به في جناز النساء، مع إثباته بركة الزيت، لا يشير إلى السكب... إلخ.

وفي وصف طقوس الجنازات نقدم بعض الأمثلة الموثقة عن جنازات مسيحية لمختلف الطوائف:

فتحت عنوان: الجنّاز في الطقس البيزنطي ـ للأخت مكسيم عجّوب تقول[٢] لدرس تأريخ صلاة الجُناز، لا بدّ لنا أن ندرس مفهوم الموت في العهد الجديد حيث اتخذ طابعاً جديداً بموت المسيح وقيامته. فقد قال السيد: «أنا القيامة والحياة، من يؤمن بي وإن مات فسيحيا»[٣]، وكذلك بولس: «لا تحزنوا كمن لا رجاء لهم»[٤]. وإن الجماعة المسيحية منذ عصورها الأولى، عاشت في الاحتفال الليترجي بالإفخارستيا هذا الموت وهذه القيامة،

---

(١) المخطوط ٣٢/٧.

(٢) الجناز في الطقس البيزنطي: ١٦٠.

(٣) يوحنا: ١١، ٢٥ ـ ٢٦.

(٤) بولس: ١، ٤، ١٣.

عربون انتصار وضمانة لما سيحدث بعد الموت. ولذا فإننا نلاحظ أن خدمة الجُناز، قبل أن تأخذ شكلها النهائي المعقّد، قد عرفت بعض التأرجح، جعلها تميل إلى الاندماج بالذبيحة الإلهية تارة، وبفرض ليترجي منظّم، كالفرض الصباحي، طوراً[١].

أما الخوري يوسف ملكي فيشير في دراسته ص ٢٠٦ بالقول: غير خفي ما للمأتم المسيحي من أهمية راعوية، إذ يُقبِلُ عدد وافر من المؤمنين للقيام بواجب التعزية والمشاركة في تشييع الراحل. وهذه فرصة مؤاتية لإبلاغهم كلام الله ومساعدتهم على تفهّم الصلوات الطقسية، وما فيها من غنى لاهوتي.

ويبدو أن الطقس الأرمني للجناز لا يبتعد كثيراً، ففي دراسة للآب رافايل ميناسيان[٢] ـ يقول: من أوائل رتب الدفن المسيحية التي جرت في أرمينيا في مطلع القرن الرابع، كما سردها لنا المؤرخ الكبير أكاتانكيفوس، كانت رتبة دفن العذارى الشهيدات هريبسيميانتس اللواتي بلملمة ذخائرهنّ القديس غريغوريوس المُنوّر بعد إخراجه من البئر العميقة التي كان ملقى فيها بأمر من الملك درطاد. لقد اختصر لنا المؤرخ رتبة الدفن هذه على المراحل التالية:

ـ لفّ غريغوريوس أجسادهنّ بثياب العذارى، رافضاً الأكفان الذهبية والحريرية والعطور المقدّمة لهذه الغاية من قبل الملك درطاد وزوجته الملكة قائلاً: «إنكما لستما بعد مُعمدين. ما زلتما على تقاليدكما الوثنية».

ـ سجّى أجسادهنّ في توابيت من خشب السنديان وختمهما بعلامة الصليب المقدّس.

ـ صلى جاثياً أمام التوابيت، التي وضعها في ثلاثة مدافن صُنعت خصيصاً ومؤقتاً من الخشب، وقد ثبّت فوق كل منهما صليباً.

ـ حدّد تأريخاً للاحتفال السنوي بذكرى استشهادهنّ.

إن ما قام به غريغوريوس من طقس جنائزي لدفن أجساد الشهيدات، يوضّح لنا بأن غريغوريوس قد أتى بهذا التقليد المُعيّن لدفن الموتى من قيصرية كبادوكيا حيث تعلّم ورُسم أسقفاً.

أما المطران يوسف بشارة، رئيس أساقفة أنطلياس فيشير بقوله[٣]: والمعنيون عندنا بالجنازات هم فئات ثلاث: الميت والشعب والأكليروس.

---

(١) **الجنّاز في الطقس البيزنطي** للأخت مكسيم عجوّب، ص ١٥٧، ١٧٧.

(٢) **صلوات الموتى في الطقس الأرمني**، الآب رافايل ميناسيان ـ أستاذ في معهد الليتورجيا، بتاريخ ٢/٢٧/ ١٩٨٩، ص ١٠٥.

(٣) دراسة بعنوان: ـ **الاحتفال بالجنّاز: هموم أُسقف** ـ ص ١٤٣.

- الميت يقوم بدوره قبل أن يموت، طبقاً للقول المأثور: نموت كما نعيش. ولكن الميت، وإن لا دور له فاعلاً في الجنّاز، يبقى هو المحور. فلولاه لما كان احتفال، وحفل. فحياة الفقيد واستعداده للموت مع بيئته العائلية، هي التي تحدد نوع الاحتفال، لأنه انعكاس لذهنية ومواقف. كما أن رتبة الجنّاز لحظت بعض أبيات من الأناشيد وضعت على لسان الميت نفسه. فلكم من مرة يقول أهل الفقيد: نريد أن «نطلع من قيمته». وعنوا بذلك التركيز على المظاهر الاجتماعية أكثر منه على المواقف الدينية....إلخ. ويضيف: وبقدر ما تقوى الروح المسيحية لدى أهل الفقيد، تخفّ المظاهر. وليس من النادر أن يتحلّق الأهل حول الجثمان، في البيت أو في الكنيسة، ويشاركون في الصلوات التي تقام من أجله مشاركة فعّالة مقرونة بالحزن والدمعة السخية، ولكن مجبولة أيضاً بروح الإيمان، وفقاً لقول الرسول: «وأحبّ أن تعلموا يا أخوة، أن الذين يرقدون لا ينبغي أن تحزنوا عليهم كسائر الناس الذين لا رجاء لهم»[1]. والشعب فئتان: فئة مؤمنة أتت تشاطر الناس آلامهم وتشاركهم في الصلاة، وفئة من أصحاب الواجبات الاجتماعية تقتصر مشاركتهم على الحضور إلى البيت، وساحة الكنيسة...إلخ..

- وهناك أيضاً فئة الإكليروس: وهم محترفو الصلاة، بدونهم لا يتمّ احتفال بالجنازات، لأنهم وحدهم يُتقنون الألحان ويقرأون السريانية (...)، وعدد الإكليروس مهم في الجنازات، لأنهم متوشحون بالسواد، ويضفون على الجوّ مسحة حزن وكآبة. وعددهم الكبير، بمن فيهم الأساقفة، يدلّ على قيمة الميت ووجاهته.... إلخ.

ويشير في نفس الدراسة[2] إلى المجاورة التي تقوم بين أهل، وأصدقاء الميت، وبين من يمثله، وغالباً ما يكون الكاهن أو أحد الشمامسة: ثم يقولون:

الميت: «يا أخوتي ضعوا الحجر واختموا عليّ القبر، وصلّوا عليّ لأذهب وأُقبل».

الجمع: «لقد وضعنا الحجر وختمنا القبر، فليكن صليب المسيح لك رفيقاً».

وعند طمره بالتراب، صلوات تستمطر عليه المراحم، والرأفة كيلا يُدان ويهلك، بل يحيا بنعمة الرب المخلّص.

لقد تطوّرت صلاة الموتى تطوّراً كبيراً قبل أن تصل إلى شكلها الحاضر. فمنذ العصور الأولى، حرصت الجماعة المسيحية على نبذ البعض من العادات الوثنية، وعلى تبني بعضها الآخر،

---

(١) راجع: **صلاة المؤمن**، ترتيب وتنسيق الخوري بطرس الجميّل، ١٩٦٦، جزء ١، ص ٧٤٣ - ٧٤٠.

(٢) **الاحتفال بالجنّاز: هموم أسقف**، ص ١٥٢.

بعد أن أضفت عليها روحاً مسيحية جديدة. ثم أضافت إليها تدريجياً طقوساً مسيحية محضة[١].

أما في دراسة الأخت مكسيم عجّوب راهبة باسيلية شويرية بتأريخ ٣ نيسان/أبريل ١٩٨٩ فتقول[٢]: وهناك عادة تقوية سلافية تقضي بأن يحاط رأس الميت بعصابة رُسمت عليها صورة المخلّص وإلى جانبيه العذراء والسابق مع كتابة نشيد التقديس المُثلّث «التريساغيون» قدوس...إلخ: دلالة على أن الميت هو خاصة يسوع المسيح..

ولعل أهم ما جاء في دراسة «عجّوب» مما يفيد دراستنا هذه ما ورد تحت فقرة خدمة الجناز في أسبوع الفصح وفي وداعه[٣] حيث تشير الباحثة إلى أن الكنيسة البيزنطية تخصّ الأموات برتبة جنّاز في أسبوع التجديدات ووداع الفصح انطلاقاً من مبدأين: رغبتها في عدم استعمال أناشيد حزينة في وقت الفرح العام، ورغبتها في اشتراك كنيسة الأموات المنتصرة برجاء القيامة، بفرح الكنيسة المتألمة على الأرض.

والرتبة ليست سوى سحر القيامة. وغنيّ عن القول إن الأناشيد الفصحية تغني القيامة والفرح من جهة، وتبين نزول المسيح إلى الجحيم من جهة أخرى. ألا تعبّر الإيقونات القديمة عن هذا السّر حيث تُظهر المسيح ممسكاً بأيدي صديقيّ العهد القديم ومخلّصاً إياهم بتحطيم أبواب الجحيم؟ وتضيف[٤] (...) تحاول الكنيسة البيزنطية بمراسيم الدفن الطقسية أن تستحق الملكوت للفقيد الراحل، بالتماسات حارة، وأن تشيع أجواء الطمأنينة والتعزية والفرح والرجاء في صدور الفقيد.

فهي تقول على لسان الميت «ابكوا عليّ، لقد داهمتني ساعة الموت الرهيبة. تعالوا قبّلوني القبلة الأخيرة.. أنا ذاهب إلى الديّان... تضرّعوا كي لا أساق إلى مكان العذاب...» وهي تسأل له غفران الخطايا والتطهّر منها، والرحمة والرأفة، والخلاص واختطافه من النار الأبدية وحفظه للحياة السعيدة، ومنحه الوطن المشتهى وترتيبه في جوار المسيح. ولماذا؟ لأن الإنسان هو إيقونة «هو صورة مجد الله، ولو كان حاملاً سمات الزلّات..». «فقد خلق الله حياً مركباً متوسطاً بين الضعة والرفعة، فخطىء، فخطىء بآدم ونفي... ولكنه صورة مجد الله، الذي لا يوصف...» والمسيح جاء ليخلّصه بما أنه شفيق: «وقد برّره بالإيمان والنعمة واشترى نفسه بدمه وجعله ابن نور»، وأقام العذراء أماً له. (...) وبما أن الإنسان من طبيعتين «منظورة وتعود إلى الأرض، وغير منظورة وتعود إلى ربها»، فالرجاء بالخلاص أكيد، لأن الذي خلقنا على صورته، وضعنا في

(١) المصدر السابق، ص ١٦٠.

(٢) **الجناز في الطقس البيزنطي**، ص ١٦٦.

(٣) المصدر السابق، ص ١٧٢.

(٤) المصدر السابق، ص ١٧٤.

الفردوس، وجعلنا نسود على جميع المخلوقات، وعوّض على تعدينا بتجسده وفدائه، وجعلنا أبناء النور، يريحنا من عذاب حرّيتنا. في المعنى الأخير، يهتف يوحنا الدمشقي في الإيديوميلات: «كيف دفعنا إلى البلى؟ كيف وقعنا تحت وطأة الموت؟»، ويجيب: «لا جرم أن ذلك يحدث بإذن الله الذي يمنح المنتقل الراحة».

فالموت والحالة هذه ليس ليحرمنا هذه الحياة الفانية، وملذّاتها بل «إنه يعيد إلينا ما هو على مثال الرّب»[1]. (...) لماذا نصلي للأموات. طبعاً لأمرين، خلود النفس بعد الموت وشركة القديسين. وإذا كان خلود، فالقبر مدخل إلى الحياة، وإذا كانت شركة في جسد يسوع السرّي، فالاتصال بين كنيسة منتصرة، وكنيسة مجاهدة ضروري، لا غنى عنه للتوصية بالراحل[2].

وتشير دراسة صلوات الدفن حسب طقس الكنيسة السريانية الأنطاكية ـ للخوري يوسف ملكي إلى بعض التفاصيل في مسألة الدفن، ومنها ما جاء:

١ ـ وكانت الجثّة قبل إيداعها اللحد، تُرحض بالماء وتُحنّط بالبخورات وتُدهن بالطيوب اقتداء بدفن المسيح، كما يفيدنا بذلك ترتليانس في كتابه: «الدفاع عن الدين المسيحي»[3] وفي الأنحاء الآمنة، كان المؤمنون يُشيّعون موتاهم بالترنيم والبخور والشموع. وبمثل هذه الحفاوة، حُمِلَت على الأكف جثة القديس قريانسون إلى مثواها الأخير في قرطاجة[4]، وصلوات التشييع وما يواكبها من رموز تعبير بليغ عن المعتقد المسيحي بحياة خالدة مع الرب الذي يكافىء خائفيه بسعادة أبدية، فالموت في نظر المسيحي، لم يعد نهاية كل شيء والوقوع في العدم، أو الولوج في المجهول، بل ملاقاة مع الرّب وبدء حياة جديدة على مثال المسيح الناهض من القبر. وهذا الرجاء المسيحي نجده ليس فقط في الصلوات الطقسية لرتبة الجنّاز وما فيها من شعائر، بل أيضاً في التعابير السريانية التي تستعملها الكنيسة للدلالة على الموت. ويضيف بقوله: غير خفي ما للمأتم المسيحي من أهمية راعوية، إذ يُقبل عدد وافر من المؤمنين للقيام بواجب التعزية والمشاركة في تشييع الراحل. وهذه فرصة مؤاتية لإبلاغهم كلام الله ومساعدتهم على تفهّم الصلوات الطقسية، وما فيها من غنى لاهوتي[5].

---

(١) المصدر السابق، ص ١٧٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٧.

(٣) T.V. ART. FUNERAILLESC.IDIB. 2710.

(٤) IDIB. T. V. 2706. N. 13.

(٥) **صلوات الدفن حسب طقس الكنيسة السريانية الأنطاكية**، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

٢ - تُطلق الكنيسة على الموت كلمة «ححُحُا». إنه رقاد وغفوة إلى حين. فالمؤمن يرقد على رجاء القيامة؛ والموت أيضاً راحة ونياح «يُسُا» من عناء الحياة الدنيا. ومن هذه المفردة السريانية، اشتقّت كلمة «تنيح» بمعنى تُفيّ. أما فعل «حثو»، «حه يو نُا»، فتعني العبور والانتقال إلى مكان آخر، وبالمعنى ذاته تُستعمل كلمة «حه نُنُا» أو «معغُنُا» هي كلمات وصلوات قصيرة يدعو بها المحتضر ربّه[١].

٣ - لم نحظَ بين مخطوطات دير الشرفة بنسخة عن جنّاز العوام حسب التقليد السرياني الشرقي «أي التكريتي» لمقارنته مع الطقس السرياني الغربي. وبين يدينا النص المخطوط حديثاً، والمتبع حالياً في أبرشية الموصل، ولا يعوّل عليه، لأنه يجعل لكل رتبة خدمة واحدة. غير أننا أردنا أن نصفه بسرعة لنعطي عن فكرة عامة من مميزات هذه الرتبة أن القسم الأول يقام في الكنيسة، والقسم الثاني يتمّ في المقبرة، أي القراءات[٢] والسواغيث والختّام. كما أنه يُفرد صلوات خاصة للرجال والنساء والشبّان البتولين والشابات البتولات والأطفال دون السابعة. رسم الدفن حسب الطقس التكريتي «المتبع حالياً في أبرشية الموصل»[٣].

٤ - وفي عنوان: في إعادة ذكر الميت يضيف الأب يوسف ملكي قوله: إن الأيام التي يُعاد فيها ذكر الميت في الكنيسة السريانية كما حدّدها مجمع الشرفة وعلى اختيار أهل الميت «الصلوات من أجل الموتى عادة جارية في الكنيسة منذ نشأتها، وتظهر في القرن الثالث كرتبة كنسية تشهد عليها الديداسقاليا: - في تذكارات الموتى اجتمعوا واقرأوا الكتب المقدّسة وارفعوا الصلوات للّه وقدّموا الأوخارستيا الملكية صورة جسد المسيح الملكي..»[٤]. يُعاد ذكر الميت، حسب القوانين الرسولية في اليوم الثالث والتاسع والأربعين والسنة. وكانت الكنيسة اللاتينية تجعل السابع والثلاثين عوض التاسع والأربعين. ثم ألغى القديس أغسطينوس تذكار اليوم التاسع لالتباسه في بيئته مع عوائد وثنية[٥]، هي اليوم الثاني والثالث والتاسع والأربعون ونصف السنة، وحول السنة. وفي بعض البلاد، يعيدون ذكر الميت في اليوم الثاني والثالث، والسابع ونصف الشهر،

---

(١) قاموس منّا ص ٤٥٩.

(٢) القراءات: تتلى القراءات الكتابية في الخدمة الثالثة بصورة عامة؛ لكننا نجد، في بعض المخطوطات، قراءات في الخدمتين الأولى والثانية. ويختار اثنتان من العهد القديم، وثلاث من العهد الجديد.

(٣) **صلوات الدفن حسب طقس الكنيسة السريانية الأنطاكية**، ص ٢٢٠، ٢٢١.

(٤) DACL., T. TV. ART. DEFUNTS, C. 443.

(٥) IDIB., C. 354.

والشهر والأربعين والسنة. ونظراً لظروف العصر، فقد اختصرت هذه الأيام التذكارية، واكتفي منها، في غالبية الأبرشيات السريانية، بيومي الأربعين والسنة. وقد خصصت بيعتنا السريانية في دورتها الطقسية وصلواتها الفرضية ثلاثة أيام من السنة تقع يوم الجمعة تيمّناً بموت المسيح، ولأن إحياء ذكر الموتى يوم الأحد محظور. وهذه الأيام هي يوم الجمعة من الأسبوع الثالث السابق لأحد مدخل الصوم الكبير وهو لذكر الكهنة والشمامسة المتوفين. ويوم الجمعة من الأسبوع الثاني السابق لأحد مدخل الصوم لذكر الموتى المؤمنين عامة «لا بد من الإشارة هنا إلى تناقض بين صلاة الفناقيث التي تجعل ذكر الموتى الغرباء في يوم الجمعة من الأسبوع الثاني السابق لأحد مدخل الصوم، وبين مقررات مجمع الشرفة» ويوم الجمعة السابق لأحد مدخل الصوم لذكر الموتى الغرباء[1].

٥ - وتضيف التعليمات الطقسية أنه في يوم الخميس السابق لجمعة الكهنة، يجب أن يقام في كل البيع الكاتدرائية قدّاس وجنّاز عن روح الأسقف الأخير المنتقل من تلك البيعة. وفي الكرسي البطريكي عن روح البطريريك المنتقل أخيراً. ويوم جمعة الكهنة يقام قداس وجناز عن أرواح البطاركة والأساقفة والقسوس والشمامسة المنتقلين من بيعتنا. وفي يوم جمعة الموتى، يقام في كل بيعة قداس وجناز عام للمؤمنين المنتقلين من تلك البيعة، وتكتب على لوح أسماء الموتى الذين يقدم أهلهم حسنة عن أرواحهم ليذكروا في القداس ويوضع اللوح على الثرونس في وقت القداس. وفي القداس يصلى تخشفت[2] عام عن أرواح أولئك الموتى قاطبة. وأما في ذكر الموتى، فلا يقام جناز إلاّ إذا طلب ذلك المؤمنون الذين يريدون أن يقدّم القربان والصلاة «الجنائزية» عن أرواح ذويهم الذين ماتوا في الغربة وجادوا بالحسنة.

٦ - وفي دراسة الجناز في الطقس البيزنطي، تقول الأخت مكسيم عجّوب: يتضح لنا من عرض هيكلية جنازات العوام أن كل رتبة منها تتألف من ثلاث خدمات تتمحور فيها

---

(١) مجمع الشرفة، ص ١٤٩، بند ٣ ـ التعليمات الطقسية، ص ٣٥.

(٢) التخشفتات: وتعني الابتهالات، مفردها «تخشفت» «L مهمه I» وهي كثيرة الاستعمالات في صلوات الدفن، نادرة في غيرها من الطقوس البيعية. تتألف من مقطوعة نثرية طويلة النفس عادة ذات لحن واحد، ومستقلة بصيغتها الأدبية ونغمتها. يُعزى هذا اللون من الأدب الليتورجي إلى مار رابولا، أسقف الرها، الذي توفي في النصف الأول من القرن الخامس (٤٥٣). وقد فقد معظم هذه التراتيم وكانت تنيف عن الخمسمائة.

الصلوات، وسائر العناصر الكتابية والطقسية حول نقاط معينة. وقد لفت نظرنا مخطوط واحد «٣٢/٧» لا يتضمّن سوى عدان واحد لدفن الأطفال. ومن خصائص الطقس المحلّي في سوريا الشمالية أن الخدمة الثالثة في جنّاز الرجال تبدأ بالصلاة وتلاوة المزمور «من الأعماق» بكامله. وهنا نلحظ بعض التقارب مع الجناز الماروني الذي لا يظهر فيه بوضوح الأقسام الثلاثة، ولكنها تبدأ كما في «المخطوط ٣٢/٧» بأحد المزامير الثلاثة «ارحمني يا اللّه»، «إلهي إلهي»، «ومن الأعماق صرخت إليك يا رب» «اتبع البطريرك رحماني هذه البنية في طبعته لجنّاز الأطفال[١].

وتختلف كل العناصر كثيراً في نصوصها، وعددها، وتنسيقها في المخطوطات حسب كل فئة من المتوفين. بيد أنها تتمحور بترتيب حول نقاط ثابتة لتؤلف بُنية الطقس. وأغلب المخطوطات المستعملة على صلوات الدفن التي ندرسها تتبع الطقس السرياني الغربي؛ فيما واحد منها فقط يحتوي على التقليد السرياني الشرقي، ويختلف بهيكليته عن الطقس السرياني الغربي. وتجدر الإشارة إلى أن للطقس الغربي فروعاً محلية هنا بالمخطوط رقم «٣٨/٧»... إلخ. موضوع هيكلية رتبة الجناز سبت النور، وما هو سبت النور؟

• - إن مسرحية التضحية التي تُحاك تبدأ من الإعداد ليوم الفصح، ببداية يوم الأحد التالي للسبت الأخير، قبل سبت التهيئة الذي يلي خميس الفصح بعينه. وعند هذا الحد بعينه يكون التداخل، والانفصال بين المسيحية، واليهودية، من ليلة عيد الفصح اليهودي هذا العيد الذي لبس مسوح النصراني، وما يزال في التعاليم المسيحية. واتخذ له مظهراً لطقس مسيحي، فيما عدا الاسم، بعيداً عن الطقس اليهودي القديم الذي بقي على حاله لكي يليه سبت التهيئة. فقد أُلغي سبت التهيئة تماماً لدى المسيحيين. بل حل محله سبت النور لأن في نهاية هذا السبت ظهر فجر الأحد وطلع بنوره الذي دحر ظلام الموت بقيامة المسيح يسبقهما بالطبع يوم الجمعة الحزينة، جمعة الآلام التي سارت فيها وخلالها آلام تعذيب ومحاكمة وصلب المسيح. لهذا يقوم في بعض المدن طقس الخروج من الكنيسة مساء يوم سبت النور، وتقفل الأبواب، وتطفأ الأضواء، ويقف الكاهن، والشعب، وقد أشعلوا الشموع، يطرقون أبواب الكنيسة، وهم يترنمون بمزامير داوُد قائلين:

- ارفعي أيتها الأبواب، رؤوسك، وارتفعي أيتها الأبواب الدهرية، فيدخل ملك المجد.

---

(١) **الجناز في الطقس البيزنطي**، ص ١٦٢ - ١٧٧.

وبعد إنهاء الدعاء، من سياق المزامير، تفتح الأبواب بهدوء، وكأنها فتحت لحالها «يكون القندلفت قد اختفى، لكي يفتحها عند إيعاز من الكاهن، وهو يقوم بالطرق على الأبواب بالصليب الذهبي الذي يحمله بيده أثناء ممارسة طقس القداس، خصوصاً فيما لو كانت درجته بمرتبة كبيرة من الخوري فما فوق، وقد قام بتغطيس الصليب بالماء المقدس وتعمّد رشّه مرة باتجاه الباب، ومرة باتجاه الناس». وسبت احتفالات النور كما يقول الآب بطرس بطو السرياني ـ قس كنيسة السريان الأرثوذكس/تورنتو ـ كندا وبخاصة طقس قرع الأبواب: هو في الأصل له علاقة حيوية بمسألة فيض الميرون، ففي الوقت الذي تجري عناصر الطقس في كنائس العالم بين مدخل الكنيسة، وباحتها، بعد الخروج وإطفاء الأضواء، والعودة للدخول بعد قراءة مزمور افتحي أيتها الأبواب رؤوسك تُضاء الكنيسة على أثرها، وتنفتح الأبواب بما يشبه التلقائية. يكون أصل الطقس في كنيسة القيامة عند مذبح الميرون، «والميرون هو الزيت المقدس الذي يرمز بزيادته لفيض القدسية بشكل ما داخل الكنيسة حيث تنطلق شرارة الضوء من داخله كإشعاع يصدر عنها، ويعزو القس بطو ذلك إلى أن جسد المسيح لم يكن ليتسع المرقد المخصص لعظمة قدرته الإلهية، فصدر عن ذلك قوة هائلة من الضياء التي انتشرت خارج المرقد، وتتكرر هذه الحالة في ذلك الدفن كل عام.

القيامة، والانتصار[1]

أحد القيامة ـ أول أيام العيد الكبير «عيد القيامة»

أما قداس القيامة فيبدأ بال «الهللويا»، وفعل التوبة، والأناشيد الفرحة، والمنتصرة، المبتهجة بقيامة المسيح، لأنه بقيامته قد انتصر. وتقرأ القراءة الأولى من إنجيل «أعمال الرسل» (١٠، ٣٤أ، ٣٧ ـ ٤٣) بعنوان «أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من بين الأموات»، ثم يرتّل مزمور «١١٧، ١ ـ ٢٣»، بين الشعب، والكاهن، والشمامسة، بعد توزيع الأدوار ما بين الأطراف المختلفة.

(١) إن عودة «أي مسيح» تعني تحقيق المصير، والقدر المحتومين كما في النبوءات. وبمجرد قيادة يسوع الناصري لمجموع شعب إسرائيل يعني قيادتهم للنهاية، وتحقيق النبوءة، وانتهاء كل أمل في خلاص بعيد المنال. فلماذا لا ينتهي هذا اليسوع وحده؟ وتتجدد بنهايته النبوءة، والأمل البعيد وبخاصة في أعياد الفصح التي تحتاج لضحية. وهكذا تُحاك مسرحية التضحية بشكل يذكرنا بالتضحية الإغريقية، «وبالذات المسرحية التي حاكها اغاممنون أمام زوجته كليمنسترا لتقديم ابنته يفيجينيا ضحية لتهدئة آلهة الريح، بينما ادعى أمام الزوجة، والبنت أنه قد استقدمهما لتزويج البنت من بطل الأبطال أُخيل».

ويعلن الكاهن بعدها قوله:

ـ «اذهبوا في الأرض كلها، وأعلنوا البشارة إلى الخلق أجمعين»[١].

١ ـ أما الرسالة الثانية فيقرأ فيها فصل من رسالة القديس «بولس» إلى أهل «قور ٣، ١ ـ ٤» مثلاً[٢].

٢ ـ وفي قراءة الإنجيل تتم قراءة من إنجيل القديس[٣] مثلاً. يشرح فيها الكاهن فعل القيامة، وكيف عادت «مرتا» من القبر في فجر اليوم الثالث «الأحد» ولم ترَ للمسيح من أثر. لكن الرسل يجدون الأكفان على الأرض، ومنديل الرأس في مكان آخر ملقى على حدة. وتسير بقية مراسيم القداس الإلهي كالمعتاد.

يقول الخوري يوسف ملكي[٤] تحت عنوان: الأجساد تبعث حية بالقيامة والقيامة عمل خلق جديد يحيّر عقل الإنسان: «خُلقتُ من التراب ـ يقول الراقد ـ وأعدتني إليه، والآن أبرئني منه عن جديد. وإذا ما بَعثَ أموات الشيول أهّلني أن أقوم من عن يمينك[٥]. وتصفها الصلوات كأنها ولادة ثانية: «عندما تنطفىء سرج السماء المبثوثة ويأخذ الأرض منها المخاض تركع، وتلد الأموات الذين في باطنها، فينبعث الموتى من التراب وينمون كالزرع في الأثلام»[٦].

ويضيف تحت عنوان الأجساد الممجّدة بقوله: أما الأجساد الناهضة من القبر، فليس لها أية صلة بالمادة. إنها غير مصنوعة بالأيدي: «كما يلبس السوسن في البرية لباساً غير مصنوع بيد بشرية، هكذا يلبس الصدّيقون في انبعاثهم لباساً نسجه روح القدس لبني آدم.

ومن دراسة مصير الإنسان بعد الموت في الجنازات المارونية[٧] يقول: يحصل المؤمن

---

(١) إذ ورود جملة: «اذهبوا في الأرض كلها، واعلنوا البشارة إلى الخلق أجمعين». ما هي إلاّ لتأكيد الفرحة بالقيامة، والعنصر الهام في موضوعة المخالفات الكبيرة، سواء مع اليهودية أو مع الطوائف المسيحية الأخرى. لذلك لا يقول الكاثوليكي في التعيد: كل عام، وأنتم بخير.
وإنما يقول: قام المسيح.
فيجيبه المقابل بعبارة: حقاً، وصدقاً.

(٢) رسالة القديس «بولس» الأولى إلى أهالي قورنتس. قور ١٥: ٢٠ ـ ٢٣.

(٣) يوحنا: ٢٠، ١ ـ ٩.

(٤) **صلوات الدفن حسب طقس الكنيسة السريانية**، ص ٢٥٩.

(٥) المخطوط ٣٢/٧، ص ١١٠.

(٦) المخطوط ٣٨/٧، ص ٧٩.

(٧) للأب إلياس خليفة، ص ١٢٧ ـ ٢٨٨.

على عربون هذه القيامة في حياة جديدة ودائمة مع اللّه، أولاً في سرّ المعمودية التي تَسِمُهُ بروح القدس وتُشركه بسرّ موت المسيح وقيامته، وثانياً في سرّ الافخارستيا الذي فيه يأكل جسد المسيح، ويشرب دمه فيتّحد به عائشاً على هذه الأرض، بطريقة محدودة، الحياة الأبدية مع المسيح بعد القيامة.

١ - زمن القيامة هذه هو «اليوم الأخير» الذي فيه سيأتي «ابن الإنسان» دياناً لجميع البشر، أحياء وأمواتاً، فيقيم الأخيار لحياة مجيدة معه والأشرار لحياة تعيسة بعيدة عنه. على الإنسان أن يكون مستعداً لاستقبال يوم المسيح الأخير، لأن هذا اليوم سيأتي فجأة. لا يخاف المؤمنون بالمسيح هذا اليوم، بل ينتظرونه بالفرح، لأن فيه ستتحقق سعادتهم بملاقاة المسيح. يقوم الموتى في ذلك اليوم، في جسد مُمجّد غير قابل للفساد على شبه جسد المسيح القائم من القبر، أما الأحياء، فيتغيرون من جسد فاسد إلى جسد غير فاسد ليلتحقوا بالمسيح مع القائمين من الموت..

٢ - ولكن، ما هي حالة الموتى قبل القيامة؟ مَثَلُ لعاز والغني في لوقا ١٦/١٩ - ٣١ يقول إن لعازر مات وقادته الملائكة إلى «حضن إبراهيم» حيث يلقى العزاء؛ أما الغني فهبط إلى العذاب في «الشيول» حيث كان يرى لعازر يتنعّم في حضن إبراهيم. فما هو «حضن إبراهيم»؛ وما هو «الشيول»؟ إذا كان الشيول، حسب العهد القديم، هو مثوى جميع الأموات حتى القيامة، هل «حضن إبراهيم» هو مكان في الشيول يذهب إليه الأبرار ويمكن مشاهدته من قِبَلِ الأشرار، كما يقول المثل؟ هل «حضن إبراهيم» هو السماء، بينما «الشيول» هو جهنم؟ ليس من السهل الجواب على هذه التساؤلات في كتب العهد الجديد. وسنرى كيف تُجيب عنها نصوص الجنازات المارونية.

٣ - إن الثنائية في الإنسان، في مفهومها اليوناني العام وتحديدها الأفلاطوني؛ لكنه يقول بثنائية اللحم والروح التي لا تعني تجزؤ الإنسان إلى عنصرين يمكن أن ينفصلا. وأن يعيشا كلّ على حدة. فاللحم هو الإنسان الضعيف الخاطىء المهدّد بالفساد والفناء من جراء الخطيئة التي تبعده عن اللّه. أما الروح فهي الإنسان القوي القادر على أن يتغلب على الخطيئة والفساد والفناء، إنها الإنسان على صورة اللّه ومثاله، القادر على الاشتراك بحياة اللّه وعلى الخلود معه. فالإنسان مائت من حيث هو «لحم» وحي خالد من حيث هو روح. الإنسان، في حد ذاته، كائن مصيره الموت والفناء؛ ولكن اللّه الذي خلقه على صورته ومثاله ينشله من الموت والفساد، ويحييه معه إلى الأبد. فالإنسان المائت في جزء منه والخالد في آخر، ليس إنسان الكتاب المقدس، بل هو إنسان

الفلسفة الأفلاطونية، وهو دخيل على الإيمان المسيحي، بالرغم من قدم دخوله عليه وتأثيره العميق على كيفية فهمه للموت، كانفصال النفس عن الجسد وقدرتها على الحياة وحدها حتى القيامة، حيث تعود إلى الاتحاد مع الجسد بعد قيامته من القبر[1].

٤ - الموت انفصال النفس عن الجسد: يبقى الموت، بالنسبة إلى معظم النصوص، انفصال النفس عن الجسد. يرجع هذا الأخير إلى التراب حتى القيامة، بينما النفس تتمتع بحياة مستقلة، بالرغم من مفارقتها الجسد وتألمها لفقده، وتوقها إلى الاتحاد به من جديد وهذا يعني أن حياتها ناقصة بدونه: «قاسية ومرّة ساعة الموت، والنفس في غمّ شديد في ذلك الوقت، لأنها تركت الجسد بألم وحزن وقالت له: «اذهب بسلام». «في الغربة جالسة النفس تقول: أرسل رب البيت فطلبني ولا يستطيع أن أعصاه، لأن الرسول قال لي: «أخرجي من البيت واخلي سكناه». وأنت، أيها الجسد، المسكن الزمني، اذهب بسلام، وسأراك في الانبعاث وأنا أرتّل المجد».

٥ - «حضن إبراهيم» قائم على مفرق الطريق المؤدي إلى «مكان الخوف والفزع». على هذا الطريق المخيف، تمرّ جميع النفوس؛ النفوس الخيّرة فقط تجد ملجأً في «حضن إبراهيم» الذي صار أباً لجميع الشعوب بأعمال إيمانه. فلتبهج وليمة إبراهيم عبدك بينما يتعذّب الغنيّ في العطش. وعندما يصرخ الأخيار والأشرار: صالح حكمك!... فليهتف عن يمينك: «لك المجد أيها السيّد». «حضن إبراهيم» قائم على مفرق الطريق المؤدي إلى «مكان الخوف والفزع». على هذا الطريق المخيف، تمرّ جميع النفوس؛ النفوس الخيّرة فقط تجد ملجأً في «حضن إبراهيم»: «مخيف المكان الذي أنا ذاهب إليه ومملوء فزعاً.. هناك بحر من نار يعبر فيه جميع البشر. على المفرق قائم إبراهيم وإلى أكنافه يعبر الصدّيقون. ابسط لي يدك لأعبر هذا الحد المبارك؛ ومتى عبرتُ أُرتّل لك المجد».

صعود وتجلي
أول أحد من الأسبوع السابع

وفي عيد الصعود، أي بعد أربعين يوماً من الممات، والقيامة، وتردد المسيح على تلاميذه، حيث يتم شرح ذلك في قراءة الرسالتين:

---

(١) **مصير الإنسان بعد الموت في الجنازات المارونية**، الأب إلياس خليفة، ص ٢٧٢.

١ - ففي الرسالة الأولى التي تكون عبارة عن قراءة من «أعمال الرسل ١: ١ - ١١» مثلاً. تتلى بعدها مزامير متعددة، تدعو للابتهاج، والفرح. وتوزع فيها الأدوار أيضاً ما بين الكاهن والشعب. وتكون غالبها مدوّنة في ورقة وزّعت مسبقاً على جمهور المصلين.

٢ - وفي قراءة الرسالة الثانية فمن رسالة القديس «بولس» الرسول إلى «أهل أفسس ١: ١٧ - ٢٣» مثلاً. وهذه هي الأخرى تشرح فيها قضية الصعود.

٣ - قراءة في الإنجيل فإن فصل من بشارة القديس «مرقس» تقرأ فيه «١٦: ١٥ - ٢٠» مثلاً. وهي بعنوان «رفع إلى السماء، وجلس عن يمين اللّه».

٤ - وبينما تمر مراسيم القداس العادية، تتلى التراتيل، والأناشيد، وتعدد في فقرات معجزات المسيح[١].

أحد العنصرة[٢]
يوم تكلم الرسل بألسنة البشر

وفي عيد العنصرة، وهو ذكرى مرور خمسين يوماً على القيامة، فإن الاحتفال في القداس يتم بعد فعل التوبة والتسبيح بالمجد في العلى. وذلك من خلال ذكر ذلك في الرسالتين. الأولى: «من أعمال الرسل ١: ٢ - ١١» التي تقول:

- «كانوا مجتمعين في مكان واحد، فانطلق من السماء بغتة دوي كريح عاصفة، فملأ جوانب البيت الذي كانوا فيه، وظهرت لهم ألسنة كأنها من نار، قد انقسمت، فوق كل منهم لسان، فامتلأوا جميعاً من الروح القدس. وأخذوا يتكلمون بلغات غير لغاتهم، على ما وهب لهم الروح القدس أن يتكلموا... إلخ».

---

(١) اعتباراً من ألوهيته «يوحنا ٨: ٤٦»، مروراً بالمعجزات في ذاته «متى ١٧: ١ - ٩»، إلى معجزاته في الأرواح الشريرة «مرقس ١: ١٦ - ٢٦»، «متى ١٥: ٢١»، «لوقا ٨: ٢»، معجزاته في البشر «لوقا ٧: ١ - ١٧»، «مرقس ٥: ٢٢ - ٤٣»، «يوحنا ١١: ١ - ٤٥». ومعجزاته في الطبيعة «متى ٨: ٢٣ - ٢٧»، «مرقس ٦: ٣٥ - ٤٤ - ٤٨»، «يوحنا ٢: ١ - ١١»، «لوقا ٥: ١ - ١٠»... إلخ.

(٢) نلاحظ من طقس عيد العنصرة أنه لا يقل أهمية عن عيد «القيامة»، وعيد «الصعود»، لأن الرمز في هذا العيد واضح، فبعد عشرة أيام من الصعود، تحل «بركة الروح القدس»، وهو ثالث التثليث، «الأقانيم الثلاثة» للمسيحية الكاثوليكية، على رسل المسيح، تمثّلت بشكل نور وألسنة لهب على رؤوسكم، بدّلت لغتهم، أو علمتهم التكلم بألسنة البشر لكي يذهبوا ليبشّروا برسالة المسيح، وفي هذا معانٍ كثيرة من أهمها ما نود تشخيصه هنا. وهو طريقة الاحتفال بهذه الذكرى، لأنها تجسّد دور الرسل، ومن ثم الكهنة للعصور التالية ومنها عصرنا الحالي عصر إقامة هذا القدّاس.

وفي الرسالة الثانية يقرأ فصل من: «رسالة بولس إلى أهل قورتنس ١٢: ٣ب - ٧ - ١٢ - ١٧» حول حلول الروح القدس على تلاميذ المسيح، ويقوم الشعب في الكنيسة مع الكاهن بالتهليل «هللوليا أيها الروح القدس... إلخ».

وفي قراءة الإنجيل تثبت المعلومة من خلال فصل من فصول بشارة «يوحنا ١٥: ٢٦ - ٢٧. ١٦أ ١٢ - ١٥». وهناك ضمن سياق المراسيم نفسها، لكل قداس، أناشيد، وتراتيل، وحواشٍ تقرأ لتعاد فيها سيرة المسيح «يسوع» في آلامه، وشرح طويل لمعجزاته، ونبوءاته[1]. وهذا العيد يوحي بأن الرسل الاثني عشر قد تعلموا لغات البشر بقدرة إلهية، لكي يقوموا بتبشير الناس بتعاليم المذهب الجديد. ونلاحظ من هذا الطقس أن عيد العنصرة لا يقل أهمية عن عيد «القيامة»، وعيد «الصعود»، لأن الرمز في هذا العيد واضح، فبعد عشرة أيام من الصعود، تحل «بركة الروح القدس»، وهو ثالث التثليث، الأقانيم الثلاثة» على رسل المسيح، تمثّلت بشكل نور، وألسنة لهب على رؤوسهم، بدّلت لغتهم، أو علمتهم التكلّم بألسنة البشر لكي يذهبوا ليبشّروا برسالة المسيح، وفي هذا معانٍ كثيرة من أهمها ما نود تشخيصه هنا، وهو طريقة الاحتفال بهذه الذكرى، لأنها تجسّد دور الرسل، ومن ثم الكهنة للعصور التالية ومنها عصرنا الحالي عصر إقامة هذا القداس. في هذه الاحتفالية التي انطلقت من يوم الجمعة الأولى في الصوم الكبير، أي بما يقارب الأحد عشر أسبوعاً.

إن ما يهمنا هنا بعد هذا التفصيل، والتوضيح لتداخلات الأفعال الطقسية، وتكرارها في مناسبات متعددة، ابتعدت برمزيتها إلى مرتبة التجريد، فنالت نوعاً من القدسية لدى العامة على وجه الخصوص، والصغار، والكبار في السن. لكنها جميعاً تعود إلى طقس الاحتفال بيوم الجمعة الحزينة، مركز التحول، والتضحية التي توج بفعل القيامة وانبثاق المذهب الجديد، وتعمّق مبادىء العقيدة... وكما ذكرنا فإن طقس الجمعة الحزينة لم يقتصر على كونه طقس تعذيب وصلب، وإنما هو مثال لتضحية تجذّرت في الذات النصرانية، لم تأت إلاّ امتداداً لجذور تأريخية شعبية في عمق التأريخ البشري[*].

(١) نبوءاته «متى ٢٠: ١٨ - ١٩»، «مرقس ١: ١٧»، «أعمال ١: ١٨»، «لوقا ٢: ٢٤ - ١٤»... إلخ.

(*) إن كافة الشروحات، والتفصيلات الخاصة بطقوس القداديس الكنسية هي من الوثائق التي جمعناها من نشريات الكنيسة الموسمية التي توزع في كل مناسبة على جمهور المصلين، ولعديد من السنين.

الفصل الثاني

ماذا في التعازي

١ - إن هذه الاحتفالية المسرحية، الدينية، الاجتماعية، السياسية والشعائرية، والتي ترسخت في الضمير الشعبي، وارتبطت في الأيام العشرة الأولى من السنة الهجرية، وبذلك تدعى «العاشوراء»، هي تكريس لإعادة أحداث المآسي «الحسينية»، التي يطلق عليها وعلى مكان إقامتها، وحتى طقوسها، لفظ «الحسينية»، أو «التعازي الحسينية». عندما جاء أعوان «يزيد بن معاوية» ليمنعوا دخول «الحسين بن علي - عليه السلام» وأتباعه إلى مدينة «الكوفة»، ومحاصرتهم في منطقة لا يصل إليها الماء. ثم أعملوا التقتيل، والذبح فيهم بعد المهلة ثم قتلوا «الحسين - رض»، وذلك في اليوم العاشر من الحصار..

٢ - وفي هذه الشعائر التي تقام في الأيام العشرة تتلى السيرة «الحسينية»، وتروى مساقات أحداثها. خصوصاً في الأيام التسعة الأولى وذلك في المحافل الدينية، و«الحسينيات» المقامة في كل بلد، وفي أكثر من حي من البلد نفسه. كما تجرى مراسيم اجتماعية لها رموزها ودلالالتها. والتي انعكست، من التأثير الديني، واتصلت كثيراً حتى في التحريم، والتقديس اللذين برزا حتى في العادات الاجتماعية، وعلى مختلف المستويات تصل إلى حد نوعية الطعام، والحلوى، والملبس. ويتلو العشرة أيام، أربعين يوماً من الحزن يلبس الصغار والنساء فيها السواد.

٣ - إن المرور في مسيرة أحداث السيرة، خصوصاً في تلك الأيام، لا يجعل مجالاً للشك في مدى التأثير الوجداني للسيرة الحسينية، لدى الشعب في الحياة العامة. وكذلك في الطقوس المواكبة يومياً، وفي جماعة المحتفلين من الحاضرين «للحسينية». هذه السيرة التي يقابل أسلوبها، أسلوب سرد السير الاجتماعية والوطنية في الأيام الاعتيادية. فهذا التوحّد الوجداني الجماعي، بقيادة راوي السيرة، والمدّاح الديني، يتجاوب معه ذلك

النشيج الجماعي، للتعبير عن المهمة الأساسية، عند إعادته للردات المحفوظة عن ظهر قلب، والتي تتوافق على إيقاعات ضرب الصدور بالأكف، في سمفونية دينية جماعية، يغلب عليها التوحد الوجداني، ويغلفها التحسر على الشهداء والمغدور بهم في هذه الواقعة. وذلك بتجاوب أعمق وأكثر أثراً من أية سيرة أخرى. لأن موضوع هذه السيرة يخص الوجدان الداخلي، المتصل بالخلاص المفقود، والمرتقب دوماً.

المظاهر العاشورائية

قلنا إن السيرة الحسينية التي عاشت منذ الألف السادس الميلادي ولا تزال، قوامها وديمومتها، ذلك الواعز الديني المتأصل داخل الفرد، وكأنما يريد هؤلاء المؤمنون إبعاد أو تنحية الحادث الأليم عن ذاكرتهم الجماعية أو مسحها من مخيلتهم. لذلك تجري الطقوس في الأيام العشرة كلها، في إطار ديني تتخلّله مظاهر احتفالية وأخرى تشخيصية تمثيلية. إضافة إلى الخطابة والفروسية فتقام المسيرات على شكل مواكب. تشارك فيها مختلف الجهات التي جاءت لهذا العزاء. وتسير في المدن الكبرى، وبخاصة كربلاء والنجف، والكاظمين في بغداد. أما فيما تبقى من المدن نفسها فإن المشاركين يقيمون مواكبهم وحسينياتهم أيضاً، وذلك حسب تسلسل أيام التعازي العشرة. ولا يبتعد هذا كثيراً عما يقام في الدول التي يغلب فيها الطابع الشعائري على العادات. خصوصاً إذا ما كانت هناك نسبة مقبولة من الطائفة الشيعية من الديانة الإسلامية نسبة للسكان من الطوائف الأخرى، كما في البحرين، وإيران، وباكستان على سبيل المثال. وإلاّ فإن هذه المظاهر تكون رمزية، وقليلة، تقتصر عادة على زيارة الأضرحة، كما في سوريا على سبيل الحصر..

يقول الخطيب السيد محمد حسين القزويني في محاورة أجريناها معه في تموز/يوليو ١٩٦٦ حول معاني السيرة الحسينية:

- السيرة تأريخ، ولكل أمة عريقة تأريخ يعكس لها صوراً شتى من حياة الآباء والأسلاف، وسيرة نبيّنا، وأهل بيته بمن فيهم «الحسين عليه السلام» تشكّل نهجاً عملياً، وقدوة وأسوة لنا نتعلّم منها القيم، ونأخذ منها الأفكار والعقائد كما هو الحال في كل أمة وطائفة.

أما الخطيب السيد عامر الحلو فيشير لنفس معاني السيرة الحسينية على النحو التالي:

- سيرة الشخص هي أبعاد حياته بخصوصيتها، وتفاصيلها، والسيرة الحسينية هي قصة حياة الحسين «ع» كاملة. أو حديث كربلاء الذي يتضمن تأريخ وقعة عاشوراء كما رواها المؤرخون كاملة.

اليوم العاشر
العاشر من محرم، يوم المقتل

أما اليوم العاشر من عاشوراء المقابل ليوم «الجمعة العظيمة» فهو يوم الاحتفال العظيم. هو يوم المقتل أو «الطبكك» بالعامية العراقية. فيه تحدث المراسيم النهائية، التي تنقسم إلى جزأين:

الأول: الجزء الخاص بالتضحيات الذاتية. والحضور الكامل للمجاميع في ساحة الحسينية الرئيسة. خصوصاً مدينة كربلاء. وذلك لأن الامتثال للدعوة «الحسينية» وإعادة أدائها يكون بدلاً عن حضور الأجداد تأريخياً، ونفسياً.

ويتقدم موكب المضحين الذين لبسوا البياض وحلقوا الرؤوس لجرحها بالسيوف والخناجر وقد جاؤوا منذ الصباح الباكر لذلك اليوم. بل بعض الوفود قد بات، والمضحون منهم على وجه الخصوص في ساحة الحسينية. ولقد شهدت أحداث هذا اليوم والليلة التي تسبقه لأكثر من مرة، في كل من ضاحيتي «الكاظمية» ببغداد، ومدينة «كربلاء». ويكون الشعب في تلك الليلة قد هيأ نفسه لليوم الأخير، وسهر الكل وطبخوا الأطعمة الخاصة. لأن موكب المضحين المكفرين يشتمل على أعداد كبيرة تمثل كل مجموعة فيه كموكب، فئة معينة من الفئات التي كانت قد جاءت لنُصرة «الحسين ـ عليه السلام»، وهي تمثل تلك الأقوام التي ما يزال أحفادها يتذكرون الوعود، وما تضحية بعضهم بجرح رؤوسهم، أو ضرب أجسادهم بالجنازير. إلاّ تمثيلاً للاستشهاد والموت في الموقعة.

الثاني: الخاص بالمراسيم النهائية فيأتي بعد ذلك في نفس اليوم. إذ تتم إعادة تمثيل الأحداث بتسمية أشخاص يمثلون الأبطال الرئيسيين فيها. وحتى الأطفال منهم، مثل «أولاد الحسين ـ عليه السلام». أما الشخصيات فمنها «الشمر، ووهب النصراني، وغيرهم». فيقوم الجمعان في طرفين، بينهما عساكر «يزيد» وكومبارس. ويتجوّل هؤلاء كلهم على الخيول، ويميز كل منهم علامات واضحة من نوع الملابس والإكسسوار. لأنه ليس هناك مكان يلتقون فيه للمحاورة في شوارع المدينة. وإنما هناك عرض فروسية للمبارزة. وغالباً ما تكون أشكال الأعداء بشعة سواء في الاختيار لمشخصي الأدوار أو بإضافة بعض الألوان الداكنة للوجوه. بينما تكون أشكال الضحايا، والسبايا صغاراً، وكباراً من ذوي الأشكال الحسنة، والملامح الجميلة[1]. وفي كثير من الأحيان، تعوز

(١) فقد لاحظنا في «تونس» أن دمى الأعداء وهم الصليبيون بشعة التعبير والمظهر. لكننا وجدنا العكس في دمى صقلية.

المنظمين الحيلة في توضيح شخصية ما للجمهور. مثل شخصية «وهب النصراني» ـ ربما يكون هو الراهب الذي طيّب «رأس الحسين ـ عليه السلام»، هو والأسد بعد موته. فإن المحتفلين غالباً ما يلبسون «وهب ـ الراهب» القبعة، ويعلقون بكتفه آلة تصوير «كاميرا». لأنه ليس للشخصية أو المكان من مجال لوصف وتوضيح معالمها، ومميزاتها النمطية. أما وصف الأحداث فإنه الآخر يلاقي صعوبات في هذا التجوال الكامل في المدينة. لكن بعض المراكز المنتشرة، والمستقرة في غالبها تتلو الرواية، وصفاً وإنشاداً هنا وهناك.

والجماهير المتفرجة، وهي الجموع المساهمة في الحزن، والعارفة بسياق الأحداث، بل والمتشبعة بكل كلمة وحرف منها، تتابع الأحداث، وتقرن المواقع والرواية دون صعوبة تذكر.

ويمر الموكب الأخير، وقد وضع رأس «الحسين ـ ع» في نعش. وهناك علامة لأسد جاثم كان قد حرس الرأس. ورموز أخرى يفهمها الشعب. وتمر المواكب المشاركة على أصوات «الطوس» والإيقاعات. أما المنشدون من المختصين فما يزالون يسردون الوقائع. لإثارة اللواعج والأشجان تمركز كل منهم في سرادق مقام في البلدة. ولا يكتفي بعضهم بسرد القصة، وإنما يستغلها في نقد الوضع القائم. خصوصاً إذا ما كان البلد في ضائقة سياسية. تصلح هذه المناسبة للمقارنة، والإسقاط، واستغلال المنبر للتفريج عن الهموم، وطرح مطالب شعبية مرادة، وكثيراً ما تقوم بعض الحكومات بإيقاف أو بمنع التعازي، بحجج دينية أو طائفية بظاهرها، ولكن باطنها خوف من الإثارة واستفحال الأمر.

غير أن بعض الحكومات الأخرى للبلد نفسه، وبخاصة لو كانت في أول عهد تسلّطها، فإنها تشجع إقامة هذه الفعاليات في بعض فترات حكمها، ومن خلال مخطط مقصود، ومراقبة مرصودة، وذلك من أجل الحصول على تأكيد معين.. أو من أجل امتصاص النقمة الشعبية. فإذا منعت هذه الشعائر رسمياً، فإنها تقام على الصعيد الاجتماعي سراً، داخل المنازل خصوصاً بعد توافر أجهزة «الكاسيت». أو ربما علناً لأن التعلق بالواعز الديني وهواجسه لا تجعل الفرد المنصاع لها، واعياً للمخاطر. بل ربما يعتبر اضطهاده من خلالها نوعاً آخر من التكفير. لذلك ترتدي النساء والأطفال ملابس الحزن السوداء لمدة أربعين يوماً. ويأكلون مأكولات خاصة توزع من خلالها البركات والنذور. وفي بعض السنوات كانت المنظمات النسائية والشبابية، والأحزاب السياسية والمنظمات النقابية تساهم في مسيرات الأيام العشر ومواكبها، لكي تشعر الجموع المحتفلة أنها وبالرغم من تعلقها بالمبادىء السياسية

العلمانية لم تنس الشعائر الدينية. أو أنها لم تتخلّ عن السيرة الحسينية[1].

السيرة الحسينية باقية في المجتمع العربي

١ ـ إن هذا الاحتفال الشعبي والتقمّص الاجتماعي التشخيصي، داخل إطار السيرة الدينية، بين فاعل مشارك، أو مؤدٍ للحدث، أو راوٍ منشد، ومشاركيه، هو السيرة الملحمية التشخيصية الأكثر حيوية، والأعم انتشاراً، أو الأقرب لنفوس الجمهور. أما سر امتدادها والصراع حول بقائها فهو الصراع ما بين الجمهور المتعلق بها، وما بين السلطة، وما بين الفعل التشبيهي، والتشخيصي، وما بين الرغبة في التكفير والتطهير، بطرق مختلفة يصل بعضها إلى موت الفرد. إنها في الحقيقة الدراما المتأصلة في روح الشعب مهما اختلفت أسماؤها وأبطالها، ومهما تنوعت أحداثها وتفاصيل مواقعها، من طائفة إلى أخرى ومن دين إلى آخر، ومن شعب إلى غيره. وهي التي تؤدي دورها بحيوية أكثر من دور رواية السيرة الشعبية، وبخاصة أثناء اشتداد الأزمات السياسية ضد السلطة، أو المحتل. وقد برز ذلك أثناء الاحتلالين العثماني، والبريطاني، كذلك أثناء سيطرة الحكومات العسكرية، وانفرادها بالحكم بالتعاقب.

٢ ـ فلنفس المظهر والسبب وفي الأيام ذاتها تسير مواكب من دمشق باتجاه قرية «السيدة زينب»، يتقدمه رجال أقوياء، بأيديهم العصي والحراب القصيرة، وفي وسطهم تابوت مجلل بالبياض، وخلفهم الشيوخ والنساء، وأصوات البكاء والصراخ تملأ الموكب، يضربون رؤوسهم وأجسامهم. حتى إذا ما وصلوا قرب مرقد «السيدة زينب» قاموا بمراسيم الأدعية والاذكار ومنهم من يبقى هناك لثلاثة أيام.

السيرة المكتوبة من مصادر مختلفة

للمقارنة، والتوثيق الأكثر اقتراباً من الموضوعية حرصنا على تقديم قصة السيرة كما دوّنها السيد محمد كاظم القزويني بعنوان «فاجعة الطّف»[2]. وذلك لاحتوائها على أكثر من رواية لبعض الحوادث.. وغايتنا في هذا التدوين إعطاء أبعاد أوثق، خصوصاً إذا ما أتبعناها برواية

(١) وذلك ما شاهدناه في المحافظات العراقية ومنها مركز محافظة واسط «مدينة الكوت» عام ١٩٦٩، وحتى عام ١٩٧٨.

(٢) قصة السيرة كما دوّنها السيد محمد كاظم القزويني بعنوان **فاجعة الطّف**، منشورات دار الألفين، الطبعة العاشرة ـ الكويت. **المظاهر المسرحية عند العرب**، علي عقلة عرسان ـ صدر عن اتحاد الكتّاب العرب ـ سوريا ط.

السيرة الشفاهية من مصدر هام وهو ما رواه السيد عبد الزهرة الكعبي. على أن ما ننقله عن الشريط المسجّل للكعبي هو وسيلتنا الأهم للتعبير المطلوب في الدراسة من حيث المقارنة أولاً، ومن حيث التوضيح للدرامية الاجتماعية الدينية في تواصلها الممتد عبر قرون عديدة:

وبعد التقديم والتوطئة التأريخية يذكر المؤلف أوليات فاجعة الطف. (...) فقد مات معاوية بن أبي سفيان في النصف من رجب سنة ٥٩ أو ٦٠ من الهجرة، استولى ابنه يزيد على مسند الخلافة[١] (...) وكتب يزيد كتاباً إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان «والي المدينة» يخبره بموت معاوية، ويأمره بأخذ البيعة من أهل المدينة عامة، ومن الحسين بن علي خاصة. فأرسل الوليد إلى الإمام الحسين، وقرأ عليه كتاب يزيد، فقال الحسين: «أيها الوليد: إنك تعلم أننا أهل البيت بنا فتح اللّه وبنا يختم، ومثلي لا يُبايع ليزيد... إلخ»[٢]. (...) وخرج الإمام الحسين من المدينة خائفاً يترقّب وقصد نحو مكة؛ فجعل أهل العراق يكاتبونه ويراسلونه ويطلبون منه التوجّه إلى بلادهم ليبايعوه بالخلافة، لأنه أولى من غيره، فإنه ابن رسول اللّه وسبطه، والمنصوص عليه بالإمامة من جده رسول اللّه ﷺ لقوله: «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»[٣]. أي سواء قاما بأعباء الخلافة أو غُصبتْ عنهما. إلى أن اجتمع عند الحسن اثنا عشر ألف كتاب من أهل العراق وكلها مضمون واحد، كتبوا إليه: قد أينعت الثمار واخضرّ الجناب، وإنما تقدم على جُند لك مجندة، وإن لك في الكوفة مائة ألف سيف، إذا لم تقدم إلينا فإنا نخاصمك غداً بين يدي اللّه. فأرسل الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة، فلما دخل مسلم الكوفة اجتمع الناس حوله وبايعوه لأنه سفير الحسين وممثّله فبايعه ثمانية عشر ألفاً، أو أربعة وعشرون ألفاً. وكتب مسلم إلى الحسين يُخبره ببيعة الناس ويطلب منه التعجيل بالقدوم، فلما علم يزيد ذلك أرسل عبيد اللّه بن زياد إلى الكوفة، فدخل ابن زياد الكوفة وأرسل إلى رؤساء العشائر والقبائل يهددهم بجيش الشام ويطمعهم. فجعلوا يتفرّقون عن مسلم شيئاً فشيئاً، إلى أن بقي مسلم وحيداً، فأضافته امرأة فطوّقوا الدار التي كان فيها، وخرج مسلم، واشتعلت نار الحرب، وقتل مسلم منهم مقتلة عظيمة، وألقي عليه القبض يوم عرفة وضربوا عنقه، وجعلوا يسحبونه في الأسواق والحبل في رجليه. وخرج الحسين من مكة نحو العراق يوم الثامن من ذي الحجة، ومنعه عن التوجه نحو العراق عبد اللّه بن العباس «حَبر الأمة» فقال له

(١) **فاجعة الطف**، ص ٤ **مقتل الحسين** (ع)، عبد الرزاق الموسوي المقرّم، دار الكتاب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط ٥ لعام ١٩٧٩، ص ١٢٦ و ١٢٧.

(٢) **فاجعة الطف**، ص ٥.

(٣) **فاجعة الطف**، ص ٦، **مقتل الحسين** (ع)، ص ١٦٥ ـ ١٩٣.

الحسين: يابن عباس، إن رسول الله أمرني بأمر أنا ماضٍ فيه.

فقال: بماذا أمرك جدّك؟

فقال الحسين: أتاني جدي في المنام وقال: يا حسين اخرج إلى العراق فإن الله شاء أن يراك قتيلاً.

فقال ابن عباس: إذن فما معنى حملك هؤلاء النساء معك؟

فقال الحسين: هنّ ودائع رسول الله ولا آمن عليهنّ أحداً، وهنّ أيضاً لا يفارقنني.

وخرج الحسين قاصداً الكوفة، وفي أثناء الطريق التقت به سرية من الجيش تتكوّن من ألف فارس بقيادة الحرّ الرياحي، وأرادوا إلقاء القبض على الحسين وإدخاله الكوفة على ابن زياد، إلاّ أن الحسين امتنع من الانقياد لهم، فتمّ القرار على أن يسلك الحسين طريقاً لا يدخله الكوفة ولا يردّه إلى المدينة، فوصل إلى أرض كربلاء فنزل فيها[١].

وقام ابن زياد خطيباً في الكوفة وقال: مَن يأتني برأس الحسين فله الجائزة العظمى، وأعطه عشر سنوات[٢]. فقام عمر بن سعد بن أبي وقّاص وقال: أنا.

فعقد له راية في أربعة آلاف رجل، وأصبح الصباح، وأول راية سارت نحو كربلاء راية عمر بن سعد، ولم تزل الرايات تترى حتى تكاملوا في اليوم التاسع من المحرّم ثلاثين ألفاً، أو خمسين ألفاً، أو أكثر من ذلك. وحالوا بين الحسين وأهل بيته وبين ماء الفرات من اليوم السابع من المحرم، ولما كان اليوم التاسع اشتدّ بهم العطش، واشتدّ الأمر بالمراضع والأطفال الرُضّع. قالت سكينة بنت الحسين:

ـ عزّ ماؤنا ليلة التاسع من المحرّم فجفّت الأواني ويبست الشفاه حتى صرنا نتوقع الجرعة من الماء فلم نجدها، فقلت في نفسي أمضي إلى عمتي زينب لعلّها ادّخرت لنا شيئاً من الماء، فمضيت إلى خيمتها فرأيتها جالسة وفي حجرها أخي عبد الله الرضيع وهو يلوك بلسانه من شدة العطش وهي تارة تقوم وتارة تقعد، فخنقتني العَبرة فلزمت السكوت، فقالت عمتي:

ـ ما يبكيك؟

---

(١) **مقتل الحسين**، ص ١٦٥ ـ ١٩٣.

(٢) المصدر السابق، ص ١٩٨ ـ ١٩٩.

قلت: حال أخي الرضيع أبكاني.

ثم قلت: عمّتاه قومي لنمضِ إلى خيم عمومتي لعلّهم ادّخروا شيئاً من الماء.

فمضينا واخترقنا الخيم بأجمعها فلم نجد عندهم شيئاً من الماء، فرجعت عمّتي إلى خيمتها فتبعتها وتبعنا من نحو عشرين صبياً وصبية، وهم يطلبون منها الماء، وهم ينادون:

ـ العطش... العطش.

وآخر راية وصلت إلى كربلاء راية شمر بن ذي الجوشن في ستة آلاف مساء يوم التاسع، ومعه كتاب من ابن زياد إلى ابن سعد، فيه: فإن نزل الحسين وأصحابه على حكمي واستسلموا فابعث بهم إليّ سلماً، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم، (....) ... إلخ[1]. فزحف الجيش نحو خيام الحسين عند المساء بعد العصر، واقترب نحو خيم الحسين، والحسين جالس أمام خيمته، إذ خفق برأسه على ركبتيه، وسمعت أخته زينب الكبرى بنت أمير المؤمنين الصيحة فدنت من أخيها وقالت: يا أخي أما تسمع هذه الأصوات قد اقتربت؟

فرفع الحسين رأسه وقال أُخية: أتاني رسول اللّه الساعة في المنام فقال لي: إنك تروح إلينا.

فلطمت أخته وجهها وصاحت: واويلاه.

فقال لها الحسين: ليس الويل لك يا أُخية، ولا تُشمتي القوم بنا، اسكتي رحمك اللّه.

فقال العباس بن علي: يا أخي قد أتاك القوم فانهض.

فنهض ثم قال: يا عباس اركب أنت يا أخي حتى تلقاهم وتقول لهم: ما لكم وما بدا لكم؟ وما تريدون؟

فأتاهم العباس في نحو عشرين فارساً، فقال لهم العباس:

ـ ما بدا لكم، وما تريدون؟

قالوا: قد جاء أمر الأمير أن نعرض عليكم أن تنزلوا على حكمه أو نُناجزكم.

فرجع العباس إلى الحسين وأخبره بمقال القوم، فقال الحسين:

ـ ارجع إليهم، فإن استطعت أن تؤخرهم إلى غد، فتدفعهم عنا العشية لعلنا نُصلّي لربنا

(١) **فاجعة الطف**، ص ٦ ـ ١١ .**مقتل الحسين**، ص ٢٠٧ ـ ٢١٠.

الليلة، وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أني قد كنت أُحب الصلاة له وتلاوة كتابه.

فمضى العباس إلى القوم وسألهم ذلك، فأبوا أن يمهلوهم، فقال عمرو بن الحجاج الزبيدي:

ـ ويلكم واللّه لو أنهم من التُرك والديلم وسألونا مثل ذلك لأجبناهم فكيف وهم من آل محمد؟![1]

وبات الإمام الحسين وأصحابه وأهل بيته ليلة عاشوراء، ولهم دويّ كدوي النحل، ما بين قائم وقاعد وراكعٍ وساجد. وجمعهم الحسين وقام فيهم خطيباً وقال:

ـ أما بعد فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي ولا أهل بيتٍ أبرّ ولا أوصل ولا أفضل من أهل بيتي، فجزاكم اللّه جميعاً عني خيراً، فلقد بررتم وعاونتم، ألا: وإني قد أذنت لكم فانطلقوا جميعاً في حل من بيعتي ليس عليكم مني حرج ولا ذمام، وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، وتفرّقوا في سواد هذا الليل، وذروني وهؤلاء القوم، فإنهم لا يريدون غيري.

فقال له أخوته وأبناؤه وأبناء عبد اللّه بن جعفر:

ـ ولم نفعل ذلك؟ لنبقى بعدك؟ لا أرانا اللّه ذلك أبداً.

وتكلم أخوته وجميع أهل بيته فقالوا:

ـ يا بن رسول اللّه: فما يقول لنا الناس وماذا نقول لهم؟ نقول: إنا تركنا شيخنا وكبيرنا وابن بنت نبيّنا لم نرم معه بسهم، ولم نطعن معه برمح، ولم نضرب معه بسيف لا واللّه يابن رسول اللّه لا نفارقك أبداً، ولكنّ نقيك بأنفسنا حتى نُقتل بين يديك ونَرِدَ موردك، فقبّح اللّه العيش بعدك.

ثم قام مسلم بن عوسجة وقال:

ـ نحن نخلّيك هكذا وننصرف عنك وقد أحاط بك العدو؟ لا واللّه لا يراني اللّه وأنا أفعل ذلك حتى أكسر في صدورهم رمحي، وأضاربهم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي ولو لم يكن لي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة، ولا أفارق حتى أموت معك.

وقام سعد بن عبد اللّه الحنفي فقال:

---

(١) **مقتل الحسين،** ص ٢١١، ٢١٢.

ـ لا واللّه يا بن رسول اللّه لا نخليك أبداً حتى يعلم اللّه أنا قد حفظنا فيك وصية رسوله محمد (صلى اللّه عليه وسلم)، ولو علمت أني أُقتل فيك ثم أُحيى، ثم أُحرق حياً، ثم أُذرى ويُفعل ذلك بي سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك، وكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة، ثم أنال الكرمة التي لا انقضاء لها أبداً؟؟

ثم قام زهير بن القين فقال:

ـ واللّه يا بن رسول اللّه لوددت أني قُتلت ثم نُشرت ألف مرة وإن اللّه قد دفع القتل عنك وعن هؤلاء الفِتية من أخوتك ووُلدك وأهل بيتك.

وقام الأصحاب وتكلموا بما تكلموا، فلما رأى الحسين ذلك منهم قال لهم: إن كنتم كذلك فارفعوا رؤوسكم وانظروا إلى منازلكم.

فكشف لهم الغطاء ـ بإذن اللّه ـ ورأوا منازلهم وقُصورهم، فقال لهم الحسين:

ـ يا قوم إني غداً أُقتل وتقتلون كلكم معي، ولا يبقى منكم واحد.

فقالوا: الحمد للّه الذي أكرمنا بنصرك، وشرّفنا بالقتل معك، أو لا ترض أن نكون في درجتك يابن رسول اللّه؟

فقال: جزاكم اللّه خيراً.

فقال له القاسم ابن الإمام الحسن المجتبى: وأنا في مَن يُقتل؟

فأشفق عليه الحسين وقال: يا بنيّ كيف الموت عندك؟

قال: يا عمّ فيك أحلى من العسل.

فقال الحسين: إي واللّه ـ فداك عمّك ـ إنك لأحد من يُقتل من الرجال معي، بعد أن تبلو بلاءً حسناً، ويُقتل ابني عبد اللّه[1].

فقال: يا عمّ ويصلون إلى النساء حتى يُقتل وهو رضيع؟

فقال الحسين: أحمله لأُدنيه من فمي فيرميه فاسق فينحره.

ثم قال الحسين: ألا ومَن كان في رحله امرأة فلينصرف بها إلى بني أسد.

فقام عليّ بن مظاهر وقال: لماذا يا سيدي؟

(١) المصدر السابق، ص ٢١٢ ـ ٢١٥.

فقال: إن نسائي تُسبى بعد قتلي، وأخاف على نسائكم من السبي.

فمضى عليّ بن مظاهر إلى خيمته فقامت زوجته واستقبلته وتبسّمت في وجهه فقال لها: دعيني والتبسّم.

فقالت: يابن مظاهر إني سمعت غريب فاطمة خطب فيكم خطبة وسمعت في آخرها همهمة ودمدمة فما علمت ما يقول؟

قال: يا هذه إن الحسين قال لنا: ألا ومَن كان في رحله امرأة فليذهب بها إلى بني أسد، لأني غداً أُقتل ونسائي تُسبى.

فقالت: وما أنت صانع؟

قال: قومي حتى أُلحقك بني عمّك.

فقامت ونطحت رأسها بعمود الخيمة، وقالت: واللّه ما أنصفتني يا بن مظاهر أيسرّك أن تُسبى بنات رسول اللّه وأنا آمنة من السبي؟ أيسرّك أن يبيضّ وجهك عند رسول اللّه ويسود وجهي عند فاطمة الزهراء؟ واللّه أنتم تواسون الرجال ونحن نواسي النساء.

فرجع علي بن مظاهر إلى الحسين وهو يبكي فقال الحسين:

ـ ما يُبكيك؟

قال ـ يا سيدي أبَت الأسدية إلاّ مواساتكم.

فبكى الحسين وقال: جُزيتم منّا خيراً.

فلما أصبح الصباح من يوم عاشوراء نادى الحسين أصحابه وأمرهم بالصلاة، فتيمموا بدلاً عن الوضوء وصلى بأصحابه صلاة الصبح ثم قال:

ـ اللّهم أنت ثقتي في كل كربٍ وأنت رجائي في كل شدة، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعُدة، كم من كربٍ يضعف فيه الفؤاد وتقل فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو، أنزلته بك وشكوته إليك رغبة مني إليك عمّن سواك، ففرّجته عني، وكشفته، فأنت وليّ كل نعمة؛ وصاحب كل حسنة ومنتهى كل رغبة.

ثم نظر إلى أصحابه وقال:

ـ إن اللّه قد أذن في قتلكم وقتلي؛ وكلكم تُقتلون في هذا اليوم إلاّ ولدي عليّ بن الحسين «أي زين العابدين» فاتقوا اللّه واصبروا.

وأصبح عمر بن سعد ذلك اليوم وخرج بالناس، وجعل على ميمنة العسكر عمرو بن الحجّاج الزبيدي؛ وعلى الميسرة شمر بن ذي الجوشن، وعلى الخيل عروة بن قيس، وعلى الرجّالة شبث بن ربعي، وأعطى الراية دُريداً غلامه.

ودعى الحسين بفرس رسول اللّه «ص» المرتَجز، وعبأ أصحابه، وكان معه اثنان وثلاثون فارساً، وأربعون راجلاً، وقيل: أكثر من ذلك، فجعل زهير بن القين في ميمنة أصحابه، وحبيب ابن مظاهر في الميسرة، وأعطى رايته أخاه العباس، وجعلوا البيوت والخِيَم في ظهورهم؛ وأمر بحطب وقَصَب أن يترك في خندق عملوه في ساعة من ورائهم، وجعلوا جبهة القتال جهة واحدة، فغضب الأعداء بأجمعهم، فنادى شمر بأعلى صوته:

- يا حسين أتعجّلت النار قبل يوم القيامة؟

فقال الحسين: مَن هذا، كأنه شمر؟

فقالوا: نعم.

فقال: بابن راعية المعزى أنت بها صلياً.

ثم تقدم الحسين نحو القوم في نفرٍ من أصحابه وبين يديه بُرير بن خضير الهمداني، فقال له الحسين: كلّم القوم.

فتقدم بُرير وقال:

- يا قوم اتقوا اللّه فإن ثِقْل محمد «ص» قد أصبح بين أظهركم، هؤلاء ذرّيته وعترته وبناته وحرمه، فهاتوا ما عندكم وما الذي تريدون أن تصنعوه؟

فقالوا: نُريد أن نُمكّن منهم الأمير عبيد اللّه بن زياد فيرى رأيه فيهم.

فقال بُرير: أفلا تَقبلون منهم أن يرجعوا إلى المكان الذي جاؤوا منه؟ ويلكم يا أهل الكوفة أنسيتم كُتبكم وعهودكم التي أعطيتموها وأشهدتم اللّه عليها؟! ويلكم أدعوتم أهل بيت نبيّكم وحَلأتموهم عن ماء الفرات؟! بئس ما خلّفتم نبيّكم في عترته، ما لكم لا سقاكم اللّه يوم القيامة، فبئس القوم أنتم.

فقال نفر منهم: ما ندري ما تقول.

فقال بُرير: الحمد للّه الذي زادني فيكم بصيرة، اللّهم إني أبرأ إليك من فِعال القوم، اللّهم ألق بأسَهم بينهم حتى يَلقوك وأنت عليهم غضبان.

فجعل القوم يرمونه بالسهام فرجع بُرير إلى ورائه، فتقدم الحسين نحو القوم، ونادى بأعلى صوته: يا أهل العراق ـ وكلهم يسمعون.

فقال: أيها الناس اسمعوا قولي ولا تَعجلوا حتى أعظكم بما يحقّ لكم عليّ، وحتى أعذر إليكم، فإن أعطيتموني النصف كنتم بذلك سعداء وإن لم تعطوني النصف من أنفسكم فأجمعوا رأيكم ثم لا يكن أمركم عليكم غُمة ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون، إن وليّي اللّه الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين.

ثم حمِدَ اللّه وأثنى عليه وذكره بما هو أهله، وصلى على النبي وآله وعلى الملائكة والأنبياء، فلم يُسمع متكلم قط ولا بعده أبلغ منه في المنطق.

ثم قال: أما بعد يا أهل الكوفة فانسبوني فانظروا مَن أنا، ثم راجعوا أنفسكم فعاتبوها فانظروا هل يصلُح لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيّكم وابن وصيّه وابن عمّه وأول مُصدّقٍ لرسول اللّه «ص» بما جاء به من عند ربه؟ أو ليس حمزة سيد الشهداء عم أبي؟ أو ليس جعفر الطيّار في الجنة بجناحين عمّي؟ أو لم يبلُغكم ما قال رسول اللّه لي ولأخي: «اهذان سيّدا شباب أهل الجنة».

فإن صدّقتموني بما أقول وهو الحق، واللّه ما تعمّدت كذباً منذ علمت أن اللّه يمقت عليه أهله، وإن كذبتموني فإن فيكم مَن إن سألتموه عن ذلك أخبركم، سَلُوا جابر بن عبد اللّه الأنصاري، وأبا سعيد الخدري، وسهل بن سعد الساعدي، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك يُخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول اللّه لي ولأخي... أما هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟ يا قوم فإن كنتم في شكٍ من ذلك، أفتشكّون أني ابن بنت نبيّكم فواللّه ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم ولا في غيركم، ويحكم! أتطالبوني بقتيل منكم قتلته، أو مالٍ استملكته، أو بقصاص من جراح؟؟

فأخذوا لا يكلّمونه، ونادى بأعلى صوته فقال:

ـ أُنشدكم اللّه هل تعرفونني؟

قالوا: نعم أنت ابن رسول اللّه وسبطه.

فقال: أُنشدكم اللّه هل تعلمون أن جدي رسول اللّه؟

قالوا: اللّهم نعم.

قال: أُنشدكم اللّه هل تعلمون أن أبي علي بن أبي طالب؟

قالوا: اللّهم نعم.

قال: أُنشدكم اللّه هل تعلمون أن أمي فاطمة بنت رسول اللّه؟

قالوا: اللّهم نعم.

قال: أنشدكم اللّه هل تعلمون أن جدتي خديجة بنت خويلد أول نساء هذه الأمة إسلاماً؟

قالوا: اللّهم نعم.

قال: أنشدكم اللّه هل تعلمون أن حمزة سيّد الشهداء عمّ أبي؟

قالوا: اللّهم نعم.

قال: أُنشدكم اللّه هل تعلمون أن جعفر الطيّار في الجنة عمي؟

قالوا: اللّهم نعم.

قال: أنشدكم اللّه هل تعلمون أن هذا سيف رسول اللّه أنا مُتقلده؟

قالوا: اللّهم نعم.

قال: أنشدكم اللّه هل تعلمون أن هذه عمامة رسول اللّه أنا لابسها؟

قالوا: اللّهم نعم.

قال: أنشدكم اللّه هل تعلمون أن علياً كان أول القوم إسلاماً وأعلمهم علماً وأعظمهم حلماً، وأنه وليّ كل مؤمن ومؤمنة؟

قالوا: اللّهم نعم.

قال: فَبِمَ تستحلّون دمي وأبي الذائد عن الحوض يذودُ عنه رجالاً كما يُذاد البعير الصادر عن الماء، ولواء الحمد في يد أبي يوم القيامة؟!

قالوا: قد علمنا ذلك كله ونحن غير تاركيك كي تذوق الموت عطشاناً.

فلما خطب بهذه الخطبة وسمعت بناته وأخته زينب كلامه بكينَ وندبن ولطمن خدودهن، وارتفعت أصواتهن، فوجّه إليهن أخاه العباس وابنه عليّاً، وقال لهما: أسكتاهنّ فلعمري ليكثرن بكاؤهن.

وذكر السيد ابن طاوس خطبة أخرى للحسين قال:

ـ فركب الحسين ناقته، وقيل: فرسه، فاستنصتهم فأنصتوا[1].

وفي رواية: (...) فأبوا أن يُنصتوا حتى قال:

ـ ويلكم ما عليكم أن لا تنصتوا لي فتسمعوا قولي، وإنما أدعوكم إلى سبيل الرشاد، فمن أطاعني كان من المرشدين ومَن عصاني كان من المهلكين، وكلكم عاصٍ لأمري غير مستمع قولي فقد مُلئت بطونكم من الحرام وطُبع على قلوبكم، ويلكم! ألاَ تُنصفون ألاَ تسمعون؟ ألا تنصتون؟ فتلاوم القوم وقالوا أنصتوا له فأنصتوا. فحمد اللّه وأثنى عليه وذكره بما هو أهله، وصلّى على محمد وآله وعلى الملائكة والأنبياء والرسل، وأبلغ في المقال ثم قال:

ـ تباً لكم أيتها الجماعة وترحاً حين استصرختمونا والهين فأصرخناكم مُوجفين، سللتُم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدوّنا وعدوّكم، فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم بغير عدل أفشوه فيكم ولا أملٍ أصبح لكم فيهم؛ فهلا لكم الويلات؟ تركتمونا والسيف مَشيم والجأش طامن، والرأي لما يستحصف ولكن أسرعتم إليها كطير الدبا وتداعيتم إليها كتداعي الفراش، فسحقاً لكم يا عبيد الأمة، وشذاذ الأحزاب؛ ونبذة الكتاب ومُحرّفي الكلم، وعُصبة الآثام، ونفثة الشيطان ومطفئي السنن. أهؤلاء تعضُدون؟ وعنّا تتخاذلون؟ أجل واللّه غدرٍ فيكم قديم، وشجتْ إليه أُصولُكم، وتأزّرت عليه فروعكم، فكنتم أخبث ثمر شجا للناظر وأُكلة للغاصب، ألا وإن الدعيّ قد ركّز بين اثنتين: بين السِلّة والذلّة وهيهات منّا الذلّة، يأبى اللّه ذلك لنا ورسوله، وحجور طابت وجدود طهرت وأنوف حمية ونفوس أبية من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام، ألا وإني زاحف بهذه الأسرة مع قلة العدد وخذلان الناصر...

ثم قال:

فإن نهزم فهزّامون قِدماً ... وإن نغلب فغير مُغلبينا
وما إن طِبنا جُبن ولكن ... منايانا ودولة آخرينا
إذا ما الموت رفع عن أُناسٍ ... كلاكله أناخَ بآخرينا
فأفنى ذلكم سروات قومي ... كما أفنى القرون الأولينا
فلو خلد الملوك إذن خلدنا ... ولو بقي الكرام إذن بقينا

(١) المصدر السابق، ص ١١ ـ ٢٦.

ثم ايمُ اللّه لا تلبثون بعدها إلاّ كريث ما يركب الفرس حتى تدور الرحى وتقلق بكم قلق المحور، عهد عهده إليّ أبي عن جدي، فأجمعوا أمركم وشركاءكم، ثم لا يكون أمركم عليكم غُمة ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون إنّي توكلت على اللّه ربي وربكم ما من دابة إلاّ هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم. اللّهم احبس عنهم قطر السماء، وابعث عليهم سنين كسنيّ يوسف، وسلّط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كأساً مصبّرة، فإنهم كذّبونا وخذلونا وأنت ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.

وخطب فيهم خطبة أخرى، وأتمّ عليهم الحجّة فما أفاد فيهم الكلام ثم أناخ راحلته، ودعى بفرس رسول اللّه «ص» المرتجز فركبه، فعند ذلك تقدم عمر بن سعد وقال:

ـ يا دُريد أدنِ رايتك.

ثم أخذ سهماً ووضعه في كبد القوس، وقال:

ـ اشهدوا لي عند الأمير فأنا أول مَن رمى الحسين.

فأقبلت السهام من القوم كأنها شآبيب المطر، فقال الحسين لأصحابه:

ـ قوموا رحمكم اللّه فإن هذه السهام رُسُل القوم إليكم.

فاقتتلوا ساعة النهار حملة وحملة، فلما انجلت الغُبرة وإذا بخمسين من أصحاب الحسين صَرعى، فعند ذلك ضرب الحسين بيده على لحيته الكريمة وقال:

ـ اشتد غضب اللّه على اليهود إذ جعلوا له ولداً، واشتدّ غضبه على النصارى إذ جعلوه ثالث ثلاثة، واشتدّ غضبه على المجوس إذ عبدوا الشمس والقمر، واشتدّ غضبه على قوم اتّفقت كلمتهم على قتل ابن بنت نبيّهم، أما واللّه لا أجيبهم إلى شيء مما يريدون حتى ألقى اللّه وأنا مخضّب بدمي [1].

(...) ثم جعل أصحاب الحسين يبرزون واحداً بعد واحد... إلخ. (...) حتى قال رجل من أهل الكوفة يصفهم:

ـ ثارت علينا عصابة أيديها على مقابض سُيوفها، كالأسود الضارية تحطّم الفرسان يميناً وشمالاً، وتلقي أنفسها إلى الموت، ولا تقبل الأمان، ولا ترغب في المال، ولا يحول حائل بينها وبين الورود على حياض المنية، والاستيلاء على الملك، فلو كففنا عنها رُويداً لأتت على نفوس العسكر بحذافيرها.

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٦ ـ ٣٠.

ونعم ما قيل حقهم:

قومٌ إذا نُودوا لدفع مُلمّة والخيل بين مُدعّس ومُكردس
لبسوا القلوب على الدروع وأقبلوا يتهافتون على ذهاب الأنفس(١)

ونادى أصحاب عمر بن سعد ـ مستبشرين:

ـ قد قتلنا مسلم بن عوسجة، فصاحت جارية له:

ـ واسيّداه يابن عوسجتاه.

فلما سمع ابنه ذلك دخل على أمّه وهو يبكي فقالت:

ـ ما يبكيك؟

قال: أُريد الجهاد.

فقامت أمه وشدّت سيفاً في وسطه، وقالت:

ـ أبرز يا بني فإنك تجد رمحاً مطروحاً بين أطناب المخيم.

فخرج وأراد حمل الرمح فلم يتمكن، وجعل يسحبه على الأرض سحباً، فبصُرَ به الحسين فقال:

ـ إن هذا الشاب قد قتل أبوه في المعركة وأخاف أمه تكره برازه.

فقال الغلام: يا سيدي إن أمي ألبستني لامة حربي فبرز مرتجزاً:

أميري حسين ونعم الأمير سُرور فؤاد البشير النذير
عليّ وفاطمة والداه فهل تعلمون له من نظير
له طلعةٌ مثلُ شمس الضحى له غُرّةٌ مثل بدرٍ مُنير

فقاتل حتى قُتل فاحتزوا رأسه، ورموا بالرأس نحو معسكر الحسين، فأخذت أمه رأسه وقالت:

ـ أحسنت يا بُني يا سرور قلبي يا قُرّة عيني.

ثم رمت برأس ولدها وأخذت عمود الخيمة وحملت عليهم وهي تقول:

أنا عجوز سيدي ضعيفة خاوية بالية نحيفه

(١) المصدر السابق، ص ٣٠ ـ ٣١.

أضــربــكــم بــضــربــة عــنــيــفــة   دون بــنــي فــاطــمــة الــشــريــفــه

فأمر الحسين بصرفها ودعا لها.....إلخ[1].

ثم برز وهب بن عبد اللّه الكلبي، وكان نصرانياً ومعه أمه وزوجته فأسلموا على يد الحسين في أثناء الطريق ورافقوه إلى كربلاء، فأقبلت أمه وقالت:

ـ يا بُنيّ قُم وانصر ابن بنت رسول اللّه.

فقال: أفعل يا أماه ولا أقصّر.

فبرز وهو يقول:

إن تــنــكــرونــي فــأنــا ابــن الــكــلــبــي   ســوف تــرونــي وتــرون ضــربــي

وســطــوتــي وجــولــتــي فــي الــحــرب

فقتل جماعة منهم، ثم رجع إلى أمه وقال:

ـ يا أماه أرضيت عنّي؟

فقالت: ما رضيت حتى تُقتل بين يدي الحسين.

فقالت امرأته: باللّه عليك لا تُفجعني في نفسك.

فقالت أمه: أُغرب عنها ولا تقبل قولها، وارجع وقاتل بين يدي ابن رسول اللّه تَنل شفاعة جدّه يوم القيامة.

فرجع فلم يزل يقاتل حتى قتل تسعة عشر فارساً وعشرين راجلاً، ثم قطعت أصابع يده، وأخذت امرأته عموداً وأقبلت نحوه تقول:

ـ فداك أبي وأمي! قاتل دون الطيبين حرم رسول اللّه.

فأقبل كي يردّها إلى النساء فأخذت بجانب ثوبه، وقالت:

ـ لن أعود، أو أموت معك.

فقال لها: كنت تنهينني عن القتال والآن تحرضينني؟

قالت: يا وهب لقد عِفتُ الحياة منذ سمعت نداء الحسين ينادي واغربتاه واقلة ناصراه، أما مِن ذابّ يذبّ عنّا؟ أما مِن مجير يُجيرنا؟

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٦ ـ ٣٧.

ثم استعان وهب بالحسين وقال سيدي رُدّها، فقال الحسين:

ـ جُزيتم من أهل بيت خيراً، ارجعي إلى النساء يرحمك اللّه.

فانصرفت، وقتل وهب ورموا برأسه إلى عسكر الحسين، فأخذت أمه الرأس فقبّلته وجعلت تمسح الدم عن وجهه وهي تقول:

ـ الحمد اللّه الذي بيّض وجهي بشهادتك ـ يا ولي ـ بين يدي أبي عبد اللّه الحسين.

ثم رمت الرأس وأخذت عمود الخيمة فقال لها الحسين:

ـ ارجعي يا أم وهب أنتِ وابنك مع رسول اللّه «ص».

فذهبت امرأته تمسح الدم والتراب عن وجهه وهي تقول:

ـ هنيئاً لك الجنة.

فبصُر بها شمر فأمر غلامه فضربها بعمود فقتلها، وهي أول امرأة قُتلت في عسكر الحسين..... إلخ[1]. وأقبل جَون مولى أبي ذر الغفاري يستأذن في القتال، فقال الحسين:

ـ يا جَون أنت في إذن مني فإنما تبعتنا طلباً للعافية، فلا تبتَل بطريقتنا.

فقال جَون: يابن رسول اللّه أنا في الرخاء ألمَسُ قُصاعكم وفي الشدّة أخذلك؟! واللّه إن ريحي لنتن، وإن حَسبي للئيم وإن لوني لأسود، فتنفس عليّ بالجنة فتطيب ريحي ويَشرف حَسبي ويبيّض وجهي، لا واللّه لا أفارقكم حتى يختلط هذا الدم الأسود مع دمائكم.

فأذن له الحسين فبرز يرتجز ويقول:

كيف يرى الكفّار ضرب الأسودِ ... بالمشرفيّ والقنا المسدّدِ

يذبّ عن آل النبيّ أحمد ... يذبُ عنهم باللسانِ واليَدِ

فقتل خمساً وعشرين رجلاً ثم قُتل، فوقف عليه الحسين وقال:

ـ اللّهم بيّض وجهه وطيّب ريحه، واحشره مع الأبرار، وعرّف بينه وبين محمد وآل محمد.

وخرج غلام تُركي وهو يقول:

البحر من طَعني وضربي يَصطلي ... والجوّ مِن نَبلي وسهمي يمتلي

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٧ ـ ٤٠.

إذا حُسامي في يميني يَنجلي ‍ ‍ يَنشقّ قلبُ الحاسد المبخلِ

فقتل جماعة ثم سقط فجاءه الحسين وبه رَمق يوميء إلى الحسين، فبكى الحسين واعتنقه ووضع خدّه على خدّه، ففتح الغلام عينيه، وتبسّم وفاضت نفسه.... إلخ[1].

فعند ذلك وصلت النوبة إلى بني هاشم، وأول مَن قتل منهم عليّ بن الحسن الأكبر، وأمه ليلى، وفيه يقول الشاعر:

لم تر عينٌ نظرت مثله ‍ ‍ من محتفٍ يمشي ومن ناعلِ
أعني ابن ليلى ذا السدى والندى ‍ ‍ أعني ابن بنت الشرف الفاضلِ
لا يؤثر الدنى على دينه ‍ ‍ ولا يبيع الحق بالباطلِ

وكان من أصبح الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً وخُلقاً، فاستأذن أباه في القتال فنظر إليه الحسين نظر آيس منه، وأرخى عينيه وبكى، ورفع سبابتيه، أو شيبته الشريفة نحو السماء وقال:

ـ اللّهم اشهد على هؤلاء القوم برز إليهم غلام أشبه الناس خلقاً وخُلقاً ومنطقاً برسولك، وكنّا إذا اشتقنا إلى نبيّك نظرنا إلى وجه هذا الغلام، اللّهم امنعهم بركات الأرض وفرّقهم تفريقاً ومزّقهم تمزيقاً، واجعلهم طرائق قدداً ولا تغفر لهم أبداً، ولا تُرضي الولاة عنهم أحداً، فإنهم دعونا لينصرونا ثم عدوا علينا يقاتلوننا.

ثم صاح:

ـ يابن سعد ما لك؟ قطع اللّه رحمك ولا بارك اللّه في أمرك، وسلّط عليك مَن يذبحك بعدي على فراشك، كما قطعت رَحمي ولم تحفظ قرابتي من رسول اللّه.

ثم رفع صوته وتلى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[2]. فحمل عليّ الأكبر على القوم وهو يقول:

أنا عليّ بن الحسين بن علي ‍ ‍ نحن وبيت اللّه أولى بالنبي
أطعنكم بالرمح حتى ينثني ‍ ‍ أضربكم بالسيف أحمي عن أبي
ضرب غلام هاشميّ علويّ ‍ ‍ واللّه لا يحكم فينا ابن الدعي

فشدّ على الناس وقتل منهم خلقاً كثيراً حتى ضجّ الناس من كثرة من قُتل، فروي أنه قتل مائة وعشرين رجلاً، فرجع إلى أبيه وقد أصابته جراحات كثيرة يقول:

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٤ ـ ٤٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٣.

- يا أبه العطش قد قتلني وثقل الحديد قد أجهدني، فهل إلى شربة من الماء سبيل أتقوّى بها على الأعداء؟

يشكو لخير أبٍ ظماه وما اشتكى	ظمأ الحشا إلاّ إلى الظامىء الصدي
كلٌ حشاشته كصالية الغضا	ولسانه ظمأ كشقة مبردِ

فبكى الحسين وقال:

- واغوثاه يا بني، يعزّ على محمد المصطفى وعلى عليّ المرتضى وعليّ أن تدعوهم فلا يجيبوك وتستغيث بهم فلا يغيثوك، يا بني قاتل قليلاً، فما أسرع أن تلقى جدّك محمداً «ص» فيسقيك بكأسه الأولى شربة لا تظمأ بعدها أبداً، يا بنيّ هات لسانك.

فأخذ لسانه فمصّه، وأعطاه خاتمه وقال:

- امسكه في فمك وارجع إلى عدوّك، فإني أرجو أن لا تُمسي حتى يسقيك جدّك، ولدي عُد بارك اللّه فيك.

فرجع مرتجزاً:

الحرب قد بانت لها حقائق	وظهرت من بعضها مصادق
واللّه رب العرش لا نفارق	جموعكم أو تغمد البوارق

ولم يزل يقاتل حتى قتل تمام المائتين، فضربه مُرّة بن منقذ العبدي ضربة صرعته، وضربه الناس بأسيافهم فاعتنق فرسه فاحتمله الفرس إلى معسكر الأعداء فقطّعوه بسيوفهم إرباً إرباً، فلما بلغت روحه التراق نادى رافعاً صوته:

- أبه هذا جدّي رسول اللّه قد سقاني بكأسه الأوفى شربة لا ظمأ بعدها أبداً، وهو يقول:

- العجل العجل فإن لك كأساً مذخورة تشربها الساعة.

فجاءه الحسين ورفع صوته بالبكاء ولم يسمع أحد إلى ذلك الزمان صوت الحسين بالبكاء، فقال:

- قتل اللّه قوماً قتلوك، ما أجرأهم على الرحمن وعلى انتهاك حرمة الرسول، أما أنت يا بني فقد استرحت من هَم الدنيا وغمومها، وسرت إلى روح وريحان وجنّة ورضوان وبقي أبوك لهمّها وغمّها، فما أسرع لحوقه بك، ولدي على الدنيا بعدك العفا.

ابـنـيّ هـل لـك عـودةٌ حـتـى أقـول مـسـافـرُ
كـنـت الـسـواد لـنـاظـري فـعـلـيـك يـبـكـي الـنـاظـرُ
مـن شـاء بـعـدك فـلـيـمـتْ فـعـلـيـك كـنـتُ أحـاذرُ
فـإذا نـطـقـتُ فـمـنـطـقـي بـجـمـيـل وصـفـك ذاكـرُ
وإذا سـكـتُّ فـإن فـي بـالـي خـيـالـك خـاطـرُ

❁ ❁ ❁

يـا كـوكـبـاً مـن كـان أقـصـر عـمـره وكـذاك عـمـر كـواكـب الأسـحـار

❁ ❁ ❁

فعند ذلك خرجت زينب الكبرى من الخيام مسرعة وهي تنادي:

ـ واولداه؛ وامهجة قلباه؛

فجاءت وانكبت عليه، فجاء الحسين وأخذ بيدها وردّها إلى الفسطاط، ثم نادى:

ـ يا فتيان بني هاشم هلّموا واحملوا أخاكم إلى الفسطاط.

فجاء القاسم بن الحسن وهو غلام لم يبلغ الحُلم فقال:

ـ يا عم أعطني الإجازة لأمضي إلى هؤلاء الكفرة؟

فقال الحسين: يابن أخي أنت من أخي علامة وأريد أن تبقى لي لأتسلى بك.

فلم يزل القاسم يُقبّل يديه ورجليه حتى أذن له، فقال الحسين:

ـ يا بني أتمشي برجلك إلى الموت؟

فقال: يا عم وكيف لا؟ وأنت بين الأعداء بقيت وحيداً فريداً لم تجد محامياً.

فأركبه الحسين على فرسه فخرج القاسم ودموعه تسيل على خديه وهو يقول:

إن تـنـكـروني فـأنـا نـجـل الـحَـسـن سـبـط الـنـبـي الـمـصـطـفـى الـمـؤتـمَـن
هـذا حـسـيـن كـالأسـيـر الـمـرتـهـن بـيـن أنـاس لا سُـقـوا صـوب الـمـزُن

وكان وجهه كفلقة قمر، فقاتل قتالاً شديداً حتى قتل على صغر سنه خمساً وثلاثين رجلاً، وقيل سبعين فارساً، فانقطع شسع نعله، فضربه عمرو بن سعد الأزدي على رأسه فوقع الغلام لوجهه ونادى:

ـ يا عماه أدركني.

فجاءه الحسين كالصقر المنقضّ فتخلّل الصفوف، وشدّ شدة الليث المغضب فضرب الحسين عمراً قاتل القاسم بالسيف فاتقاه بيده فأطنّها من لدن «تمسك شمخة بأنكيدو من يده فتقوده كما يقاد الطفل» المرفق، فصاح عنه اللعين صيحة سمعها أهل العسكر ثم تنحى عنه الحسين فحملت خيل أهل الكوفة ليستنقذوا عمراً من الحسين، فاستقبلته الخيل بصدورها وشرعته بحوافرها ووطأته حتى مات إلى جهنم.

فلما انجلت الغبرة وإذا بالحسين قائم على رأس الغلام وهو يفحص برجليه فقال الحسين:

ـ يعزّ واللّه على عمك أن تدعوه فلا يجيبك، أو يجيبك فلا يعينك، أو يعينك فلا يغني عنك، بعداً لقوم قتلوك ومن خصمهم يوم القيامة جدّك وأبوك، هذا يوم واللّه كثر واتره وقلّ ناصره. ثم احتمله على صدره ورجلاه تخطّان في الأرض خطاً حتى ألقاه بين القتلى من أهل بيته... إلخ[1].

(...) فبقي العباس بن علي قائماً أمام الحسين يقاتل دونه، وكان العباس بطلاً جسيماً وسيماً، يركب الفرس المطّهم ورجلاه تخطّان على الأرض خطاً، يُلقّب بالسقّاء وقمر بني هاشم. فجاء نحو أخيه الحسين فقال: ـ يا أخا هل من رخصة؟.

فبكى الحسين حتى ابتلّت لحيته بدموعه فقال:

ـ أخي أنت العَلامة من عسكري فإذا غدوت يؤول جمعنا إلى الشتات وتنبعث عمارتنا إلى الخراب.

فقال العباس: فداك روح أخيك لقد ضاق صدري من الحياة الدنيا وأريد أخذ الثأر من هؤلاء المنافقين.

فقال الحسين: فاطلب لهؤلاء الأطفال قليلاً من الماء.

فبرز العباس فلما توسّط الميدان وقف ونادى:

ـ يا عمر بن سعد هذا الحسين ابن بنت رسول اللّه يقول لكم:

ـ إنكم قتلتم أصحابه وإخوته وبني عمّه وبقي فريداً مع أولاده وعياله وهم عطاشى، قد

---

(١) **مقتل الحسين**، ص ٤٩ ـ ٥٦.

أحرق الظمأ قلوبهم فاسقوهم شربة من الماء لأن أولاده وأطفاله قد وصلوا إلى الهلاك... إلى آخر كلامه.

فلما سمع أهل الكوفة كلام أبي الفضل فمنهم من سكت ومنهم من جلس يبكي، وخرج شمر وشبث بن ربعي (.....) وقالا:

ـ يابن أبي تراب قل لأخيك: لو كان كل وجه الأرض ماءً وهو تحت أيدينا ما سقيناكم منه قطرة حتى تدخلوا في بيعة يزيد.

فتبسّم العباس فرجع إلى الحسين وأخبره بمقال القوم، فبكى الحسين حتى بلّ أزياقه من الدموع، فسمع العباس الأطفال وهم ينادون:

ـ العطش.

فركب فرسه وأخذ رمحه والقِربة، وكان عمر بن سعد قد وكّل أربعة آلاف رجل على الماء لا يدعون أحداً من أصحاب الحسين يشرب منه. فحمل عليهم العباس ففرّقهم وكشفهم وقتل منهم ثمانين رجلاً وهو يقول:

لا أرهب الموت إذا الموت رقا ... حتى أوارى في المصاليت لقى
إني أنا العباس أغدو بالسقا ... ولا أخاف الشر يوم الملتقى

حتى دخل الماء فلما أراد أن يشرب غرفة من الماء ذكر عطش الحسين وأهل بيته فرمى الماء وهو يقول:

يا نفسُ من بعد الحسين هُوني ... وبعده لا كنتِ أن تكوني
هذا الحسين شارب المنونِ ... وتشربينَ باردَ المعين
هيهات ما هذا فعال ديني ... ولا فعال صادق اليقين

فملأ القربة وحملها على عاتقه وتوجه نحو الخيمة فقطعوا عليه الطريق وأحاطوا به من كل جانب، وأخذوه بالنبال حتى صار درعه كجِلْد القُنفذ من كثرة السهام، فكمِنَ له زيد بن ورقاء من وراء نخلة وعاونه حكيم بن طفيل فضربه على يمينه فقطعها، فأخذ السيف بشماله وهو يقول:

واللّه إن قطعتم يميني ... إني أُحامي أبداً عن ديني
وعن إمامٍ صادق اليقينِ ... نجل النبي الطاهر الأمينِ

فقاتل حتى ضعف. فقطعوا شماله فجعل يقول:

يا نفس لا تخشي من الكفّار وابشري برحمة الجبّار
قد قطعوا ببغيهم يساري فأصلِهم يا ربّ حَرّ النار

فجاء سهم وأصاب القربة وأُريق ماؤها، فبقي العباس حائراً ليس له يد فيقاتل ولا ماء فيرجع إلى الخيمة، فضربه رجل بعمود من الحديد فسقط عن فرسه ونادى يا أخي أدرك أخاك...

فانقضّ إليه الحسين كالصقر فرآه مقطوع اليدين مفضوخ الجبين مشكوك العين بسهم، فوقف عليه منحياً وجلس عند رأسه يبكي، ففاضت نفس أبي الفضل فقال الحسين: أخي الآن انكسر ظهري وقلّت حيلتي وشمت بي عدوي.

فهوى عليه ما هنالك قائلاً اليوم بان عن اليمين حُسامها
اليوم آل إلى التفرّق جمعنا اليوم هدّ عن البنودِ نظامها
اليوم سار عن الكتائب كبشُها اليوم غابَ عن الصلاة إمامها
اليوم نامتْ أعين بك لم تَنم وتسهّدت أخرى فعزّ منامها

❀ ❀ ❀

ثم قام ورجع إلى الخيمة فاستقبلته ابنته سكينة، وقالت:

ـ أبتاه هل لك علم بعميّ العباس.

فبكى الحسين وقال: يا بنتاه إن عمّك قُتل... إلخ[1].

(....) وبرز غلام من أخبية الحسين، وفي أذنيه دُرّتان، وهو مذعور فجعل يلتفت يميناً وشمالاً، وقرطاه يتذبذبان فحمل عليه هاني بن ثبيت الحضرمي فضربه بالسيف فقتله، فصارت أمه تنظر إليه ولا تتكلم كالمدهوشة. ثم نادى الحسين:

ـ هل من ذاب يذبّ عن حرم رسول اللّه؟ هل من موحّد يخاف اللّه فينا؟ هل من مغيث يرجو في إغاثتنا؟

فارتفعت أصوات النساء بالبكاء والعويل، فتقدّم إلى باب الخيمة وقال لزينب: ناوليني ولدي الرضيع لأودّعه:

(١) المصدر السابق، ص ٥٨ ـ ٦٤.

أنت إيتيني بطفلي أراه قبل الفراق   فأتت بالطفل لا يهدأ والدمع مُراق
يتلظى عطشاً والقلب منه في احتراق   غائر العينين طاوي البطن ذاوي الشفتين
فبكى لما رآه يتلظَى من أُوام   بدموع هاطلاتٍ تُخجل الشُحبَ سجام
فأتى القوم وفي كفّيه ذياك الغلامُ   وهما من ظما قِلباهما كالجمرتين

فنادى: يا قوم قتلتم أنصاري وأولادي، وما بقي غير هذا الطفل، إن لم ترحموني فارحموا هذا الطفل، لقد جفّ اللبن في صدر أمه. فرماه حرملة بسهم فوقع في نحره فذبحه من الوريد إلى الوريد. فوضع الحسين كفّيه تحت نَحر الطفل فلما امتلأتا دماً رمى به إلى السماء وقال: هون عليّ ما نزل بي أنه بعين اللّه، اللّهم لا يكونن طفلي هذا أهون عليك من فيصل. (أي فيصل ناقة صالح).

ثم عاد بالطفل مذبوحاً وحفر له بجفن سيفه ودفنه. ووُلد للحسين ابن وقت الظهر، فأتي به إلى الحسين وهو قاعد بباب الخيمة فأخذه في حجره فأذن في أُذنه اليمنى وأقام في اليسرى، فرماه لعين فذبحه في حِجر الحسين وإلى هذا أشار الشاعر:

مُنعطفاً أهوى لتقبيل طفله   فقبّل منه قبله السهمُ منحَرا
لقد وُلد في ساعةٍ هو والردى   ومن قَبله في نَحرِهِ السهم كبّرا

ولما قُتل أصحابه وأهل بيته ولم يبق أحد عزم على لقاء اللّه، فدعى بُبردة رسول اللّه فالتحف بها فأفرغ عليها درعه، وتقلّد سيفه واستوى على متن جواده، ثم توجّه نحو القوم وقال:

ـ ويلكم علامَ تقاتلونني؟ على حقٍ تركته؟ أم على شريعة بدّلتها؟ أم على سُنّة غيّرتها؟ فقالوا:

ـ نقاتلك بغضاً منّا لأبيك وما فعل بأشياخنا يوم بدر وحنين. فلما سمع كلامهم بكى، وجعل يحمل عليهم وجعلوا ينهزمون من بين يديه كأنهم الجراد المنتشر، ثم رجع إلى مركزه وهو يقول:

ـ لا حول ولا قوة إلاّ باللّه العلي العظيم.

وهو في تلك الحالة يطلب شربة من الماء وكان يقول:

أنا ابن عليّ الطُهر من آل هاشم   كفاني بهذا مفخراً حين أفخر
وجدي رسول اللّه أكرم من مشى   ونحن سراج اللّه في الأرض نزهر

وفاطم أمي من سلالة أحمدٍ ... وعمّي يُدعى ذا الجناحين جعفر
وفينا كتابُ اللّه أُنزل صادقاً ... وفينا الهدى والوحي بالخير يُذكر
فنحن أمانُ اللّه للناس كلّهم ... نُسرّ بهذا في الأنام ونجهَر
ونحن ولاة الحوض نسقي وُلاتنا ... بكأس رسول اللّه ما ليس ينكر
وشيعتنا في الحشر أكرم شيعة ... ومبغضاً يوم القيامة يخسر
فطوبى لعبدٍ زارنا بعد موتنا ... بجنة عدنٍ صفوها لا يُكدّر

فصاح عمر بن سعد:

ـ الويل لكم! أتدرون من تقاتلون؟ هذا ابن الأنزع البطين هذا ابنُ قتّال العرب، احملوا عليه من كل جانب. فحملوا عليه فحمل كالليث المغضب، فجعل لا يلحق منهم أحداً إلاّ بَعَجه بالسيف فقتله، حتى قتل منهم مقتلة عظيمة، وفي خبرٍ أنه قتل ألفاً وتسعمائة وخمسين رجلاً، فحالوا بينه وبين رَحله، فصاح:

ـ ويحكم يا شيعة آل أبي سفيان إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا أحراراً في دنياكم، وارجعوا إلى أحسابكم إن كنتم عُرباً.

فناداه شمر: ما تقول يا بن فاطمة؟

قال أقول: أنا الذي أقاتلكم وأنتم تقاتلونني، والنساء ليس عليهن جناح، فامنعوا عُتاتكم وجهّالكم عن التعرّض لحرمي ما دمتُ حياً.

فصاح شمر بأصحابه: تنحّوا عن حرم الرجل واقصدوه بنفسه، فلعمري هو كفو كريم.

فتراجع القوم، فنزلت الملائكة من السماء لنُصرته فلم يأذن لهم بشيء، ثم التفت يميناً وشمالاً فلم يرَ أحداً من أصحابه إلاّ مَن صافح التراب جبينه وقطع الحِمام أنينه، فخاطبهم وعاتبهم فما سمع منهم جواباً.

لما رأى السبط أصحاب الوفا قُتلوا ... نادى أبا الفضل أين الفارسُ
وأين مَن دوني الأرواحَ قد بذلوا ... بالأمس كانوا معي واليوم قد رحلوا
وخلّفوا في سُويد القلب نيرانا

ثم نادى برفيع صوته: هل من ناصر ينصرني، هل من مُعين يعينني؟

فخرج زين العابدين وهو مريض لا يتمكن أن يحمل سيفه، وأُم كلثوم تنادي خلفه: ارجع.

فقال: يا عمّتاه ذريني أقاتل بين يدي ابن رسول اللّه.

فقال الحسين: خذيه، لئلا تبقى الأرض خالية من نسل آل محمد.

وفي رواية جاء الحسين واحتمله وأتى به إلى الخيمة ثم قال:

ـ ولدي ما تريد أن تصنع؟

قال: أبه إن نداءك قطع نياط قلبي، وأريد أن أفديك بروحي.

فقال الحسين: يا ولدي أنت مريض، ليس عليك جهاد، وأنت الحجّة والإمام على شيعتي، وأنت أبو الأئمة، وكافل الأيتام والأرامل، وأنت الرّاد لحرمي إلى المدينة.

فقال زين العابدين: أبتاه تُقتل وأنا أنظر إليك؟ ليت الموت أعدمني الحياة، روحي لروحك الفداء، نفسي لنفسك الوقاء.

ثم ذهب الحسين إلى خيام الطاهرات من آل رسول اللّه، ونادى:

ـ يا سكينة، ويا فاطمة، ويا زينب، ويا أم كلثوم: عليكن منّي السلام فهذا آخر الاجتماع، وقد قَرُب منكن الانفجاع.

فعلتْ أصواتهن بالبكاء وصِحن: الوداع الوداع، الفراق الفراق، فجاءته عزيزته سكينة وقالت: يا أبه استسلمت للموت؟ فإلى من أتّكل.

قال: يا نور عيني كيف لا يستسلم للموت مَن لا ناصر له ولا معين.

قالت: أبه رُدّنا إلى حرم جدّنا؟

فقال الحسين: هيهات، لو تُرك القطا لغفا ونام.

فبكت سكينة فأخذها وضمّها إلى صدره، ومسح الدموع عن عينيها وهو يقول:

سيطول بعدي يا سكينة فاعلمي ... منكِ البكاء إذا الحِمام دهاني
لا تحرقي قلبي بدمعك حسرةً ... ما دام منّي الروحُ في جثماني
فإذا قُتلتُ فأنتِ أولى بالذي ... تأتينه يا خيرة النسوانِ

ثم إن الحسين دعاهنّ بأجمعهن، وقال لهنّ:

ـ استعدوا للبلاء واعلموا أن اللّه حافظكم وحاميكم، وسينجيكم من شرّ الأعداء ويجعل عاقبة أمركم إلى خير، ويعذّب أعاديكم بأنواع النِقَم والكرامة، فلا تشكوا ولا تقولوا بألسنتكم ما يُنقص قدركم. ثم أمرهنّ بلبس أُزرهنّ ومقانعهن، فسألته زينب عن ذلك فقال:

ـ كأني أراكم عن قريب كالإماء والعبيد يسوقونكم أمام الركاب، ويسومونكم سوء العذاب.

فنادت زينب: واجداه واقلّة ناصراه.

فشقّت ثوبها ونتفت شعرها ولطمت على وجهها، فقال الحسين لها:

ـ مهلاً يا بنت المرتضى إن البكاء طويل.

فأراد الحسين أن يخرج من الخيمة فتعلّقت به زينب، وقالت:

ـ مهلاً يا أخي توقّف حتى أتزوّد منك ومن نظري إليك وأُودّعك وداع مفارق لا تلاقي بعده.

فجعلت تُقبّل يديه ورجليه، وأحطن به سائر النسوة يُقبّلن يديه ورجليه، فسكّتهن الحسين، وردّهن إلى الفسطاط. ثم دعى أخته زينب وصبّرها وأمرّ يده على صدرها وسكّنها من الجزع، وذكر لها ما أعدّ اللّه للصابرين، فقالت له:

ـ يا بن أمي طب نفساً وقرّ عيناً فإنك تجدني كما تحب وترضى.

فقال الحسين: أُخية ايتيني بثوب عتيق لا يَرغب فيه أحد، أجعله تحت ثيابي لئلا أُجرّد بعد قتلي، فإني مقتول مسلوب.

فارتفعت أصواتهنّ بالبكاء، فأُتي بتبّان، وهو ثوب قصير ضيّق، فقال: لا ذاك لباس مَن ضُربت عليه الذلّة.

فأخذ ثوباً خلِقاً، فخرقه وجعله تحت ثيابه فلما قُتل جرّدوه منه.

ثم نادى الحسين: هل مَن يُقدّم إليّ جوادي؟

فسمعت زينب فخرجت وأخذت بعنان الجواد وأقبلت إليه وهي تقول:

ـ لمن تنادي وقد قرحت فؤادي.

فعاد الحسين إلى القوم فحمل عليهم وكانت الرجال تشُدّ عليه فيشدّ عليها، فتنكشف

عنه انكشاف المعزى إذا حلّ فيها الذئب، فحمل على الميمنة وهو يقول:

الموت خير من ركوب العار والعار أولى من دخول النار

وحمل على الميسرة وهو يقول:

أنا الحسين بن عليّ آليت أن لا أنثني
أحمي عيالات أبي أمضي على دين النبيّ

فجعلوا يرشقونه بالسهام والنبال حتى صار درعه كالقنفذ، فوقف ليستريح ساعة وقد ضعف عن القتال فبينما هو واقف إذ أتاه حجر فوقع على جبهته، فأخذ الثوب ليمسح الدم عن عينه فأتاه سهم محدّد مسموم له ثلاث شُعب فوقع السهم في صدره على قلبه، فقال الحسين:

- بسم اللّه وباللّه وفي سبيل اللّه وعلى ملّة رسول اللّه.

ثم رفع رأسه إلى السماء وقال:

- إلهي إنك تعلم أنهم يقتلون رجلاً ليس على وجه الأرض ابن نبي غيره.

ثم أخذ السهم وأخرجه من قفاه فانبعث الدم كالميزاب، فوضع يده على الجرح فلما امتلأت دماً رمى به إلى السماء، ثم وضع يده على الجرح ثانياً فلما امتلأت لطّخ به رأسه ولحيته وقال:

- هكذا أكون حتى ألقى جدّي رسول اللّه مخضوباً بدمي أقول: يا رسول اللّه قتلني فلان، وفلان.

فعند ذلك طعنه صالح بن وهب على خاصرته طعنة، فسقط عن فرسه على خدّه الأيمن وهو يقول:

- بسم اللّه وباللّه وفي سبيل اللّه وعلى ملّة رسول اللّه.

ثم جعل يجمع التراب تحت يده كالوسادة فيضع خدّه عليها ثم يناجي ربه قائلاً:

- صبراً على قضائك وبلائك، يا ربّ لا معبود سواك.

ثم وثب ليقوم للقتال فلم يقدر، فبكى بكاءً شديداً، فنادى:

- واجداه وامحمداه، واأبتاه واعليّا، واغربتاه، واقلّة ناصراه، أأُقتل مظلوماً وجدّي محمد المصطفى؟ أأُذبح عطشاناً وأبي عليّ المرتضى؟ أأُترك مهتوكاً وأمي فاطمة الزهراء؟

ثم خرجت زينب من الفسطاط وهي تنادي:

ـ واأخاه، واسيداه، واأهل بيتاه، ليت السماء أُطبقت على الأرض، ليت الجبال تدكدكت على السهل، اليوم مات جدي اليوم ماتت أمي.

ثم نادت: ويحك يابن سعد أيُقتل أبو عبد اللّه وأنت تنظر إليه؟

فلم يجبها عمر بشيء، فنادت: ويحكم أما فيكم مسلم؟

فلم يجبها أحد. ثم انحدرت نحو المعركة وهي تقوم مرة وتقعد أخرى، وتحثو التراب على رأسها حتى وصلت إلى الحسين فطرحت نفسها على جسده وجعلت تقول: أأنت الحسين أخي؟/ أأنت ابن أمي؟/ أأنت حِمانا؟ أأنت رجانا؟

والحسين لا يردّ عليها جواباً، لأنه كان مشغولاً بنفسه، فقالت:

ـ أخي بحق جدّي إلاّ ما كلمتني، وبحق أبي أمير المؤمنين إلاّ ما خاطبتني، يا حشاش مهجتي كلّمني يا شقيق روحي، ففتح الحسين عينه. فعند ذلك جلست زينب خلفه وأجلسته حاضنة له بصدرها، فالتفت إليها الحسين وقال:

ـ أُخية كسرتِ قلبي وزدتيني كرباً فوق كربي، فباللّه إلاّ ما سكت وسكنت.

فصاحت: واويلاه يا بن أمي كيف أسكن وأسكت وأنت بهذه الحالة تعالج سكرات الموت؟ روحي لروحك الفداء، نفسي لنفسك الوقاء.

فخرج عبد اللّه بن الحسن وهو غلام لم يُراهق من عند النساء، فشدّ حتى وقف إلى جنب عمّه الحسين، فلحقته زينب بنت علي لتحبسه، فقال لها الحسين: احبسيه يا أختي فأبى وامتنع عليها امتناعاً شديداً وقال:

ـ واللّه لا أُفارق عمّي.

وأهوى بحر بن كعب إلى الحسين بالسيف فاتقاه الغلام بيده وأطنّها إلى الجلد فإذا هي معلّقة، ونادى الغلام:

ـ يا عمّاه يا أبتاه.

فأخذه الحسين فضمّه إليه وقال:

ـ يابن أخي صبراً على ما نزل بك واحتسب في ذلك الأجر فإن اللّه يلحقك بآبائك الصالحين.

فرماه حرملة بسهم فذبحه في حِجر عمّه الحسين. ثم صاح عمر بن سعد بأصحابه: ويلكم انزلوا وحُزوا رأسه.

وقال لرجل: ويلك انزل إلى الحسين وأرحه.

فأقبل عمرو بن الحجاج ليقتل الحسين فلما دنا ونظر إلى عينيه ولّى راجعاً مدبراً، فسألوه عن رجوعه؟

قال: نظرتُ إلى عينيه كأنهما عينا رسول الله.

وأقبل شبث بن ربعي فارتعدت يده ورمى السيف هارباً، فعند ذلك أقبل شمر وجلس على صدر الحسين ووقعت المصيبة الكبرى التي يعجز القلم عن وصفها.... إلخ[1].

ومن كتاب مقتل الحسين بقلم السيد عبد الرزاق الموسوي المقرّم نقرأ ما جاء فيما بعد اليوم العاشر من عاشوراء:

إن من الراجح المؤكد على من يشايع الأئمة المعصومين عليهم السلام المبيت في الليلة الحادية عشرة عند قبر المظلوم «ع» وعليه ملامح الاستياء وشعار الحزن على ذلك الفادح الجلل بين أنّة وحنّة وصراخ وعولة كأنه ينظر من كثب إلى ضحايا آل محمد مضرجين بالدماء تسفي عليهم الريح بوغاء الثرى وهي أشلاء مقطّعة قد طعمتها سمر الرماح ونهلت من دمائها بيض الصفاح وطحنتها سنابك الخيل العادية (...) لما قتل أبو عبد الله الحسين «ع» مال الناس على ثقله ومتاعه وانتهبوا ما في الخيام[2] وأضرموا النار فيها وتسابق القوم على سلب حرائر الرسول «ص» ففررن بنات الزهراء «ع» حواسر مسلبات باكيات[3] وإن المرأة لتسلب مقنعتها من رأسها وخاتمها وقرطها من أذنها والخلخال من رجلها[4] وجاء آخر إلى فاطمة ابنة الحسين فانتزع خلخالها وهو يبكي قالت له: ما لك؟ فقال: كيف لا أبكي وأنا أسلب ابنة رسول الله. قالت له: دعني. قال: أخاف أن يأخذه غيري[5]. ورأت رجلاً يسوق النساء بكعب رمحه وهن يلذن بعضهن ببعض وقد أخذ ما عليهن من أخمرة وأسورة ولما بصر بها قصدها ففرّت منه فأتبعها رمحه فسقطت لوجهها مغشياً عليها ولما أفاقت رأت عمتها أم كلثوم عند رأسها تبكي[6]. وانتهى القوم إلى علي بن الحسين وهو مريض[7] على فراشه لا يستطيع النهوض

---

(١) المصدر السابق، ص ٦٤ - ٧٩.
(٢) **كامل ابن الأثير**، ج ٤، ص ٣٢.
(٣) **تأريخ الطبري**، ج ٦، ص ٢٦٠.
(٤) **مثير الأحزان**، لابن نما، ص ٤٠.
(٥) **أمالي الصدوق**، ص ٩٩، مجلس ٣١. **سير أعلام النبلاء**، للذهبي، ج ٢، ص ٢٠٤.
(٦) **رياض الصالحين**، ص ٣٤١. **تظلّم الزهراء**، ص ١٣٠.
(٧) مرض السجّاد، ذكره الطبري ج ٦، ص ٢٦٠.

فقائل يقول لا تدعوا منهم صغيراً، ولا كبيراً، وآخر يقول لا تعجلوا حتى نستشير الأمير عمر بن سعد[١]. وجرّد الشمر سيفه يريد قتله فقال له حميد بن مسلم: يا سبحان اللّه أتقتل الصبيان؟ إنما هو صبي مريض![٢] فقال: إن ابن زياد أمر بقتل أولاد الحسين وبالغ ابن سعد في منعه خصوصاً لما سمع العقيلة زينب ابنة أمير المؤمنين تقول: لا يقتل حتى أقتل دونه فكفّوا عنه[٣].

ويقول عبد الرزاق الموسوي المقرم[٤]:

وأمر ابن سعد بالرؤوس فقطعت واقتسمتها القبائل لتقرّب إلى ابن زياد، (...) وسرح ابن سعد في اليوم العاشر رأس الحسين مع خولي بن يزيد الأصبحي، وحميد بن مسلم الأزدي وسرح أهل بيته مع الشمر وقيس الأشعث وعمرو بن الحجاج وكان منزل الخولي على فرسخ من الكوفة فأخفى الرأس عن زوجته الأنصارية لما يعهده من موالاتها لأهل البيت عليهم السلام إلاّ أنها لما رأت من التنور نوراً راعها ذلك إذ لم تعهد فيه شيئاً، فلما قربت منه سمعت أصوات نساء يندبن الحسين بأشجى ندبة، فحدثت زوجها وخرجت باكية[٥]. «إن زوجته رأت النور يسطع من تحت الأجانة إلى السماء، وطيوراً بيضاً ترفرف حولها»، وإن زوجته الأخرى نوار بنت مالك قالت له: «أتيت برأس ابن رسول اللّه «ص» وآله لا يجمعني وإياك فراش أبداً ثم فارقته» ولم تكتحل ولم تتطيّب حزناً على الحسين وكان اسمها العيوف[٦].

ويقول أيضاً[٧]:

لما سيّر ابن سعد الرؤوس إلى الكوفة أقام مع الجيش إلى الزوال من اليوم الحادي عشر فجمع قتلاه وصلى عليهم ودفنهم وترك سيد شباب أهل الجنة وريحانة الرسول الأكرم ومن معه من أهل بيته وصحبه بلا غسل ولا كفن ولا دفن[٨] تسفي عليهم الصبا ويزورهم وحش الفلا (...) وبعد الزوال ارتحل إلى الكوفة ومعه نساء الحسين وصبيته وجواريه وعيالات الأصحاب وكنّ عشرين امرأة[٩]. وسيروهنّ على أقتاب الجمال بغير وطاء كما يساق سبي الترك والروم وهن

---

(١) **تظلّم الزهراء**، ص ١٣٢.
(٢) **تأريخ الطبري**، ج ٦، ص ٢٦٠.
(٣) **تاريخ القرماني**، ص ١٠٨.
(٤) **مقتل الحسين**، عبد الرزاق الموسوي المقرم ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤.
(٥) **روضة الشهداء**، وفي **البداية لابن كثير**، ج ٨، ص ١٨٠.
(٦) **أنساب الأشراف**، للبلاذري، ج ٥، ص ٢٣٨.
(٧) **مقتل الحسين**، عبد الرزاق الموسوي المقرم ص ٣٠٥ ـ ٣١٢.
(٨) **مقتل الحسين**، للخوارزمي، ج ٢، ص ٣٩.
(٩) **نفس المهموم**، ص ٢٠٤.

ودائع خير الأنبياء ومعهن السجّاد علي بن الحسين وعمره ثلاث وعشرون سنة[١] وهو على بعير ظالع بغير وطاء وقد أنهكته العلة[٢] ومعه ولده الباقر[٣]. ومن أولاد الإمام الحسن المجتبى زيد... إلخ. (...) فقلن النسوة: باللّه عليكم إلاّ ما مررتم بنا على القتلى، ولـمّا نظرن إليهم مقطعي الأوصال قد طعمتهم سمر الرماح ونهلت من دمائهم بيض الصفاح وطحنتهم الخيل بسنابكها صحن ولطمن الوجوه[٤]. وصاحت زينب: «يا محمداه هذا حسين بالعراء مرمل بالدماء مقطّع الأعضاء، وبناتك سبايا وذرّيتك مقتلة» فأبكت كل عدو وصديق[٥]، وفي «مقتل الخوارزمي واللهوف» حتى جرت دموع الخيل على حوافرها[٦]. ثم بسطت يديها تحت بدنه المقدّس ورفعته نحو السماء وقالت: «إلهي تقبّل منا هذا القربان»[٧]. وهذا الموقف يدلّنا على تبوّئها عرش الجلالة وقد أُخذ عليها العهد والميثاق بتلك النهضة المقدّسة كأخيها الحسين «ع» وإن كان التفاوت بينهما محفوظاً، فلما خرج الحسين عن العهدة بإزهاق نفسه القدسية نهضت «العقيلة زينب» بما وجب عليها، ومنه تقديم الذبيح إلى ساحة الجلال الربوي والتعريف به ثم طفقت سلام اللّه عليها ببقية الشؤون ولا استبعاد في ذلك بعد وحدة النور وتفرّد العنصر (...) ولما أدخلت بنات أمير المؤمنين إلى الكوفة اجتمع أهلها للنظر إليهم فصاحت أم كلثوم: يا أهل الكوفة أما تستحون من اللّه ورسوله أن تنظروا إلى حرم النبي «ص»؟[٨]. وأشرفت عليهن امرأة من الكوفيات ورأتهن على تلك الحال التي تشجي العدو الألد فقالت من أي الأسارى أنتم؟ قلن نحن أسارى محمد «ص»!![٩]. وأخذ أهل الكوفة يناولون الأطفال التمر والجوز والخبز فصاحت أم كلثوم وهي زينب الكبرى: «إن الصدقة علينا حرام ثم رمت به إلى الأرض»[١٠]. (...) ولقد أوضحت ابنة أمير المؤمنين «ع» للناس خبث ابن زياد ولؤمه في خطبتها بعد أن أومأت إلى ذلك الجمع المتراكم فهدؤوا حتى كأن على رؤوسهم الطير، وليس في وسع العدد الكثير أن يسكن ذلك اللغط، أو يرد

(١) **نسب قريش**، لمصعب الزبيري، ص ٥٨.

(٢) **الإقبال**، لابن طاوس، ص٥٤.

(٣) **رياض الأحزان**، ص ٤٩. **إثبات الوصية**، للمسعودي، ص ١٤٣.

(٤) **مثير الأحزان**، لابن نما، ص ٤١. **واللّهوف**، لابن طاوس، ص ٧٤.

(٥) **الخطط** المقريزي، ج ٢، ص ٢٨٠.

(٦) **مقتل الحسين**، للخوارزمي، ج ٢، ص ٣٩. **المنتخب**، للطريحي، ص ٣٣٢.

(٧) **الكبريت الأحمر**، ج ٢، ص ١٣.

(٨) **الدمعة الساكبة**، ص ٣٦٤.

(٩) **ابن نما**، ص ٨٤ **واللّهوف**، ص ٨١.

(١٠) **أسرار الشهادة**، ص ٤٧٧. **وتظلّم الزهراء**، ص ١٥٠.

تلك الضوضاء لولا الهيبة الإلهية والبهاء المحمدي الذي جلل «عقيلة آل محمد «ص»». فيقول الراوي: لما أومأت زينب ابنة علي «ع» إلى الناس فسكنت الأنفاس والأجراس فعندها اندفعت بخطابها مع طمأنينة نفس وثبات جأش وشجاعة حيدرية فقالت صلوات الله عليها:

ـ الحمد لله والصلاة على أبي محمد وآله الطيبين الأخيار، أما بعد يا أهل الكوفة، يا أهل الختل والغدر، أتبكون فلا رقأت الدمعة، ولا هدأت الرنة، إنما أمثالكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً، تتخذون أيمانهم دخلاً بينكم، ألا وهل فيكم إلاّ الصلف النطف والعجب والكذب والشنف وملك الإماء، وغمز الأعداء، أو كمرعى على دمنة، أو كقصة على ملحودة ألا بئس ما قدمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم، وفي العذاب أنتم خالدون. أتبكون وتنتحبون، أي والله فابكوا كثيراً، واضحكوا قليلاً فلقد ذهبتم بعارها وشنارها، ولن ترحضوها بغسل بعدها أبداً، وأنى ترحضون، قتل سليل خاتم النبوة. (...) فقطعت «العقيلة» الكلام وأدهشت ذلك الجمع المغمور بالتمويهات والمطامع وأحدث كلامها إيقاظاً في الأفئدة ولفتة في البصائر وأخذت خطبتها من القلوب مأخذاً عظيماً وعرفوا عظيم الجناية فلا يدرون ما يصنعون!!

ويقول عبد الرزاق الموسوي المقرم[1]:

وبعد خطبة فاطمة بنت الحسين، وأم كلثوم جيء بعلي بن الحسين على بعير ضالع والجامعة في عنقه ويداه مغلولتان إلى عنقه وأوداجه تشخب دماً فكان يقول: (...) وأومأ إلى الناس أن اسكتوا فلما سكتوا حمد الله وأثنى عليه وذكر النبي فصلى عليه ثم قال:

ـ أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أنا ابن من انتهكت حرمته، وسلبت نعمته وانتهب ماله، وسبي عياله، أنا ابن المذبوح بشط الفرات من غير ذحل ولا تراب، وأنا ابن من قتل صبراً وكفى بذلك فخراً. أيها الناس ناشدتكم الله هل تعلمون أنكم كتبتم إلى أبي وخدعتموه وأعطيتموه من أنفسكم العهود والميثاق والبيعة وقاتلتموه، فتباً لكم لما قدّمتم لأنفسكم، وسوأة لرأيكم، بأية عين تنظرون إلى رسول الله، إذ يقول لكم: قتلتم عترتي، وانتهكتم حرمتي، فلستم من أمتي.

فارتفعت الأصوات بالبكاء وقالوا: هلكتم وما تعلمون.... إلخ.

ويكتب المقرم[2]:

---

(١) **مقتل الحسين**، ص ٣١٣ ـ ٣١٧.

(٢) **مقتل الحسين**، ص ٣١٨ ـ ٣٢١.

ذكر أهل التأريخ أن سيد الشهداء أفرد خيمة في حومة الميدان[١]، وكان يأمر بحمل من قتل من صحبه وأهل بيته إليها، وكلما يؤتى بشهيد يقول عليه السلام: قتلة مثل قتلة النبيين وآل النبيين[٢]. إلاّ أخاه أبا الفضل العباس «ع» تركه في محل سقوطه قريباً من شط الفرات[٣]. ولما ارتحل عمر بن سعد بحرم الرسالة إلى الكوفة ترك أولئك الذين وصفهم أمير المؤمنين «ع» بأنهم سادة الشهداء في الدنيا والآخرة لم يسبقهم سابق ولا يلحقهم لاحق[٤] على وجه الصعيد تصهرهم الشمس ويزورهم وحش الفلا. (...) وفي اليوم الثالث عشر من محرم أقبل زين العابدين لدفن أبيه الشهيد «ع» لأن الإمام لا يلي أمره إلاّ إمام مثله[٥]. (...) ثم مشى الإمام زين العابدين إلى جسد أبيه واعتنقه وبكى بكاءً عالياً وأتى إلى موضع القبر ورفع قليلاً من التراب فبان قبر محفور وضريح مشقوق فبسط كفيه تحت ظهره وقال: بسم اللّه وفي سبيل اللّه وعلى ملّة رسول اللّه صدق اللّه ورسوله ما شاء اللّه لا حول ولا قوة إلاّ باللّه العظيم.

وأنزله وحده لم يشاركه بنو أسد فيه وقال لهم: إن معي من يعينني. ولما أقرّه في لحده وضع خدّه على منحره الشريف قائلاً:

ـ طوبى لأرض تضمنت جسدك الطاهر، فإن الدنيا بعدك مظلمة والآخرة بنورك مشرقة، أما الليل فمسهد والحزن سرمد. أو يختار اللّه لأهل بيتك دارك التي أنت به مقيم وعليك مني السلام يا ابن رسول اللّه ورحمة اللّه وبركاته.

وكتب على القبر: هذا قبر الحسين بن علي بن أبي طالب الذي قتلوه عطشاناً غريباً. ثم مشى إلى عمه العباس «ع» فرآه بتلك الحالة التي أدهشت الملائكة بين أطباق السماء وأبكت الحور في غرف الجنان، فوقع عليه يلثم نحره المقدّس قائلاً: على الدنيا بعدك العفا يا قمر بني هاشم، وعليك مني السلام من شهيد محتسب ورحمة اللّه وبركاته. وشقّ له ضريحاً وأنزله وحده كما فعل بأبيه الشهيد وقال لبني أسد إن معي من يعينني!

ويكتب[٦]:

لما رجع ابن زياد من معسكره بالنخيلة، ودخل قصر الإمارة ووضع أمامه الرأس المقدّس

---

(١) **تاريخ الطبري**، ج ٦، ص ٢٥٦. و**كامل ابن الأثير**، ج ٤، ص ٣٠.

(٢) حكاه في **البحار**، ج ١٠، ص ٢١١، ج ١٣، ص ١٢٥.

(٣) **قمر بني هاشم**، ص ١١٥.

(٤) **كامل الزيارات**، ص ٢١٩.

(٥) **إثبات الوصية**، للمسعودي، ص ١٧٣.

(٦) **مقتل الحسين**، ص ٣٢٣ ـ ٣٢٩.

سالت الحيطان دماً[1] وخرجت نار من بعض نواحي القصر وقصدت سرير ابن زياد[2]، فولّى هارباً منها ودخل بعض بيوت القصر فتكلم الرأس الأزهر بصوت جهوري سمعه ابن زياد وبعض من حضر... إلخ. (...) وانحازت زينب ابنة أمير المؤمنين «ع» عن النساء وهي متنكّرة لكن جلال النبوة وبهاء الإمامة المنسدل عليها استلفت نظر ابن زياد فقال: من هذه المتنكّرة؟

قيل له: ابنة أمير المؤمنين «زينب العقيلة».

فأراد أن يحرق قلبها بأكثر مما جاء إليهم فقال شامتاً:

ـ الحمد للّه الذي فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم.

فقالت «ع»: الحمد للّه الذي أكرمنا بنبيه محمد «ص» وطهّرنا من الرجس تطهيراً، إنما يفتضح الفاسق ويكذّب الفاجر، وهو غيرنا.

قال ابن زياد: كيف رأيت فعل اللّه بأهل بيتك؟

قالت «ع»: ما رأيت إلاّ جميلاً. هؤلاء كتب اللّه عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع اللّه بينهم فتحاج وتخاصم فانظر لمن الفلج يومئذٍ ثكلتك أمك يا ابن مرجانة[3].

فغضب ابن زياد واستشاط من كلامها في ذلك المحتشد وهمّ بها.

فقال عمرو بن حريث: إنها امرأة فلا تؤاخذ بشيء من منطقها. ولا تلام على خطل.

فالتفت إليها ابن زياد وقال: لقد شفى اللّه قلبي من طاغيتك والعصاة المردة من أهل بيتك!

فرقت «العقيلة» وقالت: لعمري لقد قتلت كهلي وأبرزت أهلي وقطعت فرعي واجتثثت أصلي فإن يشفك هذا فقد اشتفيت[4].

والتفت إلى علي بن الحسين وقال له: ما اسمك؟

قال: أنا علي بن الحسين...إلخ.

---

(١) **لطائف المعارف**، للثعالبي، ص ١٤٢، الباب التاسع.

(٢) **تاريخ ابن عساكر**، ج ٤، ص ٣٣٩. **الصواعق المحرقة**، ص ١١٦. **ذخائر العقبى**، ص ١٤٥. **وابن طاوس في الملاحم**، ص ١٢٨.

(٣) **الطبري**، ج ٦، ص ٢٦٢. **اللهوف**، ص ٩٠.

(٤) **كامل ابن الأثير**، ج ٤، ص ٣٣. **ومقتل الحسين**، للخوارزمي، ص ٤٢ ص ٤٢، **وتاريخ الطبري**، ج ٦، ص ٢٦٣.

فقال السجّاد «ع»: كان لي أخ أكبر مني يسمى علياً قتله الناس.

فردّ عليه ابن زياد بأن الله قتله.

قال السجّاد: الله يتوفى الأنفس حين موتها وما كان لنفس أن تموت إلاّ بإذن الله.

فكبر على ابن زياد أن يرد عليه فأمر أن تُضرب عنقه. لكن عمته العقيلة اعتنقته وقالت:

- حسبك يا ابن زياد من دمائنا ما سفكت وهل أبقيت أحداً غير هذا فإن أردت قتله فاقتلني معه[1].

فقال السجّاد «ع»: أما علمت أن القتل لنا عادة وكرامتنا من الله الشهادة[2].

فنظر ابن زياد إليهما وقال: دعوه لها عجباً للرحم ودت أنها تقتل معه[3].

وأخذت الرباب زوجة الحسين الرأس ووضعته في حجرها وقبّلته وقالت:

واحسيناه فلا نسيت حسيناً ... اقصدته أسنة الأعداء
غادروه بكربلاء صريعاً ... لا سقى اللّه جاني كربلاء

ولما وضح لابن زياد ولولة الناس ولغط المجلس خصوصاً لما تكلمت معه زينب العقيلة خاف هياج الناس فأمر الشرطة بحبس الأسارى في دار إلى جنب المسجد الأعظم[4]. قال حاجب ابن زياد: كنت معهم حين أمر بهم إلى السجن فرأيت الرجال والنساء مجتمعين يبكون ويلطمون وجوههم[5]. فصاحت زينب بالناس لا تدخل علينا إلاّ مملوكة. أو أم ولد فإنهن سبين كما سُبينا[6] تشير الحوراء العقيلة إلى أن المسبية تعرف مضض عناء الذل فلا يصدر منها غير المحمود من شماتة وغيرها، وهذا شيء معروف لا ينكر فقد ورد.... إلخ (...) لما أحضر ابن زياد السبايا في مجلسه أمر بإحضار المختار وكان محبوساً عنده من يوم قتل مسلم ابن عقيل فلما رأى المختار هيئة منكرة زفر زفرة شديدة وجرى بينه وبين ابن زياد كلام أغلظ فيه المختار فغضب ابن زياد وأرجعه إلى الحبس[7]، ويقال ضربه بالسوط على عينه فذهبت.

---

(١) **الطبري**، ج ٦، ص ٢٦٣.
(٢) **اللهوف**، ص ٩١. **ومقتل الحسين**، الخوارزمي، ج ٢، ص ١٣.
(٣) **ابن الأثير**، ج ٤، ص ٣٤.
(٤) **الأغاني**، ج ٤، ص ١٥٠.
(٥) **روضة الواعظين**، ص ١٦٣.
(٦) **اللهوف**، ص ٩٢. **ومقتل العوالم**، ص ١٣٠.
(٧) **رياض الأحزان**، ص ٥٢.

ونقرأ في ما يقوله[1]:

قال زيد بن أرقم: كنت في غرفة لي فمرّوا علي بالرأس وهو يقرأ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾[2]فوقف شعري وقلت: والله يا بن رسول الله رأسك أعجب وأعجب[3]، وقال ابن أبي الحديد[4]: كان زيد بن أرقم من المنحرفين عن أمير المؤمنين «ع» فإنه كتم الشهادة لأمير المؤمنين بالولاية يوم الغدير فدعا عليه بالعمى فكّف بصره إلى أن مات[5]. أمر ابن زياد فطيف برأس الحسين في الكوفة[6]. ولما نصب الرأس الأقدس في موضع الصيارفة وهناك لغط المارة وضوضاء المتعاملين، فأراد سيد الشهداء توجيه النفوس نحوه ليسمعوا بليغ عظاته فتنحنح الرأس تنحنحاً عالياً فاتجهت إليه الناس واعترتهم الدهشة حيث لم يسمعوا رأساً مقطوعاً يتنحنح قبل يوم الحسين «ع» فعندها قرأ سورة الكهف إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾[7] ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾[8] .... إلخ.

(...) وبعث ابن زياد رسولاً إلى يزيد يخبره بقتل الحسين ومن معه وأن عياله في الكوفة وينتظر أمره فيهم، فعاد الجواب بحملهم والرؤوس معهم[9].

تسجيلات حية، لا تزال متداولة[10]

ومن الأمثلة التطبيقية أورد مثالاً عملياً تحليلياً، لمادة شريط بصوت السيد «عبد الزهرة الكعبي» الراوي المنشد في مدينة كربلاء، ومن أبناء مدينة «طوريج» المتوفى حوالى عام ١٩٨٦، والذي سمعته عن قرب، وحضرت في مرات مناسبات أحياها في هذه الذكرى، وذلك

(١) **مقتل الحسين**، عبد الرزاق الموسوي المقرم ص ٣٣٢.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٩.
(٣) **إرشاد المفيد، والخصائص الكبرى**، ج ٢، ص ١٢٥.
(٤) **شرح النهج**، ج ١، ص ٣٦.
(٥) **كامل ابن الأثير**، ج٤، ص ٢٤.
(٦) **البداية لابن الأثير**، ج ٨، ص ١٨١. **الخطط** المقريزية، ج ٢، ص ٢٨٨.
(٧) سورة الكهف، الآية: ١٣.
(٨) سورة نوح، الآية: ٢٤.
(٩) **اللهوف**، ص ٩٥ و٩٧.
(١٠) راجع أيضاً تفريغنا لتسجيلات الخطيب السيد عبد الزهرة الكعبي» فيما يلي الذي نود من خلاله التوضيح المناسب لما لتأثير الرواية الأوقع، والأشمل على المسار التأريخي، والاجتماعي.

في العشرة أيام الحرم، من شهر محرم، والأربعين من بعده، وهذا التسجيل الصوتي من أشرطته المتداولة بين الناس ما تزال حتى الآن ذات فعالية قوية ليس في العراق، وإنما أيضاً لدى أبناء الطائفة الشيعية في كافة الدول التي يتواجدون فيها خليجية، عربية، وعالمية. فيها وصف ليوم المقتل، ووصف آخر لذكرى الأربعين، وإننا إذ نقدم هذا المثال هنا لا نتدخل في الجانب الديني الذي له محلّلوه، ومناقشوه، وأئمته. إن التأثير القوي لفعل الرواية والأداء في السيرة الحسينية، هو الذي ساعد على بقائها وترسيخها على مدى أجيال، وأجيال. وهذا الفعل بالتأكيد من خواص المسرح الشرقي الإسلامي الذي أدى واجبه، وما يزال. وما متابعتنا له إلاّ من جانب التأكيد على ضرورة وعي دور المسرح في ترسيخ المبادىء والمعلومات عن طريق التشخيص المسرحي.

السيرة الحسينية المروية

وفيما يلي نقدم مثالاً شفاهياً منقولاً عن شريط تسجيل للمرحوم السيد عبد الزهرة الكعبي الراوي والمنشد. نستعرض فيه سياق رواية أحداث يوم المقتل «العاشر من عاشوراء» في الفقرة الأولى منه، ورواية سير أحداث ذكرى الأربعين من المقتل:

أولاً: - المقتل في يوم عاشوراء[1]

١ - يبدأ الراوي «عبد الزهرة الكعبي» بتقديم نفسه، ثم يستهل حديثه بمقدمة ترحيبية تسبقها آيات التحميد، والشكر والتمجيد، وتلاوة الأدعية، ينبري خلالها إلى الناس للتأكيد على الارتياح في جلستهم وأخذهم مواقع مناسبة لأن جلستهم سوف تطول. والحقيقة أنه بمجلسه كراوٍ، لا يُسمع فقط من قبل الجالسين والواقفين، وإنما أيضاً من هؤلاء الذين ينصتون إليه من خلال مكبرات الصوت في الحواري الجانبية، لمن لا يستطيع التقرّب إليه من شدة الزحمة، وبخاصة النسوة[2].

ويعتمد «الكعبي» في تقديمه على ما يقرأه، لكنه يرتجل الكثير من الأحاديث، والأدعية، والمناجاة التي يحفظها، كما في تقديمات، وتعديدات كل من الخطيب «ملا عطية علي البحراني»، والسيدة «فاطمة بنت الحاج آل إسماعيل».

---

(١) **مقتل الحسين**، بقلم السيد عبد الرزاق الموسوي المقرم مصدر سابق.

(٢) **الحسين ثائراً، والحسين شهيداً**، مسرحية شعرية ثنائية في إصدارين من تأليف عبد الرحمن الشرقاوي، الكتاب الذهبي لعام ١٩٨٣ دار روز اليوسف.

أما الجمع الذي استقر أمام الراوي «الكعبي» فقد حرص القدوم، وتهيأ واختار مكانه في الجلوس، كما كان حريصاً في الأيام التسعة الأولى، لكنه وكما يبدو أن هذا اليوم يختلف عن باقي الأيام السابقة، لأنه يوم لا يقتصر فيه الاحتفال على السماع والتعديد، وما يتبعهما، ولكنه يتميز أيضاً بوجود فعاليات تشخيصية مهمة تستعرض الأحداث كلها، وفي تلاوة السيرة سوف تتلى تفاصيل المعركة، ومقتل الحسين «عليه السلام» مع أصحابه. أما في الحارات، وفي وقت مناسب آخر، فسوف تشخص بالأفعال والأشخاص، والحوارات المرتجلة هذه الأحداث. لكن المكفرين الناذرين، هم وحدهم الذين قد لبسوا الملابس البيضاء «كالأكفان»، وحلقوا رؤوسهم للتضحية بضرب رؤوسهم بالخناجر، والقامات، والسيوف. ومن خلال مهارة معهودة لا تؤذي. وقفوا في طابور طويل، ومنذ الصباح الباكر في «حضرة» مسجد «الحسين ـ عليه السلام» أي في باحته. أما اللطامين، وأصحاب التضحية بـ «الجنازيز» فهم من هؤلاء الجالسين على العموم. ولا يبدو من هذا الوصف إلاّ الجزء القليل مما يدل عليه هذا التمازج بين جوانب مختلفة من الأداء، فهنا في السرادق المقام للرواية يحتشد الناس للسماع، وهناك في نفس الوقت في الخارج تشخيص حي على الأقدام، لكنه غير متقيد في هذا السياق لأن التعليمات مدوّنة أصلاً، ولكن الحدث لن يبقى مرتبطاً بهذه المساحة من المكان، وإنما يتجوّل في مركز المدينة القريب من الحسينيات أو الجوامع الرئيسية مثل «العباس والحسين» على وجه الخصوص. لذلك يكون تأثير فعل امتزاج الرواية بالتشخيص قوية عندما تترافق زمنياً. وغالباً ما يفصل التشخيص عن الرواية خصوصاً إذا ما قدم التشخيص في باحة المسجد «الحضرة». لكن فعل التأثير، والتوقيع باللطم بالأكف على الصدور، هو الفعل الملازم لتقاطعات الرواية مع الغنائيات الهجائية، وهو الفعل الأكثر بروزاً، ووضوحاً.

٢ ـ ويقوم «الكعبي» منذ البداية باستعراض السيرة الحسينية في يومها الأخير، وذلك من خلال موقف الحصار الذي وقفه الحسين «عليه السلام» وآل البيت، وهم عطاش لا يستطيعون الوصول إلى الماء بسبب الحصار. ويقوم «الحسين بن علي ـ عليه السلام»، كما يذكر «الكعبي» بقوله:

- «لما أصبح الحسين في يوم عاشوراء، وصلى بأصحابه صلاة الصبح، قال خطيباً فيهم:

- سبحانه تعالى قد أذن في قتلكم، وقتلي هذا اليوم، فعليكم بالصبر والقتال...إلخ».

ويقول «الكعبي»:

- «ثم صفهم للحرب فكانوا سبعة وسبعين رجلاً، ما بين راجل وفارس وزّعهم بخطته

الحربية، فجعل «زهير بن القين» في الميمنة، و«حبيب بن مظاهر» من الميسرة، وأعطى أخاه «العباس» رايته، وثبت هو وأهل بيته في القلب».

«يُسمع منذ الآن بكاء وعويل من جانب جمهور الراوي».

ثم يقول «الكعبي» في مقطع لاحق:

ـ فنادى «شمر» بأعلى صوته:

ـ يا حسين تعجّلت بالنار قبل يوم القيامة.

فقال الحسين «عليه السلام»:

ـ من هذا؟ كأنه «شِمرُ بن ذي الجوشن»؟

قيل له:

ـ نعم.

فقال الحسين «عليه السلام».

ـ يابن راعية المعزى أنت أولى بها مني طلباً...

وفي موقف آخر يصف «الكعبي» الحسين «عليه السلام» قائلاً:

وقال الحسين «عليه السلام»:

ـ أكره أن أبدأهم بقتال.

ولما نظر الحسين «عليه السلام» إلى جمعهم، وكأنه السيل، رفع يديه بالدعاء وقال:

ـ اللّهم أنت ثقتي في كل كرب. ورجائي في كل شدة. وأنت لي في كل أمر نزل بي، وثقة، وعدة.... إلخ.

ويصف «الكعبي»، ومن خلال البكاء والنشيج للجمع السامع خطبة الحسين «عليه السلام» في الجمع عندما ركب راحلته «جمله»، لكي يجنبهم، وآل البيت عن وغى الحرب، والقتل والذبح، مذكّراً إياهم بحسَبه الشريف، وانتسابه، ولا ينسى «الكعبي» وهو يسرد الخطبة، وصف ما يدور من حول «الحسين ـ عليه السلام» من ردود أفعال لدى أصحابه، وبخاصة النساء، أو لدى الأعداء إلى أن يقول:

ـ قال الحسين «عليه السلام»:

ـ إذا كنتم في شك من هذا القول، أفتشكون بأني أنا ابن بنت نبيّكم، فوالله فما بين المشرق، والمغرب ابن نبيّ غيري.

فأخذوا لا يكلمونه. فنادى:

ـ يا «شبث بن ربعي»، ويا «حجار بن أبجر»، ويا «قيس بن الأشعث»، ويا «زيد بن الحارث» ألم تكتبوا إليّ أن أقدم، وقد أينعت الثمار، واخضرّ الجمّار، وإنما على جند لك مجندة.

فقالوا:

ـ لم نفعل.

فقال:

ـ سبحان الله، بلى والله، لقد فعلتم.

ثم قال:

ـ أيها الناس إذا كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض.

فقال «قيس بن الأشعث»:

ـ أولاً تنزل على حكم بني عمك، فإنهم لن يروك إلاّ ما تُحب، ولن يصل إليك منهم مكروه.

فقال الحسين «عليه السلام»:

ـ «أنت أخو أخي، أتريد أن يطلبك «بنو هاشم» أكثر من دم «مسلم بن عقيل». لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل. ولا أفرّ فرار العبيد. إني عذت بربي وبربكم من كل متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب.... إلخ».

ثم أناخ راحلته، وأمر «عقبة بن سمعان» فعقلها. ويعلّق الراوي «الكعبي» بقوله منشداً:

ـ إن أنسى لا أنساه عندما قام خاطباً. فإذا هم لا يدركون خطابه، يدعو:

ـ ألست أنا ابن بنت نبيكم وملاذكم إن صرّف الدهر نابه. هل جئت في دين النبي «ص» ببدعة؟

«يُسمع صوت أحد المنصتين من جمهور الراوي الكعبي قائلاً:

ـ حاشاه».

أم كنت في أحكامه مرتاباً؟ أم لم يوطد دين النبي؟ فقد ألمّ فيكم عشرة، وكتاباً، وإن لم تدينوا بالمُعاذ فراجعوا أحسابكم، وإن كنتم أعراباً.

فغدوا حيارى لا يرون لوعظه إلاّ الأسنة، والرماح جواباً.

ويصف «الكعبي» بدء الأحداث بالتحرشات من قبل فرسان الأعداء كحادثة «عبد اللّه بن حوزة التميمي» الذي ينادي على «الحسين ـ عليه السلام» بقوله:

ـ أبشر بالنار.

فيرد عليه الحسين «عليه السلام» بقوله:

ـ كذبت، بل أُقدم على رب غفور كريم، مُطاع شفيع. فمن أنت؟ قال:

ـ ابن حوزة.

فرفع الحسين «عليه السلام» يديه حتى بدا بياض إبطيه، وقال:

ـ اللّهم خذه إلى النار.

فغضب «ابن حوزة» وأقحم فرسه إلى الحسين «عليه السلام». وكان بينهما نهر. فعلقت قدمه بالركاب، وجالت به الفرس، وسقط عنها، وانقطعت قدمه، وساقه، وفخذه، وبقي جانبه الآخر معلقاً بالركاب وأخذت الفرس تضرب به كل حجر وشجر حتى هلك.

وبعد وصف «الكعبي» مخاطبة «برير بن حُضير» القوم، لتحاشي الحرب، وكيف أن الأعداء لم ينصتوا له، بل رموه بالسهام. يروي «الكعبي» كيف ركب الحسين «عليه السلام» فرسه، وأخذ مصحفاً شريفاً، ونشره على رأسه. ووقف بإزاء القوم لينهاهم هو الآخر عن الحرب، لكنهم أبوا، ولم يستجيبوا، فيصف «الكعبي» فيما يصف، كيف استدعى «الحسين بن علي»، «سعد بن عمر» قائلاً:

ـ فدُعي «سعد بن عمر» إليه، وكان هذا كارهاً لا يحب أن يأتيه. فقال الحسين «عليه السلام» لعمر:

ـ «أتزعم أنك تقتلني ويوليك الدعيّ» ـ يقصد هنا «يزيد بن معاوية» ـ بلاد «الري، وجرجان»، واللّه لا تتهنأ بذلك عهداً لمعهود. فاصنع فأنت لا تفرح من بعدي بدنيا، ولا بآخرة. وكأني برأسك على قصبة يتراماه الصبيان في «الكوفة»، ويتخذونه غرضاً بينهم.

فصرف «سعد» بوجهه عنه مغضباً. ولما سمع «الحر الرياحي» كلام «أبي عبد اللّه الحسين ـ عليه السلام» واستغاثته أقبل على «عمر بن سعد» وقال له:

ـ أمقاتل هذا الرجل.

قال عمر:

ـ أي واللّه قتالاً أيسره أن تسقط فيه الرؤوس وتطيح الأيدي.

قال الحر:

ـ ما لكم فيما عرضه عليكم من خصال.

فقال عمر:

ـ لو كان الأمر إليّ لقبلت، ولكن أميرك «ابن زياد» يأبى ذلك. فتركه «الحرّ» ووقف مع الناس. وكان إلى جنب «قرّة بن قيس».

فقال «الحرّ» لـ «قرّة»:

ـ هل التقيت فرسك؟

فقال قرّة:

ـ أفلا.

فقال «الحرّ»:

ـ أتريد أن تسقيها؟

فظنّ «قرّة» أن «الحرّ» يريد الاعتزال، ويكره أن يشاركه أحد، فأخذ «الحرّ» يدنو من «الحسين ـ عليه السلام» قليلاً، قليلاً. فقال له «المهاجر بن أوس»:

ـ أتريد أن تحمل؟

فسكت «الحرّ»، وأخذته الرعدة. فارتاب «المهاجر» في هذا الحال وقال للحرّ:

ـ لو قيل لي من أشجع أهل «الكوفة»، لما عدوت صراحة الذي أراه منك.

فقال «الحرّ»:

ـ إني أخيّر نفسي بين الجنة والنار.

«صمت عميق، ونحيب متقطع في الشريط».

والله لا أختار على الجنة شيئاً، ولو أحرقت.

ثم ضرب جواده متجهاً نحو «الحسين بن علي ـ عليه السلام»، منكّساً رأسه حياءً من «آل الرسول».

ويصف «الكعبي» حال «الحرّ»، وهو يطلب التوبة من اللّه أمام «الحسين ـ عليه السلام»...إلخ.

٣ ـ وفي وصف «الكعبي» للمواقعات، وتشخيصه للأحداث بالتفصيل، يروي للجمع كيف كان الرجال يتبرعون بالفداء بأنفسهم أمام «الحسين ـ عليه السلام»، أفراداً، وأزواجاً، مع ذكر أسمائهم، وأنسابهم. ثم يصف هذه الموقعة بقوله:

«فلما ذهبت الخيل لترجع، رشقهم أصحاب الحسين «عليه السلام» بالنبل، فصرعوا رجالاً وجرحوا آخرين.

ويبدو لنا أن الراوي «ربما هي مهمة كل راوٍ» أنه ينقل لنا الأحداث من الموقع الذي يرغب أن يكون شاهداً عليها، أي إنه يفصل لنا الوصف حتى في شكل وحركة الشخصيات للجهة التي ينحاز إليها هو وجمهوره، بينما يتحاشى الدخول في تفاصيل وصف الجانب الآخر، وإذا ما عمد لوصفهم، أبرز الجانب السلبي فيهم غالباً لذلك تختصر، بل وتندغم كافة المعلومات عن الطرف الآخر، ولا يبقى لدينا ما نسمعه من الراوي إلاّ الجانب الذي نحبذ سماعه. ويضيف الراوي «الكعبي» بقوله:

ـ ثم حمل «عمر بن الحجاج» من نحو «الفرات»، فاقتتلوا ساعة، وفيها قاتل «مسلم بن عوسج»، فشد عليه «مسلم بن عبد اللّه، وعبد اللّه البجلي». ودارت لشدة السِجال غبرة شديدة. وما انجلت إلاّ و«مسلم بن عوسجة» صريعاً وبه رمق، فمشى إليه «الحسين ـ عليه السلام»، ومعه «حبيب بن مظاهر». فقال له الحسين «عليه السلام»:

ـ رحمك اللّه يا «مسلم». ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[1] ودنا منه «حبيب» ثم قال «حبيب»:

ـ لو لم أعلم أني في الأثر، لأحببت أن توصيني بجميع ما يؤلمك، فقال له «مسلم»:

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

ـ أوصيك بهذا.

«يسمع عويل، ونحيب عميق الأسى من جمهور الحضور».

وأشار إلى «الحسين بن علي ـ عليه السلام».

ـ أن تموت دونه.

فقال «حبيب»:

ـ أفعل.

ويقوم الراوي «الكعبي» بإنشاد هجائية، بكائية لإثارة الشجون، والبكاء، واللّطم على الصدور بالأكف، والضرب بالجنازير. حتى يعود «الكعبي» لإكمال الرواية فيقول:

ـ «وصاحت جارية:

ـ وامسلماه. يا سيداه. يا «ابن عوسجتاه».

فتنادى لها أصحاب «ابن الحجاج»، وقالوا:

ـ قتلنا «مسلماه».... إلخ».

ويبدو أن تقديم شخصية الجارية وهي تصرخ لتستغيث بـ «ابن عوسجتاه» من أجل أن تثير الشجون لدى جمهور الراوي «الكعبي»، خصوصاً وأنه وضعها كشخصية منفصلة عن الحدث. ربما تكون قد صرخت من «الفسطاط» الخيام التي تسكنها النساء، وهي ليست قريبة من الحدث، لكن وضع الرواية يتجاوز المكان دائماً، لأنه ينتقل باللسان من ساحة معركة إلى مقر القيادة، وإلى داخل سكن النساء، أو إلى معسكر الأعداء، أو المدينة القريبة، وأهلها غير المهتمين بالحدث الجاري، لذلك يتاح للراوي أن يستغل هذه الاستغلالات في الغالب لأغراض الشدّ.

٤ ـ ويروي «الكعبي» الموقف الأخير عند غروب الشمس، وكيف التفت «ابن ثمامة الصاعدي» إلى الشمس فرآها وقد زالت، فقال لـ «الحسين ـ عليه السلام»:

ـ نفسي لك فداء، إني أرى هؤلاء قد اقتربوا منك، لا واللّه لا تقتل، حتى أقتل دونك. وأحب أن ألقى اللّه وقد صليت هذه الصلاة التي دنا وقتها.

فرفع «الحسين ـ عليه السلام» رأسه إلى السماء وقال:

ـ ذكرت الصلاة، جعلك اللّه من المصلين الذاكرين.

ويعلّق «الكعبي» على هذه الحادثة بقوله:

ـ انظروا أيها المسلمون، دعى الحسين بن علي «عليه السلام» لهذا العبد الصالح بأعظم دعاء وهو أن قال:

ـ «جعلك اللّه من المصلّين».

«فيأتي رد الفعل حاضراً من قبل جمهوره الذي يردد آيات الذكر، ويتشهّد» ويصف «الكعبي» في النهاية المعركة الفاصلة مع «الحسين ـ عليه السلام» وأصحابه، ابتداءً من مقتل «الحر» بدرامية دامية وموقف أمه، وانتهاءً بموت «الحسين ـ عليه السلام» وقطع رأسه. و«الكعبي» يستغل في هذه الأحداث وتشخيصها إثارة الشجون بين الفينة والأخرى، ومن خلال الغنائيات الهجائية، وبتلوينات صوتية تتناسب كلماتها.

ثانياً: ـ ذكرى الأربعين على مقتل الحسين «عليه السلام»

١ ـ إن هذه الرواية في ذكرى الأربعين على مقتل «الحسين»، هي تكملة غير منقطعة بالأحداث، لا بالوقت، لليوم الأخير أي يوم المقتل «يوم عاشوراء». ولكن فيما بعد المعركة الفاصلة وما جرى بعدها من أعمال السبي لأهل «الحسين ـ عليه السلام»، وأخوته وبناته. حيث يبدأ الراوي «الكعبي» بالإنشاد والمديح كالعادة، لغرض تهيئة الناس، ولكي يستفز مشاعرهم، ويثير شجونهم. لكنهم هنا وطوال سرد الأحداث منذ المقتل، وحتى دفن الرأس مع الجثة، فيما بعد أربعين يوماً يعيشون الحزن الكامل روحاً وفعلاً، مأكلاً ومشرباً.

٢ ـ ويقوم «الكعبي» هنا بالاستشهاد بالرواة الآخرين، وبمصادر عيانية شاهدة، أو مراجع مكتوبة أكثر مما استشهد به في يوم المقتل، ولا ندري سبباً معيناً لذلك، سوى ما يغلب على مهنة الرواة، وبخاصة هؤلاء الذين يتعرضون لأمور حساسة، تأريخية كانت، أم سياسية، أم دينية، وهنا في موقع «الكعبي» الحساس الذي يمارس مهنة شاقة تندمج فيها الرسالة الاجتماعية في السياسية وبالتالي تصب من خلال قالب ديني هي الأكثر دقة وحرصاً، ووعياً لتفادي أضرار غير محسوبة كما ذكرنا آنفاً.

٣ ـ ويبدأ «الكعبي» أولاً بالاستشهاد بـ «ابن طاوس» حيث يشير إلى قوله:

ـ «وتسابق القوم بالآلاف على بيوت «آل الرسول»، وقرة عين «الزهراء» البتول. فخرجن

بنات الرسول «ص» وحريمه. يتساعدن على البكاء، ويندبن لفراق الحماة والأحبة. قال «حميد ابن مسلم»:

«نلاحظ أن الراوي الثاني هنا، «ابن طاوس» يستشهد هو الآخر براوٍ ما قبله. أي راوٍ ثالث»:

ـ ورأيت امرأة من بني «بكر بن وائل» كانت مع زوجها في أصحاب «عمر بن سعد» فلما رأت القوم قد اقتحموا على نساء «الحسين ـ عليه السلام» في فسطاطهم، وهم يسلبون أخذت سيفاً، وأقبلت نحو الفسطاط، وقالت:

ـ «يا آل «بكر بن وائل» أتسلب بنات الرسول.....إلخ».

«ونلاحظ أخيراً كيف أن الراوي الثالث استحضر بطلته. فتكلمت هي الأخرى ولكن بدلاً عنه ولكن على لسان يعود في النهاية إلى لسان الراوي الأول، أي لسان «الكعبي» مما أبعده أربع مراتب عن نفسه تدرّجاً معنوياً، نسي هو والجمع السامع أنه هو نفسه الناطق بكل عبارة لا غيره. مما جعل جمهوره، وهو ينصت بتوق إلى سياق الأحداث، يصعق في خاتمة الحادثة هذه فلا يتمالك أفراد الجمهور مشاعرهم من البكاء، والنحيب، خصوصاً وأن السبايا نساء، والمدافعة عنهن امرأة، ولكن زوجها من صفوف الأعداء».

ويصف «الكعبي» كيف أخرجت النساء باكيات، حاسرات الرؤوس، حافيات، واصفاً بعد أن استثار عواطف الجمع «زينب بنت علي» وهي تندب أخاها، عندما رأت جثته، ورأسه قد قطعت عنها. ومنظر ابنة الحسين «عليه السلام»، «سكينة» التي كانت تسأل «زينب» عن حال الجسد أمامهما؟ ولمن هو؟ ولماذا تبكيه عمتها؟ فتعرف من بين النشيج، والبكاء الأليم بأن جثة المذبوح لأبيها. وإن هذه التي أمامها كانت حتى الأمس كيان والدها الحسين الذي طالما رمت بنفسها في أحضانه فترمي «سكينة» بنفسها لا شعورياً على الجثة، ولا يقوى الجمع على البكاء وقتها في الحدث الموصوف. أو هنا في حضرة الراوي حيث تتعالى الصرخات مجدداً، وقد صحبه بكاء الراوي «الكعبي» نفسه حيث ختم الرواية ببكائية غنائية هجائية، انطلق معها ضرب الصدور بالأكف. أثرت على جمهوره من قوة تعبيره، وصدق مشاعره المنقولة عن شاهد عيان.

٤ ـ وبعد هدوء مؤقت يصف «الكعبي» منظر جمع الرؤوس المقطع منها، والذي قطع في

الآن. ومنها رأس «الحسين ـ عليه السلام»، وكيف أخذت إلى دار «عبيد اللّه بن زياد»، وذلك عندما تسارعت القبائل لجمعها حتى تنال رضى الحاكم. فيعدد «الكعبي» أسماء القبائل، وتبعيتهم لقواد «ابن زياد» ورجالاته، وعدد الرؤوس التي جمعها كل من هذه القبائل بالتتابع.

وفي المسيرة إلى «الكوفة» يصف «الكعبي» حال المسببين، وهم يتبعون الرؤوس التي أخذت معلقة على الرماح، وتعليقات المارة من الأهالي في دروب مدينة «الكوفة». وردود الأفعال بينهم، وبين آل «الحسين ـ عليه السلام» وبخاصة خطبة «علي بن الحسين، الملقب بزين العابدين»، وخطبتي «زينب بنت علي»، في جمع من الناس يعيرهم فيها بتخاذلهم وجبنهم. كذلك ما جاء في خطبة «أم كلثوم بنت علي». وخطبة «زينب» حيث أشاروا إلى خذلان وجبن أهل «الكوفة»، للحسين «عليه السلام». بيّنوا مآثر أهلهم وما لانتسابهم وانتساب «الحسين ـ عليه السلام» من أهمية، وكأن «الكعبي» هنا يذكّر الناس من خلال سرده لهذه الخطب وتفاصيلها بالحادثة والتأريخ وغلطة الأجداد من جهة، وبالعلم وحسن الأخلاق وصدق الوفاء بالوعد، وخصائل الثقة والإيمان التي تربى عليها آل البيت من جهة ثانية. إضافة للتذكير بأن ضحايا ذلك العداء لم يكونوا إلاّ من أشرف البشر، ومن أفضل البيوت في المسلمين، وهم ذرية رسولهم محمد «ص».

٥ ـ وعندما يصف «الكعبي» مشهد إحضار رأس «الحسين» بين يدي «عبيد اللّه بن زياد» لكي يتشفى بغريمه، يذكر «الكعبي» استياء الناس من فعلته هذه، في هذا الموقف. فينشد «الكعبي» غنائية هجائية على لسان «زينب» تتعلّق بالجانب الذي يثير سخط الناس واستياءهم مما يساعد على إثارة حماس وشجون الجمهور. ثم يقوم بوصف تفاصيل الحدث، وخصوصاً وصف تفاصيل وجه «الحسين ـ عليه السلام» على لسان «أنس بن مالك» الذي يقول:

ـ «كان أشبه برسول اللّه.

وكان «أنس» مغرماً بالبسمة. وكان إلى جانبه «زيد بن الأرقم» صاحب «رسول اللّه ـ ص»، وهو شيخ كبير، فلما رأى «ابن زياد» يضرب ثنايا رأس الحسين «عليه السلام» قال:

ـ لا تضرب البسمة.

«يسمع عويل وبكاء حارق في الشريط من جمهور المنصتين للكعبي».

هاتان الشفتان، فو اللّه لا إله إلاّ غيره، لقد رأيت شفتيّ رسول اللّه ما لا أحصي كثيراً يقبلهما، ثم انسحب باكياً... إلخ».

٦ - ويروي «الكعبي» فيما بعد أن تهدأ عاصفة الهياج الجمعي، كيف يؤمر «ابن زياد» من قبل «يزيد بن معاوية» بنقل رأس «الحسين - عليه السلام»، وأصحابه، وأهله إلى «الشام»، مشيراً إلى رواية «ابن الجوزي» الذي يصف مراحل رحلة الوصول إلى «الشام»، وكيف حلّت القافلة في منزل «خان» قرب دير نصراني، وكان من عادة الحرس أن يخرجوا الرؤوس من صناديقها، ويشكّوها بالرماح. «وكان في الدير راهب «هو وهب النصراني في الغالب» نهض في الليل ليسأل عن صاحب الرأس الذي رأى نوراً يحل عليه». فعرف أنه لابن بنت «الرسول - ص». فقايض الحرّاس بعشرة آلاف درهماً. حتى يبيتوا الرأس عنده. وقام طوال الليل يطيّبه بالبخور والطيب، وهو يبكي.

٧ - وعندما يصل الركب إلى مشارف «الشام»، يشير «الكعبي» إلى رواية «سهل بن سعد الساعدي» الذي يرى زينة على أبواب «دمشق»، فيستغرب لمظاهر العيد في غير وقته. لكنه عندما يعلم الخبر يقول:

- «يا للعجب أيهدى رأس «الحسين - عليه السلام» والناس يفرحون!».

ويصف «الكعبي» ابتهاج «يزيد» وارتجاله الأشعار والأهازيج التي تتغنى بنفسه فخراً، ورفعة، وقوة، وهو يستقبل رأس «الحسين - عليه السلام»، ويفعل بالرأس كما فعل «عبيد اللّه بن زياد» من قبله. بل و«يزيد» بفعله عندما يقوم بتقليب ثنايا الرأس بالمسطرة، فيستفز هذا المنظر الناس في الواقع، ويبكي الجمع هنا في وقت رواية «الكعبي». وفي هذا الموقف يصف لنا «الكعبي» اعتراض «علي بن الحسين» الذي يكون مربوطاً من رقبته. فيقوم «يزيد» ليفكّ عنقه بمبرد في مشهد درامي، فتسيل الدماء من رقبته، يتبعها «الكعبي» بغنائية هجائية جديدة على لسان «زينب» عمته، تستثير فيها «بالأحرى يستثير الكعبي فيها» شجون الناس.

٨ - ثم يستشهد «الكعبي» بـ «ابن الأثير، في الكامل» ليصف رجلاً شامياً يريد شراء «فاطمة بنت الحسين» كجارية له، تتراوح الرواية فيها بين جهل الرجل لأصل «فاطمة» أو لعلمه بها، والغاية عموماً، هي نوع آخر من تقوية عنصر الشحن العاطفي.

٩ - وينتهي الموقف بمجموعة ارتجالات لخطب متعددة يبدأها «علي بن الحسين»، ثم

«يزيد»، ثم «زينب» يحاجج بعضهم الآخر، ويرد البعض على الآخر، تنتهي بخطبة بليغة لـ «علي بن الحسين» في المسجد يجادل فيها «بني أمية»، ومنهم «يزيد» الحاكم، على الأحقية في الحكم. ورغم محاولات «يزيد» لإفشال الخطبة، وذلك عند استعانته بخطيب المسجد عدة مرات، لكنه يجد أن الخطر محدق به، لأن الناس تميل كما يبدو لحجج «علي بن الحسين» القوية والمقنعة. فيقرر «يزيد» إعادة السبايا إلى ديارهم في «المدينة المنورة»، وإعطائهم ما يطلبون.

١٠ - فأخذوا رأس «الحسين - عليه السلام» معهم. وساروا في طريقهم إلى «المدينة» لكنهم طلبوا من الدليل أن يمرّ بهم على أرض العراق ليمروا على قبر «الحسين - عليه السلام»، لكي يعيدوا الرأس إلى الجسد، ويدفنوهما معاً. وذلك بعد أربعين يوماً من المقتل.

١١ - ويروي «الكعبي» عن «عطية العوري» ما صار من أمر «جابر بن عبد اللّه الأنصاري»، عند زيارته لقبر «الحسين - عليه السلام» بقوله:

- فلما دنا «جابر» من شاطىء «الفرات» اغتسل وتأزر، ثم فتح صرة فيها «سُعد» ونثره على جسده، وتقدم إلى قبر «الحسين - عليه السلام»، فغشي عليه. فلما رشّه «عطية» بالماء أفاق ولديه هاجس يوحي إليه بأن هناك من يدنو من القبر من مكان بعيد، وهؤلاء هم أهله. وإذا بجواد قادم، فعرفا أنه «علي بن الحسين» وعياله، والرأس «رأس الحسين». فأقاموا مراسيم الدفن، وظلوا ثلاثة أيام حتى رحلوا جميعاً إلى «المدينة المنوّرة».

١٢ - وعندما وصلوا إلى «المدينة المنوّرة» طلب «زين العابدين، علي بن الحسين» من «بكر ابن مظلم» أن يسبقهم إلى «المدينة» لكي ينعى «الحسين - عليه السلام». وعندما دخلوا إلى «المدينة»، خرج كل من فيها من نساء، ورجال وبكى.

ويرتجل «الكعبي» في الختام بكائيته الأخيرة على لسان «زينب» أيضاً. هي الختام ليصف فيها الفرق بين الخروج من «المدينة»، والعودة إليها.... عادوا بلا رجال، ولا بنون، بينما كان خروجهم منها أجمعين.

وهذا النوع من الرواية في رأيي بأمثلتها الحية، وعلاقة هذا الراوي القوية بجمهوره، من خلال التوجّه لاستغلال النقاط المضيئة والمفيدة في شحن جمهوره للموقف المطلوب، وهذا هو أحد أسرار ديمومة هذا النوع من السير الشعبية الدينية، وبقائها حتى الآن.

نصوص شعبية بحاجة لتدوين ودراسة

١ - ومن الأمثلة المتوفرة ما جاء في كتاب «الجمرات الودّية في المودّة الجمرية»[1]. في مقطع «في ليلة العاشوري»، قوله:

(طلعت تجر الحزن وقت العشية «المساء». أو «مرت» على فسطاط أبو سكنة شجية/

هلت ادموع «انهمرت دموع» العين لمن شافت احسين «عندما رأت الحسين ـ عليه السلام» ـ محتار جالس والمدامع على الخدين/

متصور الفقد أخوته أو هتك النساوين «وهتك أعراض النساء» ـ يتلهف وايعتب «يعتب» على الدنيا «الدانية»).

إلى أن يصل في قوله:

(قلله «قل له» ينور العين باكر «غداً» عينك اتشوف «ترى» ـ ابجنب الشريعة ابصولتي شفعل «ماذا أفعل بصولتي عند مرسى الماء» بالصفوف/

كان القضا «القضاء» ساعد أو سلمت «وسلمت» لي هلكفوف «هذه الكفوف» ـ لترك أهل كوفان كل بيت ابعزيه «فيه عزاء»/

كله لأجل زينب تراهي «فإنها» ذوبتني ـ شافت «رأت» الجيش اوبقيت «وظلت» تنحب واشبيتني «فشبت».... إلخ).

وفي مقطع آخر يصف مجيء «الحسين ـ عليه السلام».... إلى مصرح «العباس ـ عليه السلام»، فيقول:

(يحسين «يا حسين» قوموا امن «من» الخيم ذبوا «انزعوا، أو ارموا» العمايم «العمم» ـ هذا بدركم منخسف يولاد «بدركم قد أصابه خسوف يا أولاد» هاشم).

ثم يقول في مقطع آخر:

(اتخوصر على عضيدة يودعه اوصعد انفاس «تخصر بعضده ليودعه، وصعد الأنفاس» ـ يا جمرة الكون الذي ما قط تنداس «تداس»/

---

(١) **الجمرات الودية في المودة الجمرية**، ص ٥١ ـ ٥٢.

ظهري تراهو «فإنه» انكسر من فقدك يعباس «يا عباس» ـ طاح العلم وانفلتت مني العزايم «سقطت الراية، وانفرطت عني العزايم»/

عزم يشيله «يحمله» للمخيم قال ما روح «لا أذهب» ـ خلني «دعني» على الشاطي «الشاطىء» اعالج طلعة الروح).

وفي مقطع «رثاء القاسم» يقول بعد التقديم:

(وشهالعرس «وما هذا العرس» لقشر «النحس» عليه «عليّ» يا مسلمين ـ كيف العرس واحنا انتوقع «ونحن نتوقع» ذبحة الحسين).

حتى يصل إلى مقطع:

(مفجوع على مهجة قلبها بالأيادي «في الأيادي» ـ أو هذي «وهذه» العساكر حايطة «تحوطني» يا الولد بيه «فيه»)[1]..

أما في مقطع «في مصرع الحسين» فيصف قائلاً:

(فرت بدهشة مخدره «حيدر» الكرار ـ يم العليل تقول اقعد «اجلس» وانظر شصار «ماذا حصل»/

يبني «يا ابني» الشمس غابت وهذا الكون مرجوح ـ والجو مضطرب والأرض ياسورنا تموج/

وحسين عهدي بشوفته «برؤيته» من لاح بالفوج ـ والكون متعطل وأظن الفلك ما دار)...

حتى يصل إلى مقطع:

(وإلاّ يتيم وشعب الروح بعويله ـ بليا «بلا» ولي والليل مجبل «مقبل» والعد اشرار «العدوان»)[2]...

وفي مقطع «في غشوة الحسين» يقول:

---

(١) **الجمرات الودية**، للخطيب ملا عطية علي البحراني، الجزء الأول، منشورات مكتبة العلوم العامة، ط ٦ لعام ١٩٨٧، المنامة ـ البحرين.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٣.

(تحير «حار» العسكر يوم طالت غشوة «إغماءة» الحسين ـ شافوه «رأوه» ثلث «ثلاث» ساعات مرمي مغمض العينين/

ناس تقول حسين بطّل «انقطع عن» من ونيه ـ فارقت روحه وأغمضت للموت عينه/

وآخر يقول حسن كلكم تعرفونه ـ صاحب حمية «من أصحاب النخوة» على بناته والنساوين «والنساء»/

أونكان «وإذا كان» تعرفونه حي لو مات ـ هجموا على خيامه وروعوا الفاطميات/

واكان «وكان» هو حي وسمع بالخيم «الخيام» ضجات ـ لازم «لا بد» يثور بشيمته ويحمي الصواوين «الديار»/

أمر العسكر ابن سعد واستحسن الشور «الاستشارة» ـ وذيك «تلك» الحراير «النساء» بالخيم واقلوبها «قلوبها» تفور/

لن الزلم «وإذ بالرجال» والخيل غارت يم «عند» الخدور «خدر النساء» ـ طلعت من خيمها تصيح الملتجاوين «اللاجئين»/

فرت بدهشته صارخة كعبة الأحزان ـ كهف اليتاما انهض ترا هتكو النسوان «فإنه قد هتكوا أعراض النساء»/

حرمه «امرأة» وضعيفة حال تبلوني «قد بلوتموني» برضعات ـ بما سمع صوت الوديعة فتح العين/

قلها «قل لها» يزينب «يا زينب» ذاب قلبي من هالعتاب «هذا العتاب» ـ مقدر «لا أستطيع» أرد الخيل خويه «أريد الخيل يا أخي» عن هالأطناب «عن هذا الإطناب» أنهض ثلث «ثلاث» مرات وأوقع فوق التراب ـ ردي لخدرك يا حزينة لا تضيعين/

سهم البقلبي «الذي بقلبي» نزف دمي ومزع حشاي «نزع أحشائي» ـ مثلث ولا اتمكنت اطلعه «لم أتمكن من إخراجه» إلاّ من قفاي «خلفي»/

خوية «أخي، أو أختي» تخلوني «تدعوني» أموت ومحد «لا أحد» وياي «معي» ـ جبيبي «اجلبي» لي سكينة «مدية» قبل لا يفرّق البين/

صاحت ينور «يا نور» العين والله تحيرت بيك «احترت فيك» ـ تمنيت أجي يمك «آتي إليك» وشوف العمل البيك «وأرى الذي ألمّ بك»/

ولو هو الدوا «الدواء» قلبي لفت «لأسحق» قلبي وأداويك - وأغسل جرح قلبك يخويه «يا أخي» بدمعة العين).

ونلاحظ في هذه الهجائية، وصفاً درامياً كاملاً. يتنقل ما بين الشخصيات، والأحداث في الزمان والمكان. وقد فعلت اللّهجة العراقية بتفاصيلها القريبة من الوجدان فعلها في كثير من العواطف التي تستحث المشاركة، خصوصاً لهؤلاء الذين يحملون الحس الديني، ويشاركون الحس المأساوي، وذلك بتفاصيل حفظوها عن طريق آبائهم، وأجدادهم، وجداتهم، وقد ترسّخت لديهم من خلال الذاكرة الشعبية. وفي هذا السياق، يكون الفرد المتعاطف قد تهيأ اجتماعياً، ودينياً، وعاطفياً، وصارت هذه الأيام العشرة تمثل كل جوارحه. وهي في الوقت نفسه نوع من التكفير، والتطهير السنوي. وأيضاً هي من جانب آخر نوع من النذر الذي تقوم به كثير من السيدات، والآنسات على تطبيق الشعائر، صوماً، وصلاة، وممارستها فيما لو أردن تحقيق أمنية مستعصية ما.

وفي فقرة «الجمرة الوسطى» يعرّف المؤلف هذا النوع من الهجائية، والمراثي قائلاً: [وهي أي «الجمرة الوسطى» المشتملة على ما تعاطاه أهل «البحرين» منذ عشرين عاماً تقريباً. وهو بحر طويل يوازن فاعلات أربع مرات(١)، منها مقطع رثاء «فاطمة»(٢). أما في فقرة «الجمرة الثالثة» فيصفها بأنها: «تشتمل على ما يخص المواكب العزائية»(٣) وهناك أيضاً الأبوذيات](٤).

٢ - أما المثال المكتوب الثاني فهو للسيدة «فاطمة آل إسماعيل» في كتابها «الدموع المؤمنة»(٥) مرثيات مثل رثاء على السجّاد(٦) ورثاء على العباس(٧). ولديها «ردادية على أولاد مسلم». أي ما هو منسوب للردّات، تقول «السيدة فاطمة» في مطلعها:

(آه يالولاد «يا أولاد» ذبحوكم وافجعوني «فجعوني» - شفت العمايم «رأيت العمم» واحترق قلبي وهلت عيوني/

---

(١) المصدر السابق، ١٠٧.

(٢) المصدر السابق، ١٠٩ - ١٢٦ - ١٣٢ - ١٣٣.

(٣) المصدر السابق، ١٣٣.

(٤) المصدر السابق، ٢١٠ - ٢١٣.

(٥) الدموع المؤمنة، فاطمة بنت الحاج جاسم إبراهيم آل إسماعيل - الجزء الأول، ط ٢ لعام ١٩٨٨، المطبعة الشرقية - البحرين.

(٦) المصدر السابق، ٤٧ - ٥١.

(٧) المصدر السابق، ٦١ - ٦٤ - ٦٧ - ٦٨.

هاي العمايم «هذه العمامات» في وين اهلها ردوا «حتى عاد أهلها» عليه «عليّ» - واللّه دهتني كثر المصايب «حيرتني كثرة المصائب» في الغضارية «اسم مكان»/

امطهّر «مطهّر» وطاهر من هجمت الخيل فروا من اديه «يديّ» - وآني وحيدة ما عندي ارجال باللّه اعذروني)[1].

أما في المراثي فتقول السيدة «فاطمة» في قصيدة «رثاء على عشرين صفر»[2]:

(جيت «جئت» من الشام قوموا ياهلي «يا أهلي» - ونزلوني «وأنزلوني»/

وياي «معي» ايتام «يتامى» من يكيهم - ينحلوني «يذوبوني من الحزن»/

من قبرك قوم يخويه «أخي» يحسين «يا حسين» - وانظر احوالي...

حتى تصل إلى المقطع الذي تقول فيه:

(خل يجي «ليأتي» اليوم ينظر حالي - وجيته امنين «مجيئه من أين»/

وخل «ودع، أو دعه» ينزل من على النوق - هالنساوين «هؤلاء النسوة»... إلخ).

٥ - إن المؤلفة كما يبدو من الحفظة اللواتي استطعن تدوين فنهن، بهذا الشكل. غير أن ما هو وراء حرفتهن كثير من الاختصاص، والحرفية المتعلقة، بإثارة المشاعر، وإبرازها. يكون أحد فروع مهنة المعددات اللواتي يتخصصن في إثارة أشجان أهل الميت في المآتم. اقتطف هذا التعبير الجميل الوارد في رواية «السدرة تزهر مرتين»، للروائي «فائز الزبيدي». يصف فيه إحداهن بقوله:

[كانت «زكية» حينذاك فتية وجميلة الصوت. اشتغلت في البداية بـ «درز العبي»، أي خياطة العباءات، الذي تعلمته على يد زوجة «المرزا» الذي جاورهم. والذي كانت امرأته تعلّم الصبايا قراءة القرآن، و«شيرازية العبي» أي فن خياطة العباءات. وهناك حفظت «زكية»، جزأين من القرآن. وقد جلب جمال صوتها، وما تحفظه من القرآن أنظار «ملة أسمة»، التي علمت الأرملة الشابة «زكية» فن إثارة أشجان النساء. وإيقاظ وحشة الحياة النسائية ليتشرب بها الجسد كله. فيمارس اعتراضات لم تعرف أسماءها، ولا امرأة واحدة][3].

(١) المصدر السابق، ١٠٠ - ١٠١.

(٢) المصدر السابق، ١٣٤ - ١٣٥.

(٣) السدرة تزهر مرتين، فائز الزبيدي - دار صادر بيروت ١٩٨٨ ص ٥٨.

ويبدو أن اتقان هذه المهنة «مهنة استدرار الدموع» ليس سهلاً. ولا بدّ للمُشخصة من مواصفات تتعدّى جمال الصوت، وفطنة الحيلة، وسرعة البديهة. وهو وفرة المشاعر، وغزارتها لكي تتدفق حالما تستفزها المحترفة. لذلك كان هناك تميز بين «عدادة»، وأخرى، بدرجة الإجادة، وقوة التأثير، وصدق المشاعر. كأنما يدخل فنهن في عداد دروس ستانسلافسكي المتخصصة بحرفة فن التمثيل.

الفصل الثالث

آثار الأفعال الدرامية والملحمية التعازي

أولاً ـ ما الراوي الديني؟

إن قارىء السيرة الدينية هذه، يعتمد على فرعين من فروع المهنة وهي: الأدوات الصوتية، وفنون اللغة، وفن الخطابة، وفنون الإلقاء والرواية من جهة وفن الإشارة والتلويح من جهة أخرى. ففي الأولى يرتكز قارىء السيرة على فرعين:

الأول ـ ما يختص باللغة ومجالات الإتقان في فنونها من حيث:

١ ـ البلاغة والتشبيه وترادف الحروف في نهاية الجمل، لابتكار لحن يقترب من القوافي.

٢ ـ التركيز على مخارج الحروف، والتثبيت والاعتناء بصياغة الجمل حيث ردّ الأفعال المرادة.

٣ ـ التلحين والتجويد.

الثاني:

١ ـ إن فن الإشارة والتلويح يعضد عمل الراوي المنشد والمدّاح. لأنه يرافق أدوات اللغة التعبيرية.

٢ ـ ردود أفعال الجمع المتوحد، يزيل، أو يتلقى، يوفق وينظم إشاراته مع الردات والضربات، والإيقاعات من جهة ثانية. إضافة إلى حسن التعبير التلميحي والإيمائي عند الإشارة إلى الأماكن وأسمائها، والشخصيات ومواقفها.

٣ ـ يحتاج الراوي إلى التوفيق في تقليد الأصوات والمشاعر في الحواريات الثنائية الواردة على لسانه رواية مفردة أثناء وصفه لحدث أو موقعة أو موقف بين طرفين أو أكثر

يشخصها صوتاً، وتلميحاً، وإشارات. ضمن الحوارات المتتالية والمتعاقبة، تتخللها تعقيباته الوصفية، مما يختص بفن الصوتيات المتعلق بالدرجات، والطبقات، وشدة الصوت، والبراعة في استخدامها.

ثانياً ـ فعل الراوي الديني في التعزية الحسينية

أما على مستوى فعل سرد الرواية، وتخصصاتها المتعددة فإن اللغة المحكية في فعل راوي السيرة، لها مستويات يتعامل بها الراوي من خلال الحضور:

أ ـ ١ لغة فصحى، أو «ملمّعة» لسرد مجريات الأحداث.

٢ ـ عامية للاستدراكات اللازمة، والتعليقات المناسبة خارج فعل الرواية، أو الإشارة لموقف متعلّق.

ب ـ ١ النثر في السرد الروائي.

٢ ـ الشعر، والشعر المُنشد في الأمثلة أو الوصف الوجداني.

إنها كما يبدو لنا تأتي بتقسيمات من خلال دراسة مسبقة، ودراية بفنون حرفة الرواية. وسبق للراوي أن قام بالتحضير لها، رغم اختلاف الأمسيات من يوم لآخر، ومن جمهور لثانٍ. ومن تدرّج سياق الأيام العشرة حسب عنوان اليوم، كما في اليوم الأول، والأيام الثلاثة الأخيرة، وذكرى الأربعين، فيشير الخطيب السيد ماهر الحلو إلى أن السيرة التي يتناولها المتخصص مثل المرحوم عبد الزهرة الكعبي[1] في يوم عاشوراء، ويوم الأربعين، فلا بدّ أن يكون باللغة الفصحى لأن عرض السيرة لا تناسبه إلاّ باللغة الفصحى. وإذا كان الحديث المحاضرة تنتهي بالسيرة، فلا بأس أن تكون بالفصحى والشعبية لإيصال المضمون إلى الحضور. وأنا أفضل أن تكون المحاضرات بلغة فصحى يفهمها الجميع، ولا بدّ من تحضير مسبق من قبل الراوي أو القارىء

---

(١) هذا التفريغ لشريط التسجيل، لم يسبق أن وُثق كمادة بحث بهذا الشكل، ومن هذا المنظور. لكن الدكتور محمد عزيزة كان قد حقق في نص مكتوب، ضمن أطروحته «الإسلام، والمسرح».
الراوي عبد الزهرة الكعبي ـ المتوفى في حدود عام ١٩٨٦. من أبناء مدينة طويريج من أعمال مدينة كربلاء. وهو تسجيل صوتي لأشرطته المتداولة حتى الآن، ليس داخل العراق فقط، وإنما خارجه أيضاً.
رغم الكثير من الصعوبات التي لاقتنا في تفريغ شريط التسجيل الخاص بالراوي عبد الزهرة الكعبي، لما لتداخل بعض العبارات، والأسماء، إلاّ أننا حاولنا جهدنا أن نكون أمناء على نقل ما ورد في الشريط حرفياً، مع بعض التصويبات التي ترد في اللهجة العامية. فإذا ورد خطأ جديد ما، نرجو تصويبنا، من أجل موضعية مثلى.

لأي حديث يُعده للتحدث به للناس، سواء كان محاضرة تتبعها السيرة أو سرداً محضاً للسيرة. وإن المناسبات متنوعة، ومتعددة، فلا بدّ أن يكون لكل مناسبة حديث يناسبها.

وعلى سبيل المثال يتفرّد الشيخ الكعبي رحمه الله بهذه الطريقة التي اختارها لنفسه، ونجح فيها نجاحاً باهراً، خلّدته ما دام الحسين خالداً، ولكن انعكاساتها تتوقف على اليوم العاشر من محرم الحرام، ويوم الأربعين. وإن كانت تتجدد كل سنة، وكل عام. وعلى صعيد آخر فإن الشيخ مصطفى متولي الشعراوي، هو خطيب، ومتكلّم شعبي مرموق استطاع أن ينفذ إلى أعماق الناس، لأن الطريقة التي اتبعها يكاد يكون مبتكراً لها، كأن يفتح القرآن الكريم، ويفسّر آياته، آية، آية. وهو يهتم كثيراً بالجانب اللغوي، ويستخدم أسلوب استنطاق الحاضرين لمجلسه من باب شدّهم إليه. ويشير الشيخ عامر الكفيشي الملقّب بأبي حيدر الكوفي إلى أن السيرة هي تلخيص لحركة الإسلام في الحياة. أو بعبارة أخرى تأريخ الإسلام المصغّر، لهذا فإن عمل الراوي جزء من مسؤولية الدعوة والتبليغ للإسلام، ويتوقف عمله المميز على الإيمان والتقوى، والوعي، والتدقيق، وسعة الاطلاع في الإسلام، مما يجعل للراوي أثره الكبير في الحضور، ويكون للسيرة بالتالي فعاليتها الجيدة. والهام في عمل الراوي برأي الكوفي هو الجانب العقلي، ولكن الاهتمام بالأفعال الحسية لأجل خدمة الجانب العقلي أمر مطلوب هو الآخر، لهذا فإن سعة الاطلاع وعمق التفكير، وثقافة الراوي، هي الأساس في أصل الفكرة، ويأتي دور حسن الأداء ليقوم بتفعيل وتجذير الفكرة في نفوس الجمهور فيما بعدها، لهذا فإننا نلاحظ «والقول لأبي حيدر الكوفي»: في الوقت الحاضر إن وضع المجالس الحسينية قد أخذ يزداد، ويتطوّر أكثر من قبل، وهذا مؤشّر له دلالته في المستقبل. فالشباب والمثقفون لهم وجهات نظرهم في دور المجالس الحسينية، وفي الوقت الحاضر بدأت بعض النماذج من الخطباء تلبي حاجات الشباب ونأمل أن يزداد ذلك في المستقبل. لهذا يعتقد الكوفي بأن لغة المنبر الحسيني يجب أن تكون وفق السهل الممتنع الذي يلتزم باللغة الفصحى التي يفهمها الجمهور، وأحياناً قد تأتي اللجهة العامية لتلطّف الجو وتركّز المفهوم. وهذه المسألة تعود إلى ثقافة الخطيب ثم لتجربته بمرور الزمن.. ولكن يجب أن نفهم أن اللغة هي وسيلة لإيصال المفاهيم إلى الجمهور، ويجب أن لا تتحوّل إلى غاية، ويترك الجمهور، إذ عليه أن يخاطب الجمهور بلغته التي يفهمها جيداً. ومثالنا على ذلك طريقة السيد عبد الزهرة الكعبي الجيدة في الأداء، التي يمكن أن نضعها ضمن طرق التأثير الوجداني في الجمهور. ويشترط السيد الخطيب عبد الحسين القزويني في الخطيب الناجح أن يتحدث إلى الناس باللغة الفصحى، ويتجنّب العامية مهما أمكن، مما يستدعي منه الإلمام الواسع بأصول اللغة وقواعدها، وأن يمارس الأدب

قراءة وكتابة، ويحيط بعلم النحو والصرف، ويحفظ الكثير من الشعر. ولكن قد يحيد الخطيب عن هذه القاعدة ويتجاوز هذا الشرط لعدة أسباب، منها: كونه في حدّ ذاته ليس بالمستوى المطلوب لتعثّره في الدراسة. أو في ممارسة الخطابة.. ومنها كون المستمعين يشكلون في غالبيتهم من العوام الذين يصعب عليهم فهم اللغة الفصحى، ومنها ضرورة الخروج من اللغة الفصحى إلى اللغة العامية في بعض الأحيان بسبب تعقيد العبارة الفصحى أو ما شاكل من «الاستدراكات والتعليقات الخارجية». ولا تخلو السيرة من الشواهد الشعرية أيضاً، أو الإثارة الحسية في الشعر، وكل ذلك يعتمد على الدراسة المسبقة، والتحضير المسبق.. ولا يمكن أن تتشكّل تلقيائياً... والخطابة ـ بشكل عام ـ فلا بد فيه من الدراسة ثم الممارسة الكثيرة ليقف على هذه المواصفات الدقيقة... على أن يقوم الخطيب الباحث، والمؤلف عن سرد الأحداث، والتسميات بمراجعة المصادر في تحرّي الدقة فيها. أما الخطباء فقد يسهو بعضهم ـ وجلّ من لا يسهو ـ وقد يلاحظ رواية غير التي يلاحظها غيره، ويراجع مصدراً غير المصدر الذي راجعه، وقد لا يتحقق كثيراً مما يقول.. وهذا كله وارد في القول. أما لو أريد التحقيق والتدوين فالأفضل مراجعة متون الكتب المعتبرة «البحار للمجلسي، ومقتل الحسين للمقرم، ومقتل أبي مخنف». إن أسئلتكم هذه تجعلني أعتقد فيكم بشيئين هما: ١ ـ كثرة حضوركم في المجالس الدينية. ٢ ـ سعة اطلاعكم بقواعد وأصول الخطابة والتأثير الخطابي. لهذا علي الإشارة إلى أن الشيخ الكعبي رحمه الله هو أستاذي في الخطابة. أو قُل أحد أساتذتي في هذا المجال. وأنا عرفته عن قرب بحكم تتلمذي على يده، وبحكم كونه من بلدي «كربلاء» وقد عرفته كريماً زاهداً تقياً ورعاً عالماً فاضلاً في العلوم الدينية، وفي مجال الخطابة، كان يمتلك خلفية علمية وتأريخية عريضة، وصوتاً شجياً وكان ذا أداء جيد جداً في سرد الأخبار والروايات. وفي الخطابة بشكل إجمالي سريع البديهة قوي الحجة حسن البيان. وكان في الوقت نفسه شاعراً أديباً يقول الشعر على البديهة، كل تلك الميزات رشّحته أن ينقل صوته من الإذاعة العراقية، والغريب الذي يُذكر له أن وُلد يوم ذكرى فاطمة الزهراء عليها السلام، ويصادف ذلك يوم ٣ جمادى الأولى/ فسمي «عبد الزهراء» وتوفي في ذكرى وفاتها أي ١٣/ جمادى الثانية، وكان له تأثير عجيب في نفوس مستمعيه. فقد كان خطيباً مرموقاً يدعى لإلقاء الخطابات، والمحاضرات في كل أيام السنة، والرواية التي تُسمع منه بخصوص مقتل الحسين، وقصة الأربعين خاصة بيوم عاشوراء، ويوم الأربعين بمعنى أنه لم تكن كل منابره وخطاباته بهذه الصورة من السرد الروائي الشجي، إنما كان ذلك في يوم عاشوراء خاصة، والناس تتوقع من الراوي «الخطيب» في يوم عاشوراء الاستنان بسنة الشيخ الكعبي، بمعنى أنهم ينتظرون منه أن يدع كل أنواع الخطابة، والحديث، وينحصر منبره بسرد رواية «مقتل الحسين عليه السلام». أما

في غير أيام عاشوراء فقد كان الشيخ رحمه الله معلماً ناجحاً، ومؤثراً من خلال خطاباته على المنابر هنا، وهناك. ولا يخفى أيضاً ما لسرد هذه الرواية «رواية المقتل» من أثر كبير في توجيه الناس نحو الفضائل، والقيم والمبادىء، وتحذيرهم من الظلم، والإيذاء... ولو تسنى لكم الاستماع إلى تسجيل المرحوم الشيخ الكعبي لوجدتم أنه كان يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر من خلال سرده لرواية المقتل، فتارة يحث على الصلاة، وأخرى ينهى عن الخمرة، وثالثة يأمر النساء بالعفة والحياء.. وهكذا. أما الشيخ مصطفى متولي الشعراوي فإنه ـ لا شك ـ راوٍ جيد، ومفسّر، وعالم ألمعي، ومفكّر من الطراز الجيد. وأنا شخصياً أتلذّذ بخطاباته وأستفيد منها، فهو يتمتع بأداء وأسلوب جيدين، وبشخصية قوية مؤثرة، ويحوي علوماً كثيرة. وليت من مثله في البلاد مئات، ولكن عيبه الوحيد أنه يسير في بعض الأحيان في ظل السلطان، ويتلكأ عن قول الحق مراعاة للحاكم، وربما يكون معذوراً في ذلك.

ثالثاً:

ورغم ما يقال بأن أحداث التعازي مكتوبة، لكنها في غالبها تعتبر مؤلفات شعبية، لأن المؤلفين مجهولون. وهذا ما يتوافق مع طريقه وطبيعة السير الأخرى. وذلك بفعل تفاعلها أثناء روايتها مع عواطف الجمهور. ومن جهة ثانية بفعل اختلاف الرواة والمنشدين، ليس في البلد الواحد فحسب، وإنما في بلدان متعددة تختلف حتى في طبيعة الانتماء القومي. رغم التوحّد الديني. وما للتأثيرات البيئية من فعالية على اختلاف إطار عن آخر، إنما لا يختلف اثنان على خط سير السياق العام، رغم اعتماد حس الابتكار والتلقين. خصوصاً وأن الأحداث المشخصة يتم بعضها سيراً. أما الأداء فلا يتطلب أكثر من جمل متقطعة، لقد حفظها الشعب وعرفها ورددها كثيراً. لكن تلاوات الرواة والمنشدين على المحتفلين والمشاهدين، تمتزج فيها الرواية النثرية والشعر الملحن، المؤدى على أنغام الطبل و«الطاس، والترامبيت» في المسيرات الجماعية. بينما يكون للإيقاعات الصادرة عن ضرب الصدور والأكف من قبل المجاميع المختلفة ما بين فواصل الرواية مما يشيع جواً من الرهبة وحالة من الحزن الجماعي المؤثر، تفرّد بعض المبدعين بأساليب استدرار الحزن، ومن خلال القصائد الشعبية «العامية»، تأليفاً، أو ارتجالاً. ولكن في نفس السياق، هو نوع من أنواع «التعديد» الحزين. تقوم بموجبه الردات الحزينة من الجموع. وتتراوح هذه القصائد بين وصف الأحداث، إلى وصف حال الشخصيات. تميز راوٍ «معدد»، عن غيره بحسن الأسلوب، وقوة استدرار العواطف الوجدانية.

يقول السيد عامر الحلو الخطيب الحسيني بأن رواية أية سيرة ليست حرفة للكسب، ومهنة للعيش، خصوصاً إذا كانت السيرة هادفة بقدر ما هي وظيفة اجتماعية يؤديها الراوي، أو

القارىء أو الخطيب منهم ليس هدفهم الأول والأخير، اتخاذ ذلك حرفة للعيش، بل هي واجب رسالي ملقى على عواتقهم. لهذا لا بدّ أن يكون الراوي ضابطاً للنص، أميناً، حريصاً على أدائه بشكل جيد، معتمداً على أوثق النصوص والروايات لكي يُصيب بذلك بعضاً من كبد الحقيقة. ويشير السيد الخطيب عبد الحسين القزويني إلى أن رواية السيرة هي نوع من أنواع الشعائر الدينية، ولا يمكن أن نعبر عنها بالهواية، ولكن الخطيب «أو الراوي الديني» عادة يتخذها مهنة أيضاً، عليه أن يصرف جلّ وقته للتحضير والاستعداد لها، ولا يمكن الجمع بينها وبين ممارسة أعمال كثيرة أخرى. وقد جرت العادة أن الناس يدعون خطيباً ليلقي عليهم السيرة ثم يقدمون له بعض الأجر بعنوان الهدية، لا بعنوان الأجر، لأن الأجر يُعطى على الأعمال المادية والدنيوية بخلاف الهدية التي غالباً ما لا تحدد بمقدار معين مسبقاً، ويرى الخطيب نفسه يؤدي عملاً دينياً إلهياً فإن أُعطي أو لم يعط، وإن أُعطي قليلاً أو كثيراً كل ذلك لا اعتراض له عليه.

أما ميزات الراوي فهي ميزات تواضع عليه عرف الناس، فأولها أن يكون مُلماً بالتأريخ والعلوم الكهنوتية، والمعارف الدينية، ثم يُراد منه أن يكون على درجة من التقوى والالتزام بالأصول الأخلاقية والدينية، ويفضّل أن يكون متمتعاً بصوت شجي حسنٍ قادرٍ على أن يمسّ شغاف القلب فيثير الأحاسيس ويهيّج العواطف. ولا يتم ذلك إلاّ بالدراسة والتتلمذ على أيدي خطباء كبار. وقد لا تتوفر كل هذه المواصفات لدى البعض منهم عندها لا يعتبر ـ في عرف الجماهير ـ خطيباً ممتازاً. لهذا لا تتوقف رواية السيرة أبداً، وإنما تشتد، ويتفاعل معها الناس أكثر في أيام محرّم حتى الأربعين. والخطابة ـ عندنا ـ كما قلت «الحديث للخطيب القزويني»: عملية دينية وأداء لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتوجيه الناس نحو الوجهة الصحيحة السليمة، وذكر سيرة الحسين فيها من ملحقاتها لو صحّ التعبير، إنما تتكرّس السيرة في أيام عاشوراء، لأنها أيام خاصة بالحسين وشهادته عليه السلام. ولو تسنى لكم الحضور في الحسينيات في غير شهر محرم، كشهر رمضان مثلاً، فإنكم تسمعون من الخطيب محاضرات دينية، واجتماعية، وأخلاقية يختمها بذكر سيرة الحسين كما جرت العادة. والناس تُقبل على مثل هذه المجالس بشوق ورغبة، وتنفق الأموال الكثيرة لإقامتها. من هنا لا بدّ من تأثيرات كثيرة على المستمعين، سواء في الأبعاد الاجتماعية أو الدينية أو غيرها. أما مدى فعالية الراوي كما تسمونه أو الخطيب كما نسميه، فإنه يرجع إلى مدى قدرته الذاتية وإحاطته العلمية، وخلفيته التأريخية، وبالتالي تختلف هذه الفعالية من شخص وآخر، فالمعروف بين ذوي الاختصاص أن العاطفة طريق للوصول إلى العقل، وبعبارة أخرى: العاطفة قناة إلى العقل، وقد اتخذت الأديان كلها من العاطفة وسيلة لجمع شتات الناس حول المركز العقلي والفكري، ولو لم يكن اتفاقنا على الإيجاز

والاختصار لسردت لكم أمثلة كثيرة تؤيد هذه الدعوى. وفي مجال الخطابة الحسينية كذلك، إن تصوير ظلامة الحسين، والمآسي التي وردت عليه وعلى أهله وشبابه، وعائلته من مظالم شتى وأهوال صعاب تستدر عطف السامع، وتثير في كوامنه العواطف والمشاعر والأحاسيس وينفعل بالسيرة التي يسمعها، وبالتالي يميل إلى الاقتداء بالمظلوم، والدفاع عنه، وعن أفكاره ومعتقداته، ويقف إلى صفه بكله، بأحاسيسه وعقله... ومجمل القول إن الراوي يهتم ـ لا شك ـ بالجانب العقلي، ولكنه يصل إليه عن طريق الإحساس، ولا شك أن العوامل التي ذكرتها يكون لها بالغ الأثر في تكريس المفاهيم والأفكار في نفس المستمع وهي حسن الأداء، وسعة الاطلاع، وعمق التفكير، وأضيف «يقول الخطيب القزويني»: انسجام الخطيب مع نفسه وتأثره بما يقول.

أما الخطيب السيد عامر الحلو فيشير إلى أن الراوي كان في الماضي يكتفي بسرد السيرة الحسينية فقط، وبعد تطوّر المنبر الحسيني، خصوصاً في بداية القرن العشرين، أصبح الخطباء أو القرّاء يتناولن مختلف القضايا الأخلاقية، والتربوية، والتوعوية ثم ربطها بواقع ثورة الحسين، وانعكاسها على المجتمع، وعطاءاتها المتعددة. وتتوقف فاعلية الراوي على قدرته على إيصال ما عنده من مفاهيم، ومعارف، ويتوقف ذلك على روعة الأسلوب وقوة اللغة، وجمال التعبير، والصوت الشجي، لهذا فإن الراوي أو القارىء يثير من خلال خطبته قضايا عقلية، وعاطفية لأن الحسين «ع» كما قيل عنه قتيل العَبرة، والعِبرة. وأنا أشير إلى جانب مهم، وهو أن الناس الذين يرتادون المجالس الحسينية، لا يشدّهم القارىء بمحاضراته، ولو كانت قيّمة، إلاّ إذا ضمّنها الجانب المأساوي. وبهذا نشير «يقول الخطيب عامر الحلو» إلى أن زيارة الأربعين من قبل الناس للحسين «ع» بمرور أربعين يوماً على استشهاده، والذي يصادف العشرين من شهر صفر، لم تكن اعتباطية. بل كانت مقصودة باعتبار أن يوم الأربعين هو نهاية أيام الحداد والعزاء، وبه ينتهي المصاب، ومراسم الحداد من ناحية رسمية، وإلاّ فإن تأثير الحسينية ملازم للناس.

رابعاً ـ تحليل لأبعاد مسرحي رائد في عمل مسرحي كبير وهام في مقارنة مع حادثة المقتل للشيخ محمد القزويني:

١ ـ الحسين ثائراً ـ مسرحية شعرية من تأليف عبد الرحمن الشرقاوي، الكتاب الذهبي لعام ١٩٨٣ دار روز اليوسف:

ونقدم هنا رؤية معاصرة للفاجعة، وما كانت هناك من إمكانية لتحقيق هذه السيرة بأبعاد هامة، لا يتعلّق كله بالسرد الحواري، وإنما أيضاً بالتصوير المحتمل للحالة البيئية والاجتماعية، والنفسية من خلال تحليل الشخصيات، وتشخيص الأحداث.

في المدينة حيث يعكس الجو العام عند مفترق طرق، وفي الليل الهادىء الذي ينبىء بالمتغيرات.. فترتفع فجأة نداءات تلقي الضوء على موت معاوية، وإحساس الناس بالحدث:

سعيد: زال الطاغية المتكبّر.

بشر: سقط الدجّال الأكبر.

سعيد: هلك الفرعون المتجبّر/مات معاوية يا قوم.

فالحرية منذ اليوم/ أبشر يا بشر إذن أبشر.

أسد: أتشتم رجلاً هو من صحب رسول اللّه.

وقد بشّره بالجنة؟ فأبشر أنت بنار سقر.

سعيد: لا. بل رجل لمّا آل الأمر إليه انفرد به حتى يستأثر

فعطّل أصلاً في الإسلام/ وزيّف قاعدة الشورى.

وخالف نصاً في القرآن/ وأهدر أحكام السنة.

قاتل جدي وهو يصلي/ لما اعترض على رأيه.

أسد: قد كان يشاورنا في الأمر.

بشر: ليستكمل أُبهة الحكم! أنتم آفتنا الكبرى!

كنتم شكلاً للشورى، وكان رضاكم يسبقكم.

لم تفتح أفواهكم أبداً إلاّ لتقول: نعم.

سعيد: أخالف أحد منكم رأياً لمعاوية ثم نجا؟

أنتم أنتم من ملكه.

بشر: فتعود ألا يسمع: لا.

سعيد: أين حسين فنبايعه الآن ونخلع عهد يزيد؟

أين حسين يا بشر؟

بشر: الحسين بن علي قائم يشرح للناس الأحاديث على منبر جده فتقدم نلتمسه يا سعيد... إلخ[1].

---

(١) **الحسين ثائراً**، ص ٩، ١٠.

ويعكس التركيبة الاجتماعية:

الصرّاف: أسمعتم ما سمعنا؟.. أتولاها يزيد؟

بشر: بل تولاها الحسين بن علي.

الصرّاف: لم يعد يصلح أبناء علي للخلافة.

سعيد: ولماذا يا أمير الغش في سوق الصِرافة؟

الصرّاف: إنهم أصحاب تقوى وورع.

وأرى الدولة تحتاج إلى كيد سياسي حصيف.

سعيد: ما الذي تفهم يا صراف من معنى الحصافة؟

أنت غشاش بلا ريب ولكنك ذو عقل نظيف.

فلتقل لي ما عسى تطلب في الحاكم/ كي يصلح عندك؟

الصرّاف: لست غشاشاً كما قلت ولكني صرّاف شريف

أنت من أيام رحت إلى الكوفة

قد أصبحت شتاماً لجوجاً لا تطاق!

أنت قد أفسدك العيش طويلاً في العراق.

رجل ٤: لم يعد يصلح للدولة حكم الخلفاء الراشدين!

رجل ٥: نحن في عصر الملوك القادرين.

بشر: «ساخراً» والرعايا الطامعين الخائفين.

سعيد: إنه عصر مشوب بالحنين.

بشر: بحنين لنبالات الرجال الصادقين الصالحين.

الصرّاف: قد صرنا في زمن آخر.

أسد: ولكل زمان دولته ورجال أعرف بأموره

وحسين قرّة عين رسول الله يعيش زماناً قد ولّى

ما عاد رجال كعلي لحكومة دولتنا أهلاً

وحسين يسلك مثل أبيه/ وله مثل صلابته

فإذا صار وليّ الأمر فسوف يسير كسيرته

والدولة تطلب رجلاً آخر لا كعلي وحسين

فليس نجاح ولي الأمر في أن يحكم بضميره

أو أن يقضي عن نزعته أو تقديره

نجاح الحاكم أن يستفتي في الأحكام ضمير الأمة.

بشر: ما الأمة عندك؟ الأمة ليست أصحاب الثروات

الأمة هم نحن الفقراء.

أسد: أيحكمنا مثل أبيه بمرقعته؟... إلخ[1].

وفي تصوير العلاقة الاجتماعية بين إيمان الخدم، وحبّهم للحسين، وولائهم للأمير الوالي ابن مروان حتى في قصره:

«الخدم والغلمان يتقدمون إلى الشرفة بلا مراعاة لوجود الوليد متسابقين إلى رؤية الحسين».

أحد الخدم: هوذا.. في وجهه نور النبوة.

خادم ٢: وعلامات الإمامة.

العبد: أرج النبوة بين أعطاف الحسين.

ألق الإمامة في أسارير الحسين.

الوليد: كل أعناق رجالي قد تحولن إليه!

وقلوب الناس قد حفّت به ترتجي الخير لديه، «الوليد الآن يُطلّ من الشرفة وإن كان لم يتحرّك كثيراً».

ابن مروان: إن يكن رأيك فيه مثلما قلت

فلا سلطان والله عليه أو سبيل.

بشر: «للحسين» لا تشرب شيئاً في القصر/ لا تشرب ماء، أو عسلاً واذكر أن أخاك الحسن عليه الرحمة/ مات بسم في عسله.

---

(١) المصدر السابق ص ١٧ ـ ١٨.

الحسين: ما ربي في ماء القصر/ وما شبعي في عسل أمية.

بشر: لا تشرب ـ مهما تظمأ ـ في قصر أمير أموي.

سعيد: لا تشرب قطرة ماء في هذا القصر.

الحسين: «ضاحكاً» إن مُتّ هنا وأنا عطشان/ لمتّ شهيداً من ظمئي.

وستصبح مسؤولاً عن موتي/ في عطشي هذا يا بشر.

«لسعيد» وأنت كذلك يا كوفي... إلخ[1].

(...)

التورية الأولى للعطش، والماء، والعمق الكبير، والسماحة في رسم شخصية الحسين، وفضائله، وحسن كلامه وعلمه.. وتساميه، ومناداة بحقه:

ابن الحكم: مات والله أمير المؤمنين ابن أبي سفيان.

فانهدّ بهذا الموت ركن المملكة.

الوليد: طيّب الله ثراه.

الحسين: عظّم الله تعالى أجركم/ وإذن أرجع للمسجد.

«يتحرك ليخرج» مسيتم بخير.

ابن الحكم: ما تحدثنا... انتظر.

الحسين: إنهم ينتظرون.

ابن الحكم: ما عليهم أنهم ينتظرون/ هؤلاء الفقراء الطيبون...

الحسين: إن تكبّرنا على مَن دوننا لتواضعنا لمن هم فوقنا.

الوليد: قد علمتم أن في الأعناق منّا ليزيد بيعتين

بيعة نعقدها الآن بإذن الله

والأخرى عقدناها قديماً يا حسين.

الحسين: أخذت في ظلّ إرهاب البوارق.

(١) المصدر السابق، ص ٢٢ ـ ٢٣.

ابن الحكم: يا حسين بن علي.

الحسين: أنا ماضٍ «يُسرع»/ طال واللّه انتظار الفقراء الصالحين.

ابن الحكم: لعنة اللّه عليهم هؤلاء الفقراء الكالحين!

الحسين: كل مَن في الدنيا فقير/ كلنا.. حتى كبار الأغنياء.

فكبار القوم قد ينقصهم/ شيء... يذلون له ابن الحكم.

ابن الحكم: لم تجيء من أجل إلقاء الحِكم.

الحسين: «ضاحكاً» نحن في منتصف الليل.

وقد جاء إلى المسجد مبعوث الأمير.

قال لي باسم الأمير انهض إليه الآن فالأمر خطير.

«ساخراً» من أمير فيكما؟!/ أنا مدعو إلى مَن منكم؟!

الوليد: أنت مدعو إليّ.

الحسين: وإذن..

ابن الحكم: «للوليد» ما له يأتيك في فتيانه/ أهو يستقي عليك؟

الحسين: «هادئاً ساخراً للوليد ومشيراً إلى ابن الحكم»

قل لهذا إن مثلي قادر أن يمتنع.

قل لهذا إن مثلي عندما يأتي إلى سلطان

لا يأتي لخوف أو طمع!

إنما يأتي إذا استيقن من قدرته أن يمتنع.

الوليد: إن تكن أعطيت عقد البيعة الأولى بإكراه فبايع/ من جديد.

أنت مدعو إلى البيعة بالحسنى... فبايع ليزيد.

الحسين: أنا أعطي بيعتي سراً؟ أمثلي يعقد البيعة سراً؟

أنا لا أسدل ما بيني وبين الناس ستراً/ لا وربّ البيت...

لن نضمر فيما بيننا من خلف أسوارك أمراً/ لا وربّ البيت

بل تخرج للناس فتدعوني إلى البيعة جهراً.

فتقولون لماذا الأمر إرثاً ونقول...

فليكن موعدنا ظهر غد بعد الصلاة...

واقترح أي مكان شئت في قصرك هذا/ أو على قبر الرسول.

ابن الحكم: «بدهاء للحسين»

أنا لا يدخل جوفي مثل هذا القول منك... إلخ[1].

ولعقد مقارنة هامة بين فعل الرواة، والإخباريين، وإبداع الفنانين، نقتطف فقرات تتناسب وما جاء في سياق المسرحيتين.. نبدؤها بالمقطع الوصفي التالي للحادثة كما يذكره الإخباريون من كتاب مقتل الحسين[2]:

ووضح لابن الزبير ما عزم عليه الحسين من ملاقاة الوالي في ذلك الوقت فأشار عليه بالترك حذار الغيلة، فعرفه الحسين «ع» القدرة على الامتناع[3] وصار إليه الحسين في ثلاثين[4] من مواليه وأهل بيته وشيعته شاكين بالسلاح ليكونوا على الباب فيمنعوه إذا علا صوته[5] وبيده قضيب رسول اللّه «ص». ولما استقرّ المجلس بأبي عبد اللّه «ع» نعى الوليد معاوية ثم عرض عليه البيعة ليزيد فقال «ع»: مثلي لا يبايع سراً فإذا دعوت الناس إلى البيعة دعوتنا معهم فكان أمراً واحداً[6]. فاقتنع الوليد منه لكن مروان ابتدر قائلاً: إن فارقك الساعة ولم يبايع لم تقدر منه على مثلها حتى تكثر القتلى بينكم ولكن احبس الرجل حتى يبايع أو تضرب عنقه. فقال الحسين: يا ابن الزرقاء أنت تقتلني أم هو؟ كذبت وأثمت[7]. ثم أقبل على الوليد وقال: أيها الأمير إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة بنا فتح اللّه، وبنا يختم ويزيد (...)[8] فأغلظ الوليد في كلامه وارتفعت

---

(١) المصدر السابق، ٢٤ ـ ٢٦.

(٢) **كتاب مقتل الحسين**، لمؤلفه عبد الرازق الموسوي المقرم، دار الكتاب الإسلامي ـ بيروت، ط ٥، ١٩٧٩.

(٣) **ابن الأثير**، ج ٤، ص٦.

(٤) **اللهوف** للسيد رضي الدين ابن طاوس.

(٥) **مقتل الخوارزمي**، ج١ ص ١٨٣، فصل ٨.

(٦) **الطبري**، ج ٦، ص ١٨٩.

(٧) **تأريخ الطبري وابن الأثير، والإرشاد وإعلام الورى**.

(٨) **مثير الأحزان** لابن نما الحلي من أعلام القرن السادس.

الأصوات فهجم تسعة عشر رجلاً انتضوا خناجرهم وأخرجوا الحسين إلى منزله قهراً[1]. فقال مروان للوليد عصيتني فوالله لا يمكنك على مثلها، قال الوليد: وبخ غيرك يا مروان! اخترت لي ما فيه هلاك ديني، اقتل حسيناً إن قال لا أبايع، والله لا أظنّ امرءاً يحاسب بدم الحسين إلاّ خفيف الميزان يوم القيامة[2]! وعاتبت أسماء بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام امرأة الوليد عليه لما جرى منه مع الحسين فاعتذر بأنه بدأه بالسّب، قالت: أتسبّه وتسبّ أباه إن سبّك؟ فقال: لا أفعل أبداً[3]. وقد جاء الوصف في المسرحية على النحو التالي: البراءة في كلمة واحدة فحسب، كلمة لا غيرها:

الوليد: أنت والله شعاع/ قد تبقى من سنا عصر النبوة.
فاعتكف أنت لتدريس علوم الدين، والتقوى/ وهمّ الآخرة..!
ودع الملك لأهل المُلك والدنيا/ دع المُلك لنا.

الحسين: ليس مُلكاً بل إمامة...

الوليد: نحن لا نطلب إلاّ كلمة
فلتقل: «بايعت» واذهب بسلام لجموع الفقراء.
فلتقلها وانصرف يابن رسول الله حقناً للدماء.
فلتقلها... آه ما أيسرها... إن هي إلاّ كلمة.

الحسين: «منتفضاً» كبرت كلمة!/ وهل البيعة إلاّ كلمة.
ما دين المرء سوء كلمة/ ما شرف الرجل سوى كلمة.
ما شرف الله سوى كلمة.

ابن مروان: «بغلظة» فقل الكلمة واذهب عنا.

الحسين: أتعرف ما معنى الكلمة...؟/ مفتاح الجنّة في كلمة.
دخول النار على كلمة/ وقضاء الله هو الكلمة.

---

(١) **مناقب ابن شهراشوب**، ج ٢، ص ٢٠٨.
(٢) **تاريخ الطبري**، ج٦، ص ١٩.
(٣) **اللهوف**، ص ١٣.

الكلمة لو تعرف حرمة/ زاد مذخور/ الكلمة نور.

وبعض الكلمات قبور.

بعض الكلمات قلاع شامخة يعتصم بها النبل/ البشري.

الكلمة فرقان ما بين نبي وبغي/ بالكلمة تنكشف الغمّة.

الكلمة نور/ ودليل تتبعه الأمة/ عيسى ما كان سوى كلمة.

أضاء الدنيا بالكلمات وعلّمها للصيادين.

فساروا يهدون العالم!/ الكلمة زلزلت الظالم.

الكلمة حصن الحرية/ إن الكلمة مسؤولية.

إن الرجل هو الكلمة/ شرف الرجل هو الكلمة.

شرف اللّه هو الكلمة.

ابن الحكم: وإذن؟!

الحسين: لا ردّ لديّ لمن لا يعرف ما معنى شرف الكلمة.

الوليد: قد بايع كل الناس يزيداً/ إلاّ أنت.. فبايعه.

الحسين: ولو وضعوا بيدي الشمس...!

ابن مروان: فلتقتله... اقتله بقول اللّه تعالى... إلخ[1].

(....)

«المنظر شارع ضيق مظلم.. الحسين تحت الظلام يحمل جوالات يضع بعضها على أبواب البيوت ويجلس ليستريح... بشر وسعيد يدخلان كأنهما يبحثان عنه»... إلخ.

الأعرابي (...):

قد ركبت البيد يا سبط الرسول.

قاصداً بابك كي تقضي لي ديني الثقيل.

بشر: «همساً للأعرابي» الحسين بن علي لم يعد لديه..

---

(١) **الحسين ثائراً**، ص ٣٠ ـ ٣٢.

الحسين: «مقاطعاً» بشر لا تعجل علينا أو عليه...
«للأعرابي» كم ترى دينك؟ كم؟
الأعرابي: إنه ستون ديناراً ولكن دائني جلف أصمّ.
الحسين: «يخلع بردته» أفلا يصلح هذا الثوب كي تدفع دينك...؟
«يأخذها الأعرابي بلهفة».
الأعرابي: ثوبك الطاهر هذا...؟ بل سأُبقيه عليّ!
آأنا أعطي لذاك الدائن الجلف رداء.
قد زكّا من منكبي سبط النبي..؟
«يتحسس البردة فرحاً» إنه برد الحسين!
أعطني سبعين ديناراً.
سعيد: يا غبي.
الأعرابي: أترى هذا قليلاً؟ أعطني تسعين ديناراً إذن!
الحسين: «حائراً» كيف؟ باللّه... انتظرني.
يا أخا البدو انتظر فأنا... «يمشي حائراً محرجاً».
سعيد: آه يا جلف.. لقد أحرجته.. لعن اللّه غباءك!
الأعرابي: «في غلظة» وإلى من يلجأ المحتاج يا هذا؟
إليك...؟!
الحسين: إيه.. إني عن ثلاث سائلك.../ وعلى قدر إجاباتك تعطى.
الأعرابي: حسناً... كل جواب بالثلث...!
الحسين: ربما جاوبت عنهن جميعاً/ فقضيت الدين عند اليسر لك.
سعيد: أي فخر لك إذ صار إمامي ضامنك.
الأعرابي: «لسعيد» يا للفخار ويا للشرف.
«للحسين» ولكن.. أمثالك يسأل مثلي/ لا.. لا.. وكيف؟
الحسين: ولم لا وقد كان جدّي يقول...

الأعرابي: عليه الصلاة وأزكى السلام.

الحسين: «مكمّلاً» بقدر المعرفة المعروف.

الأعرابي: إذن فاسألني كيف تريد...؟

عاشق ١: «للحسين» وديوني عمّرك الله وديني عند/ سعدى..؟

عاشق ٢: وديوني عند لبنى..؟

الأعرابي: امهلاني أقضي ديني/ لعنة الله على سعدى ولبنى!

الحسين: «للأعرابي» أي أعمالك أفضل..؟

الأعرابي: أي أعمالي..؟ «وفجأة» إيماني بربي.

الحسين: قد أجدت.

الأعرابي: قد ضمنّا ثلث الدين... فأكمل.

الحسين: كيف ينجو الرجل العاقل مما يهلكه..؟

الأعرابي: ثقة بالله تنجي الناس من كل المهالك.

الحسين: أحسن الله إليك.

الأعرابي: قد ضمنّا ثلثي الدين... تفضّل.

الحسين: فما زينة المرء يا صاحبي..؟

الأعرابي: هما الحِلم والعِلم إن صالحاه.

الحسين: فإن أخطآه...؟

الأعرابي: «بضيق» أأخطأت؟؟ يا للسؤال الأخير!

«يعود إلى الإجابة» فإن أخطآه فلا شيء مثل الغنى والمروءة.

الحسين: فإن لم يكن حظه منهما غير حظ يسير...؟

الأعرابي: «متحمساً» ففقر وصبر.

الحسين: فإن لم يكونا..؟

الأعرابي: «بضيق شديد» فصاعقة ما لها من مثيل.

فما هو أهل لغير الصواعق.

الحسين: «ضاحكاً» فخذ خاتمي وانصرف راشداً.

كفتك السموات شرّ البوائق.

«ينصرف الأعرابي وهو يتأمل الخاتم ويلبس العباءة متخايلاً».

عاشق ١: ونحن..؟ أغثنا.. الغياث.. الغياث.

عاشق ٢: أتسألنا مثله في ثلاث..؟

الحسين: أنتما..؟ يا لكما من قصة مشؤومة في كل يوم/ تتكرر وحديث مرهق لا يتغير/ شاعر هام فشبب/ وأتى من بعد يخطب.

عاشق ٢: فأبى عمي وهدد.

عاشق ١: وأبو سعدى توعد.

الحسين: دفع الأسلاف من أرواحهم كي ترفعوا دولتكم/ فوق الدول فإذا أنتم وما يشغلكم غير الغزل!

وكل أيامكم شعر وحب وتبطل!

سعيد: «ناحية بشر» إن هذا القول ينصبّ عليك.

بشر: أنا أقصرت عن التشبيب منذ اليوم.

فلتخفر ذمامي يا سعيد/ أنا لا يشغلني الآن سوى أمر يزيد.

عاشق ١: أنت قد زوجت قيس بن ذريح لفتاة.

كان قد جُن بها حيناً وشبب.

سعيد: هو والله أخوه في الرضاعة.

عاشق ١: فلتجرنا يا مقيل العاثرين.

عاشق ٢: يا إمام الصالحين.

الحسين: «ضاحكاً» لست والله إمام العاشقين!

عاشق ٢: «بلهفة أشدّ» يا ملاذ الطائعين!

الحسين: آه يا فتية نجد والحجاز.

جازت الدنيا بكم والله لمّا أقبلت شرّ مجاز.

عاشق ١: قد كتمت الحب في القلب طويلاً.
فإذا ما فاض بي الوجد فنفست قليلاً.
أخذوني بالذي أعلنته أخذاً وبيلاً.

عاشق ٢: ومضت تعلنني بالبغض هلا كتمت بغضي ساعة.
وأنا من لم يبح بالحب حتى كوت النار ضلوعه.

الحسين: أمهلاني يا خليليّ فنحن الآن في أيام جد وخطر
نذر جاءت.. أما تغني النذر..؟!

عاشق ١: أنا لا أفهم هذا كله يابن أمير المؤمنين.
إن سعدى أعرضت عني فلا طلعت من بعد شمس/ في سماء.

عاشق ٢: ما انشغالي بسوى لبنى، ولبنى هي عقلي/ والجنون؟
إن لبنى هي همي ونعيمي وشفائي والعزاء..؟

الحسين: شاع في أعطافكم حب الترف/ فانصرفتم عن لبانات الشرف وشغلتم باحتياجات البطون.
وتركتم كل شيء لولاة عرفوا أنهم لا يسألون.
فصنعتم بتخيلكم عن الأمر صفوفاً من رجال/ فاسدين.

عاشق ١: أن لا أحسن فهم الأمر كله.

الحسين: قيمة الإنسان فيما يحسنه.

عاشق ٢: «يقاطعه مندفعاً» إن للعشاق دولة.

الحسين: «مستمراً» فلتقل لي ما الذي تحسن أعرف من/ تكون.

بشر: أي شيء تحسنان..؟

سعيد: عاشقان خائبان/ ما أرى أيهما يحسن حتى أن يحب.

الحسين: ثم قولا لي بحق الله مم تطعمان..؟

عاشق ٢: لأبي مال وفير.. وعطاء.

الحسين: إن خير القوت ما يكسبه الإنسان من كسب يديه.
أفلا أطعمت نفسك..؟

عاشق ٢: أإذا نحن كسبنا عيشنا ساعدتنا..؟

الحسين: قسماً باللّه ما تنشغلا بالعيش حتى تنسيا.

عاشق ١: فإذا نصحك لم ينفع أخا شوق شريد مستهام؟

سعيد: «ضاحكاً» فهو أهل للصواعق!

الحسين: فارجعا بإذن اللّه تعالى بعد عام.

عاشق ٢: بعد عام!؟ إنما العام طويل، هو دهر.

عاشق ١: فلنقل من بعد شهر.

الحسين: يبلغ الإنسان ما عزّ عليه/ إن سعى فيما تمنّى وصبر، ارجعا لي بعد عام حيثما كنت بإذن اللّه في أي بلد.

اذهبا.. لا تستعجلا العام ولا تستأنيا.

هكذا الإنسان منّا يملأ الدنيا ضجيجاً وزحاماً

وهو لا يملك حتى أيسر العلم بما تكسب النفس غداً

أو بعد غد..... إلخ[1].

وعودة للنص الوصفي يشير عبد الرزاق الموسوي المقرم[2]:

- وفي هذه الليلة «أي الليلة التي كان فيها عند والي المدينة الوليد» زار الحسين قبر جده «ص» فسطع له نور من القبر[3] فقال: السلام عليك يا رسول اللّه أنا الحسين ابن فاطمة فرخك وابن فرختك وسبطك الذي خلفتني في أمتك فاشهد عليهم يا نبيّ أنهم خذلوني ولم يحفظوني وهذه شكواي إليك حتى ألقاك ولم يزل راكعاً وساجداً حتى الصباح[4]. (...) وفي الليلة الثانية جاء الحسين إلى قبر جده، وصلى (...) ولما كان قريباً من الصبح وضع رأسه على القبر فغفا فرأى رسول اللّه «ص» في كتيبة من الملائكة عن يمينه وشماله وبين يديه فضمّ الحسين إلى صدره وقبّل ما بين عينيه وقال: حبيبي يا حسين كأني أراك عن

---

(١) **الحسين ثائراً**، ص ٣٨ - ٤٣.

(٢) **مقتل الحسين**، ص ١٣١ - ١٣٢.

(٣) **أمالي الصدوق**، ص ٩٣، مجلس ٣٠.

(٤) **مقتل العوالم**، ص ٥٤ **والبحار**، ج ١٠ ص ١٧٢.

قريب مرملاً بدمائك مذبوحاً بأرض كربلاء بين عصابة من أمتي وأنت مع ذلك عطشان لا تُسقى وظمآن لا تُروى بعد ذلك يرجون شفاعتي لا أنالهم اللّه شفاعتي يوم القيامة! حبيبي يا حسين، إن أباك وأُمك وأخاك قدموا عليّ وهم مشتاقون إليك. فبكى الحسين وسأل جده أن يأخذه معه ويدخله في قبره.

ونقول عن نص عبد الرحمن الشرقاوي: إنها ليست مسرحية ملحمية، أو سيرة مثلما نعرفها شكلاً، وتنفيذاً. أما المضامين والسياق التأريخي والذاتي: (...).

وبعد أن ينام الحسين قرب ضريح الرسول «ص»، ويحلم... يصحو يرى أخته زينب:

الحسين: أهلاً بعقيلة أهل البيت!/ لماذا جئت؟ «صمت» لماذا جئت؟

زينب: قل لي أنت/ فداك الدنيا ـ لم باللّه ذكرت الموت؟

الحسين: بان الرشد من الغي/ وهداني جدي للرأي/ غفوت قليلاً فحلمت، حلمت بجدي يأمرني ألاّ أقعد عن باطل.

ورأيت أبي يبتسم إليّ ويدعوني/ وأمي تنتظر قدومي.

وحلمت بعم أبي حمزة.

زينب: «تقاطعه وهي تتماسك لكيلا تبكي» لا توجع قلبي/ نحن فداؤك.

الحسين: «مستمراً»... إلخ[1].

وقد كتب الكوفيين كما يشير بقوله[2]:

وفي مكة وافته كتب أهل الكوفة من الرجل والاثنين والثلاثة والأربعة يسألونه القدوم عليهم لأنهم بغير إمام ولم يجتمعوا مع النعمان بن بشير في جمعة ولا جماعة، وتكاثرت عليه الكتب حتى ورد عليه في يوم واحد ستمائة كتاب واجتمع عنده من نوب متفرقة اثنا عشر ألف كتاب وفي كل ذلك يشددون الطلب وهو لا يجيبهم، وآخر كتاب ورد عليه من شبث بن ربعي وحجار بن أبجر ويزيد بن الحارث وعزرة بن قيس وعمرو ابن الحجاج ومحمد بن عمير بن عطارد وفيه: إن الناس ينتظرونك لا رأي لهم غيرك فالعجل العجل يابن رسول اللّه فقد اخضر

(١) **الحسين ثائراً**، ص ٥٩.

(٢) **مقتل الحسين**، ص ١٤٤.

الجناب وأينعت الثمار وأعشبت الأرض وأورقت الأشجار فاقدم إذا شئت فإنما تقدم على جند لك مجندة[1]. وهذا الانعكاس في متن المسرحية:

الحسين: أفلا تدخل ضيفي... طال والله انتظاره؟

ابن جعفر: هو لن يدخل حتى يفحصوا كل متاعه.

الحسين: إنه يحمل لي كتباً من الكوفة.

لا شيء سوى هذا... فأدخله بربك.

ابن جعفر: ربّ سمّ في كتاب/ إنهم قد يشربون السمّ أحشاء الورق.

إنهم قد حشدوا ضدك أطماع الرعية.

ربما أخفى لك الخنجر تحت الثياب.

الحسين: مَن؟ سعيد؟ إنه من خير فتياني جميعاً.

ابن جعفر: بعد إغرائهم هذا لمن يوقع بك/ أنا لا آمن إنساناً عليك!

أنت ضيفي ها هنا أنت ومن جئت بهم.

فلتدعني أرع ضيفي كيف شئت.

الحسين: أفلا أمن لمثلي ها هنا في البلد الآمن في دار السلام.

حيث لا يذعر حي ها هنا حتى الحمام.

ابن جعفر: كان عمي أعدل الناس فما نجا عدله.

كان يستنكف أن يجعل حراساً عليه..

كان والله يصلي عاري الصدر بلا درع يقيه.

ولهذا نفذ السيف لقلبه.

ونجا طاغية الشام بدرع لفّه من حول صدره.

وبحرّاس أشداء يحيطون به حتى إذا أمّ الصلاة!

يابن عمي إنما الحيطة من حسن الفطن.... إلخ[2]. (...).

---

(١) **ابن نما**، ص ١١. وذكر **الخوارزمي** ج ١ ص ١٩٣ وما بعدها فصل ١٠ تفصيل عن الكوفيين وكتبهم إلى الحسين.

(٢) **الحسين ثائراً**، ص ٦٦ - ٦٧.

مسلم: بل تمهّل أيها المختار ما جئتُ لأقتل.

المختار: وإذن يابن عقيل؟

مسلم: أنا ما جئت لكي ألقي سيفاً بل سلاماً.

المختار: مثلما جاء المسيح؟!

مسلم: حسبنا يا أيها المختار أن ننفي عنّا ابن زياد.

المختار: إنه في قبضتك/ وهو إن أفلت منك اليوم لن يشبع من سفك الدماء.

مسلم: «متردداً» إن في القصر نساء وصغاراً أبرياء.

المختار: «محتداً» فتذكر أنه قاتل أطفال ابن عمك.

وتذّكر أنه هاتك أعراض النساء.

وتذكّر كيف عانى الناس منه/ إن هذا مجرم لا حقّ له.

مسلم: أنا ما جئت لكي ألقي سيفاً بل سلاماً.

«يدخل عمر بن سعد ساحة البيت من الباب المفضي إلى الشارع».

عمر بن سعد:

ولهذا قد أتيتك.

المختار: ما عسى تطلب منّا يا عمر؟

ألكي تشفع في أمر الدعي ابن زياد يابن سعد؟

عمر: إنني ما جئت أستشفع إلاّ في صغاره.

المختار: وصغار الآخرين؟ يابن سعد بن أبي وقّاص..

هل جئت إلينا/ تلبس الباطل بالحق وتحتال علينا؟

عمر: ..... إلخ[1]. (...).

الحسين: ماذا وراءك؟ كيف الصحاب؟ أقابلك مسلم؟

سعيد: ما أمامي، أو ورائي يا إمامي هو ما فوق الكتف.

---

(١) المصدر السابق، ص ٧٣.

«يرمي الخرجين» خذ وعد/ إنها واللّه آلاف الرسائل كلها تدعوك للكوفة فوراً.
إنما أقسم أهل مصر ألا يدخلوا الجامع إلا بالحسين
قد دعوناك إلينا مرتين/ فلماذا لم تردّ...؟

الحسين: أنا أرسلت ابن عمي مسلماً.. فلماذا لم يعد؟
لم يصلني منه ما يجعلني أخرج بعد.

سعيد: يا إمامي إن أهل الكوفة الأبرار يلتفون حوله.
كلنا يتبع ظلّه/ ومعي في أحد الخرجين واللّه كتاب لك منه.

الحسين: يا صديقي فلتعجّل لي بما أرسل مسلم.

سعيد: ها هنا عشرون ألفاً../ لست أدري أيها لابن عقيل.
آه... لا../ «يفتش في صدره».
بل هنا في كتب الأشراف لا ريب كتاب ابن عقيل.
«يُخرج من صدره عدداً من الكتب وسلّمها للحسين».

الحسين: «يقرأ» من حبيب.. من برير../ هوذا.. لا.. إنه من أسد أسد عجباً؟ يا عجب!/ هوذا.. لا.. إنه من ابن عوسجة «يقلّب أيضاً» ثم نافع/ هوذا.. من مسلم «ينشغل بالقراءة في كتاب مسلم وغيره من الكتب»... إلخ[1].

جواب الحسين[2]: فلما اجتمع عند الحسين ما ملأ خرجين، كتب إليهم كتاباً واحداً دفعه إلى هاني بن هاني السبيعي وسعيد ابن عبد اللّه الحنفي وكانا آخر الرسل:

ـ أما بعد فإن هانئاً وسعيداً قدما علي بكتبكم وكانا آخر من قدم علي من رسلكم وقد فهمت كل الذي قصصتم وذكرتم ومقالة جلكم إنه ليس علينا إمام فاقبل لعل اللّه يجمعنا لك على الهدى والحق. وقد بعثت إليك أخي وابن عمي وثقتي من أهل البيت وأمرته أن يكتب إليّ بحالكم وأمركم ورأيكم فإن كتب إنه قد اجتمع رأي ملأكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت علي به رسلكم وقرأت في كتبتكم، أقدم عليكم وشيكاً.... إلخ.

وتوصف البيعة في كتاب مقتل الحسين كما يشير القزويني[3]: فتعجل ابن زياد المسير

(١) **الحسين ثائراً**، ص ٧٧ ـ ٧٨.
(٢) **مقتل الحسين**، ص ١٤٥ ـ ١٤٦.
(٣) المصدر السابق، ١٤٩.

إلى الكوفة مع مسلم بن عمرو الباهلي والمنذر بن الجارود وشريك الحارثي وعبد اللّه بن الحرث بن نوفل في خمسمائة رجل انتخبهم من أهل البصرة فنجد في السير وكان لا يلوي على أحد يسقط من أصحابه حتى أن شريك بن الأعور سقط أثناء الطريق وسقط عبد اللّه بن الحارث رجاء أن يتأخر ابن زياد من أجلهم فلم يلتفت ابن زياد إليهم مخافة أن يسبقه الحسين إلى الكوفة. ولما ورد «القادسية» سقط مولاه «مهران» فقال له ابن زياد إن أمسكت على هذا الحال فتنظر القصر فلك مائة ألف. فقال: واللّه لا أستطيع فتركه عبيد اللّه ولبس ثياباً يمانية وعمامة سوداء وانحدر وحده وكلما مرّ «بالمحارس» ظنوا أنه الحسين «ع» فقالوا مرحباً بابن رسول اللّه وهو ساكت فدخل الكوفة مما يلي النجف مثير الأحزان لابن نما الحلي واستقبله الناس بهتاف واحد: مرحباً بابن رسول اللّه! فساءه هذا الحال وانتهى إلى «قصر الإمارة» فلم يفتح له النعمان باب القصر وأشرف عليه من أعلى القصر يقول: ما أنا بمؤد إليك أمانتي يابن رسول اللّه فقال له ابن زياد[1]: افتح فقد طال ليلك! فسمعها رجل فعرفه فقال للناس إنه ابن زياد وربّ الكعبة[2]. فتفرقوا إلى منازلهم، وعند الصباح جمع ابن زياد الناس في الجامع الأعظم وخطبهم وحذّرهم ومناهم العطية وقال: أيما عريف وجد عنده أحد من بغية أمير المؤمنين ولم يرفعه إلينا صلب على باب داره.

فشل المكيدة من قبل ابن زياد، لأن مسلم لا يؤمن بالغدر والاغتيال.

شريك: أما لكما في مقال مفيد/ يقبل الثأر ويأسو الجراح.

ابن عروة: فما الرأي إلاّ الذي يرتئيه شريك بحكمته العالية.

شريك: فماذا تريد؟/ وما هي أمنية المتقين وأهل الصلاح؟

زيد: نريد الخلاص من الجائرين/ ومن هذه الفئة الباغية.

مسلم: فكيف السبيل وكيف الوصول؟

شريك: فلابن زياد ـ على كل ما فيه ـ حرص علي كحرص البخيل.

ابن عروة: كحرص الذليل/ على أن يكون له صاحب ذو مكان جليل.

مسلم: «ساخراً» أيحرص هذ الدعيّ اللئيم.
على أن يواصل أهل التقى؟

---

(١) **ابن كثير**، ٢٣٨/٨ حول ولادة ابن زياد.

(٢) **الطبري**، ج ٦، ص ١٢٠.

زيد: كأنا جواهر تيجانهم تحلّي رؤوسهم الخاوية.
كأنا حلي بسوق الرقيق يحلي بها تاجر غانية.

شريك: يحرص ابن مرجانة أن تكون له شهرة بصداقاتنا.
سيأتي إليّ فما زرته وقد أبلغوه بأني هنا.

ابن عروة: أجل.. لا مراء.. سيأتي الدعي.
يعود شريكاً مع العائدين.

شريك: وتلك هي الفرصة السانحة/ فقف ها هنا من وراء الستار.
فإن أنا ناديت: «سلمى.. سليمى..».
فأسرع بسيفك واضرب بقوة.

مسلم: «مستنكراً» أأفعل هذا بدار ابن عروة؟؟

زيد: فما السبيل لنا غير هذا على ابن الدعي.

ابن عروة: أجل إنها الفرصة السانحة.

زيد: ويا رب يوم أتى نعوض فيه الذي فاتنا البارحة.

مسلم: أأغدر بابن زياد هنا؟؟/ فعن مثل هذا نهانا النبي!
فربك يمكر بالماكرين... إلخ[1].

وعن موقف مسلم نقرأ[2]:

ـ ولما بلغ مسلم بن عقيل خطبة ابن زياد ووعيده وظهر له حال الناس خاف أن يؤخذ غيلة فخرج من دار المختار بعد العتمة إلى دار هاني بن عروة المذحجي وكان شديد التشيّع[3] ومن أشراف الكوفة وقرائها[4] وشيخ مراد وزعيمها.... إلخ (...) ونزل مع مسلم بن عقيل شريك[5] الأعور الحارثي الهمداني البصري وكان من كبار أمير المؤمنين عليه السلام بالبصرة

---

(١) **الحسين ثائراً**، ص ٨٧ ـ ٨٨.

(٢) **مقتل الحسين**، ص ١٥١.

(٣) **الأخبار الطوال**، ص ٢٣٥.

(٤) **الأغاني**، ج ١٤، ص ٩٥.

(٥) **الإصابة**، ج ٣، ص ٦١٦ قسم ٣.

جليل القدر في أصحابنا[١] شهد صفين وقاتل مع عمّار ابن ياسر[٢] ولشرفه وجاهه ولاه عبيد اللّه بن زياد من قبل معاوية كرمان[٣]، وكانت له مواصلة مع هاني بن عروة فمرض مرضاً شديداً عاده فيه ابن زياد وقبل مجيئه قال شريك لمسلم: إن غايتك وغاية شيعتك هلاكه فأقم في الخزانة حتى إذا اطمأن عندي اخرج إليه واقتله وأنا أكفيك أمره بالكوفة مع العافية. وبينما هم على هذا إذ قيل الأمير على الباب فدخل مسلم الخزانة ودخل عبيد اللّه على شريك ولما استبطأ شريك مسلم جعل يأخذ عمامته من على رأسه ويضعها ثم يضعها على رأسه فعل ذلك مراراً ونادى بصوت عالٍ يسمع مسلماً:

ما تنظرون بسلمى لا تحيوها	**حيوا سليمى وحيوا من يحييها**
هل شربة عذبة أسقى على ظمأ	**ولو تلفت وكانت منيتي فيها**
وإن تخشيت من سلمى مراقبة	**فلست تأمن يوماً من دواهيها**

ولم يزل يكرره وعينه رامقة إلى الخزانة ثم صاح بصوت رفيع يسمع مسلماً: «أسقونيها ولو كان فيها حتفي[٤]، كان يقول شريك ما تنظرون بسلمى تحيوها اسقونيها ولو كان فيها حتفي»... إلخ. وتأتي في متن المسرحية كالآتي:

ابن زياد: (...) أيها السيد ما أبلغتنا أسماء ضيفك.
لا تخف إنك من أهل التُقى.. أهل البصرة!

شريك: «ينادي» يا سليمى.. وسليمى.

ابن زياد: «مستمراً» إنني يا علماء الكوفة الأبرار من خدّامكم.

شريك: «ينادي بحدّة» إيه يا سلمى.. سليمى/ ما لها لا تتقدّم؟
يا سليمى أبأذنيك صمم!؟

«يتحرك ابن زياد فيسرع هانيء يحدّثه ليحتفظ بوضعه وظهره إلى الستار التي اختفى خلفها مسلم»... إلخ[٥]. (...).

---

(١) **ابن نما**، ص ١٤.
(٢) **الطبري**، ج ٦، ص ٢٠٣.
(٣) **النجوم الزاهرة**، ص ١٥٣. وكامل **ابن الأثير**، ج ٣، ص ٢٠٦ **والأغاني**، ج ١٧ ص ٧٠/٦٤/٦٠.
(٤) **ابن نما**، ص ١٤.
(٥) **رياض المصائب**، ص ٦٠. **الطبري**، ج ٦، ص ٢٠٤.
(٦) **الحسين ثائراً**، ص ٩٠.

ابن زياد: أسفاً عليه فكيف ينجو وهو يهذي هكذا من محنته؟

«ينهض»

شريك: سلمى.. سليمى.. قد هلكت وقد هلكت.

ابن زياد: «وهو يخرج لهانىء» ارع ابن عمك ما استطعت.

ابن عروة: لا بل أقم فينا فإنك ما أكلت وما شربت.

ابن زياد: «يتحرك» شكراً ودام الخير عندك يابن عروة.

ابن عروة: «يتشبث به» حق الضيافة يا أمير.

ابن زياد: عوفيت يا هانىء بن عروة.. قد أطلت.

شريك: «في جنون» سلمى.. سليمى.

أقدمي سلمى وإلاّ فاتنا الأمل الأخير.

ابن زياد: «مستمراً» وهناك في قصر الإمارة في انتظار أميركم عمل كثير.

«يخرج ومن ورائه هانىء ونسمع صوت ابن زياد في الخارج».

ابن زياد: ارع ابن عمك يابن عروة جيداً/ فلداؤه داء خطير.

زيد: «يدخل من وراء الخزانة غاضباً».

ضاعت الفرصة منّا للأبد «يعود مسلم من وراء الستار».

شريك: «لمسلم» عمّرك اللّه لماذا تردّد؟

ابن عروة: «عائداً من باب اليسار» لِم لَم تُجهز عليه؟

مسلم: منعتني منه واللّه تقاليد الفتوة.

فلقد يؤخذ من في البيت بي من غير ذنب يابن عروة.

ابن عروة: فأنا من دبّر الحيلة لك؟

مسلم: «مستمراً» ثم إني مؤمن باللّه والإيمان قيد.

شريك: «غاضباً» وأنا لست بمؤمن؟!

زيد: وأنا من أهل بدر.... إلخ[1]. (...).

---

(١) المصدر السابق، ص ٩١ - ٩٢.

بشر: سنسقي الخيل.

الحسين: واسقوا العيس وامتاروا من الماء.

بشر: لدينا فوق ما نحتاج من ماء.

الحسين: سنمضي من غد عبر طريق موحش مقفر/ فلا ماء ولا شرعة.

وقد نلقى على الصحراء من يلتمس الجرعة.

«يذهب بشر وبعض الرجال من اليمين واليسار».. إلخ[1].

ويكتب القزويني فصل في إنصاف أهل الكوفة عند توضيح حادثة حبس المختار فيقول[2]:

وكان المختار عند خروج مسلم في قرية له تدعى «خطوانية» فجاء بمواليه يحمل راية خضراء ويحمل عبد اللّه بن الحارث راية حمراء وركّز المختار رايته على باب عمرو بن حريث وقال: أردت أن أمنع عمراً[3] ووضّح لهما قتل مسلم وهانيء وأشير عليهما بالدخول تحت راية الأمان عند عمرو بن حريث ففعلا وشهد لهما ابن حريث باجتنابهما ابن عقيل، فأمر ابن زياد بحبسهما بعد أن شتم المختار واستعرض وجهه بالقضيب فشتر عينه[4] وبقيا في السجن إلى أن قتل الحسين «ع»[5]. وفي مسرحية الحسين ثائراً جاء:

«ساحة واسعة بالكوفة أما قصر ابن زياد أمير الكوفة والناس يملأون الساحة بالسيوف والعصي والسهام.. بعضهم يقف على مرتفعات أو جذوع نخيل. وكأنهم يحاصرون القصر تحت ليل تضيئه بعض مشاعل يحملها رجال منهم». «ثم»

المختار: هكذا واللّه تغدو الحكمة الشمّاء.

والرأي وحسن الدين والتقوى تجارة.

إنه واللّه بيع بخسارة.

الشيخ: سلموه ابن عقيل تسلموا «ينصرف بعض الرجال ونساء».

---

(١) المصدر السابق، ص ٩٦.

(٢) **مقتل الحسين**، ص ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٣) **تأريخ الطبري**، ج ٦، ص ٢١٥.

(٤) **المعارف**، لابن قتيبة، ص ٢٥٣.

(٥) **أنساب الأشراف**، ج ٥، ص ٢١٥.

المختار: إيه يا أشراف هذا البلد المنكود قد ضيعتم فيه الشرف عظمت اللّه فيكم رشوة السفّاح يا أهل الصلاح.

التاجر: لا تقولوا عنه سفّاح/ فهذا الرجل المعطاء يعطي في سخاء.

شاب ١: إنه قد ملأ الدور دقيقاً وغلالاً.. إلخ[١]. (...).

«ناس يدخلون الساحة بمشاعلهم وشيئاً فشيئاً تمتلىء الساحة بالناس».

ابن زياد: «يخرج ابن زياد من الشرفة ويتأمل الجميع صائحاً» يا أهل الكوفة.. أهل الكوفة «يتأمل أيضاً والناس يتخذون أماكنهم» يا أهل الكوفة.. أما بعد...

فإني أبصر لي فيكم واللّه رؤوساً تستحصد.

لي فيكم صرعى لكني لا أضربكم حتى أعذر.

فأنا رجل ذو إيمان لست أعذب حتى أنذر.

سأفتح سيفي فوق رؤوس الكوفيين.

كما أذللت رقاب جميع البصريين.

زيد بن أرقم: «من بين الجموع» تفتح سيفك..؟ ما هذا؟

فلعلك تعني أشهر سيفي؟

ابن زياد: أتراجعني يا هذا؟/ أم تسخر من نطقي العربي؟

أتعرّض يا كوفي بأمي مرجانة؟/ فأمي ليست عربية.

لكن أبي قد أصبح فيما بعد ابناً لأبي سفيان شيخ أمية

وغدوت أميراً أموياً بل خير أمير أموي.

زيد: أن لا أعرف مرجانة..

ابن زياد: عساك تسميني ابن دعي..؟/ .. إلخ[٢].

ابن زياد: وبعد فلي فيكم يا أهل الكوفة صرعى ما زالوا.

فإليكم دستور الحكم/ من يدلج في ليل يقتل.

---

(١) **الحسين ثائراً**، ص ١٠٧ ـ ١١٠.

(٢) المصدر السابق، ص ١١٨.

زيد بن أرقم: وقيام الليل..؟

ابن زياد: ليل الكوفة لي.. لرجالي.. للشرطة..

زيد بن أرقم: هذا طاغية مجنون يحدث صدعاً في الإسلام.

المرأة العجوز: أمير باغٍ متسلّط.

رجل ٥: رجل الأحلام المحنطة «همسات».

شاب ١: احرس رأسك لا يسقط.

ابن زياد: أسمع منكم همسات مثل ثغاء الأغنام.

إني أبصر من قصري يا أهل الكوفة ما يجري.

وحتى ما يستخفي خلف الباب المغلق من سرّ.

وأرصد حتى ما قد يحدث في مخدع أي منكم.

حتى خفقات القلوب.... إلخ[1].

ويقول[2]:

وانتهى بابن عقيل السير إلى دور بني جبلة من كندة ووقف على باب امرأة يقال لها طوعة أم ولد كانت للأشعث بن قيس اعتقها وتزوجها أسيد الحضرمي فولدت له بلالاً كان مع الناس وأمه واقفة على الباب تنتظره فاستقاها مسلم فسقته واستضافها فأضافته بعد أن عرّفها أنه ليس له في المصر أهل ولا عشيرة فأدخلته بيتاً غير الذي يأوي إليه ابنها وعرضت عليه الطعام فأبى وأنكر ابنها كثرة الدخول والخروج لذلك البيت فاستخبرها فلم تخبره إلاّ بعد أن حلف لها كتمان الأمر. وعند الصباح أعلم زياد بمكان مسلم فأرسل ابن الأشعث في سبعين من قيس ليقبض عليه، ولما سمع مسلم وقع حوافر الخيل عرف أنه قد أُتي... إلخ. وفي مسرحية الحسين ثائراً جاء:

العجوز: عجباً.. من أنت؟

مسلم: طريد يطلبني المظلوم لكي يحظى برضى الظالم؟

«هامسة في ألم» أتكون مبعوث الحبيب..؟

(١) المصدر السابق، ص ١٢٥.

(٢) **مقتل الحسين**، ص ١٥٨.

مسلم: أجل أنا هو مسلم رجل الحسين.

العجوز: ويلاه.. كيف تغيرت بك دورة الأيام من حال لحال؟!

مسلم: تللّه لم تتغيّر الأيام بل خان الأمين/ ومال ميزان القلوب.

العجوز: فلتنتظر حتى أعود ولا تخف مني وشاية.

قد كان زوجي فارساً في جيش عمك يا بني.

اللّه يرحمه فقد رزق الشهادة «ثم» (...).

مسلم: «أشدّ ضجراً» يا خالتي حلقي يجفّ من العطش.

العجوز: «مستمرة»... إلخ[1].

العجوز: وهكذا ضاع البطل.. «تدخل إلى بيتها مسرعة وتغلق الباب».

مسلم: من مبلغ عني الحسين نصيحتي ألا يجيء إلى العراق

نكث الرجال بعهدهم.. إن العهود هنا شقاق

يا نسمة الليل الثقيل المدلهم/ سيري إلى ركب الحسين

سيري بدمعي فاسكبيه وبلغيه/ أن الذين استصرخوه وبايعوه

قلبوا له ظهر المجن/ فاللّه أعطاهم من الحكّام قدر فسادهم.

إن سلّط الرحمن جبارين فوق رقابهم/ فبما رأى من جبنهم أو لؤمهم... إلخ[2].

(...) إن الذين استصرخوه حتى يشيع العدل في أفيائهم
ويقيم سلطان العدالة والأخاء هم إن أتاهم خاذلوه.. وقاتلي وقاتلوه.

«تفتح العجوز بابها وتندفع إلى مسلم ومعها إناء».

العجوز: اشرب.. فهذا الماء مخلوط بماء الورد.. اشربه لتقوى.

مسلم: جُوزيت يا أماه خيراً «يشرب بلهفة».

«تحاول أن تضاحكه» قد كانت الرومية الشقراء

تسقيه لزوجي دائماً/ كي يستعين به على عشق اللئيمة، كلما..

---

(١) **الحسين ثائراً**، ص ١٣٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣٣.

مسلم: «يقاطعها بضجر» يا خالتا.. يا خالتا.

العجوز: «جادة» ستعيش عندي ها هنا.

حتى يدبّر خالق الأكوان أمراً.

فادخل بربك قبل أن يفد الذين يفتشون على السكك.

ادخل بربك.

فالبيت يابن أخي أمير المؤمنين وما بهذا البيت لك.

ادخل تجد بعض الطعام «صوت المنادي يأتي من بعيد».

صوت المنادي: من دلّنا عن مسلم بن عقيل/ فاز بما يريد من الأمير.

العجوز: «تدفعه إلى باب الدار فيدخل بسرعة».

أسرع فديتك.. إنهم آتون.. فلتُسرع بربك.

الصوت: أمير الكوفة يُنذركم بالويل لمن يخفي «مسلم».

فسيُحرق حياً في داره.

وستبقى النار بلا إطفاء حتى تأكل منزل جاره «يدخل النادي».

المنادي: فعلى من يرتب في أمر/ أن يُبلغ قواد الشرطة.

«يدخل الشاب ويتقدم إلى باب داره التي دخل فيها مسلم».

شاب ١: فإذا دلّ بلاغ المرء على مخبأ ذاك الهارب؟

المنادي: «مستمراً» فمن ساعدنا في الإيقاع بمسلم حياً أو ميتاً فله ما يطلب من مال/ أو رزق جارٍ.. أو منصب.

العجوز: فسد الزمان ولم يعد إلاّ الرجال الخائبون.

ذهب الرجال ذوو البصائر والقلوب.

ولم يعد إلاّ الرجال ذوو البطون[1].

(...)

---

(١) المصدر السابق، ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

عمر: والفتى؟ «يشير إلى الشاب ١».

ابن زياد: إنني جاعله شسعاً بنعلي يا عمر «يصفّق فيدخل غلام وينحني»، «مشيراً للشاب ١».

طوقوا هذا بطوق ذهبي وبتاج من لجين «يخرج الغلام بخشوع».

شاب ١: إنني يا سيدي أنشد شيئاً فوق هذا.. مثل أن..

ابن زياد: مثل ماذا يا ولد..

شاب ١: منصباً ما.. أو كما قال يزيد لك أن ترفع من دلّ على مخبأ مسلم فتغيظ الآخرين.

ابن زياد: إنك ما زلت صغيراً.. ما الذي تصلح له؟

شاب ١: إنني أعمل في حانوت يقال غليظ الوجه.. جلف.

إنه صك قفاي اليوم والله بنعله.

ولماذا؟ جاءت الدكان عمياء عجوزة مثل أمي.

فوزنا بالشرف! «يدخل الغلام فيطوّق الشاب بطوق ذهبي».

ابن زياد: إن هذا الطوق طوق من ذهب «يدخل غلام آخر فيضع على رأس الشاب تاجاً من لجين».

الشاب: أنا لا أعرف شيئاً في الذهب.

ابن زياد: ربما كان نحاساً وطلي/ ليس في الكوفة فرد لا يغش فلتسلني فلتسلني.

إننا نصنع في الحانوت أشياء عجاباً فلتسلني.

نحن والله نغش الجبن والزيتون والملح وحتى الزبد مغشوش بدهن.

زيد: إيه! حتى الملح ما عاد بملح.

أسد: الأمير ابن زياد لا يغش.

شاب ١: أصبح الغش هو القانون في هذا البلد.

قدر ما تقوى على الغش ستنجح.

ونجاح المرء يضفي فوقه الهيبة والمال الوفير.

واحترام الناس والصيت وحتى الحب نفسه.

عمر: إن في قولك علماً فوق سنك... «ثم» (...).

ابن زياد: «صارخاً» رُدّ هذا الطوق واذهب يا ولد/ واحمد الله لأنا لم نعاقب أمك الشمطاء بالموت/ على إخفاء مسلم فإذا فهت بشيء في البلد فسنأتي بك مسحوباً على وجهك من دارك حتى قصرنا.

شاب ١: أفلا أصلُح جندياً بجيشك؟

هكذا أضمن رزقاً ومعاشاً دائماً/ هكذا أسعد أمي يا أمير..

هكذا أضمن تيسير الأمور.

ابن زياد: فلتعد لي بعد يومين إذن.

زيد: ربما يصبح من قوادنا.

ابن زياد: «لمن حوله» الحقوا هذا بجيشي منذ غد.

شاب ١: «وهو يجري» حفظ الله الأمير... إلخ[1]. (...).

ابن زياد: أدخلوه.. أدخلوه.

«يدخل مسلم مكبلاً في الحديد جريحاً منهكاً يسوقه رجال بالسلاح».

مسلم: «لواحد من حراسه» اسقني جرعة ماء.

«لآخر» أيها المسلم.. ماء.

ابن زياد: لن تذوق الماء عندي.. فلتمت من ظمئك.

مسلم: عندما كنتم بصفين منعتم ماءها عنا.

ولكنا غلبناكم عليه.

أسد: «متأزماً» يا لهول الذكريات.

مسلم: «مستمراً» فسقيناكم وقد أوشكتموا أن تهلكوا من عطش عندها قال لنا عمي أمير المؤمنين.

زيد: «بجلال» رحم الله الإمام.... إلخ[2]. (...).

---

(١) المصدر السابق، ص ١٣٧ ـ ١٤٠.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤١ ـ ١٣٥.

عمر: «مستمراً» ويريد مني أن أخونك في الحسين.
ويقول لي خرج الحسين بأهله نحو العراق.
فابعث إليه لكي يعود فلا يلاقي ما ألاقي.

زيد: أسفاه.. كيف إذن أجبت؟

عمر: «مستمراً» فأجبت بل يأتي الحسين لكي يذوق هنا المنية غصة بعد غصة.

مسلم: «جزعاً حزيناً» هكذا يابن أبي وقّاص؟ قد واللّه خُنت!
لم يكن في أهل بيتي رجل أوثق منك.

زيد: قبّح اللّه الذي يستودع السر رجالاً من طرازك.

أسد: إنه لو باح لي بالسر ما أفشيت سرّه.

الحرّ: قسماً باللّه لو كان ابن خالي لحفظته.
فأما إذ كنت أفشيت سرّه...

عمر: «مقاطعاً» أيها الحرّ الرياحي.. أنا..

الحرّ: «مستمراً» قسماً باللّه لن تحفظ غيره.

مسلم: باللّه يا عمر بن سعد/ كيف انتهيت لهذه الحال الزرية؟
فغدوت كلباً من كلاب الصيد تطعمها أمية؟!
أتبيعنا للطاغية/ وأبوك أول مَن رمى بالسهم في الإسلام.
فلتذكر أباك/ أتخونه في قبره؟
أتسوق أولاد النبي إلى الهلاك؟

عمر: أنا لن أشقّ عصا الولاء على أمير المؤمنين.

مسلم: أذكر مقال أبيك عن عمي علي.
إن يوماً منه يعدل كل عمر معاوية.

عمر: أنا لا أخون ولي أمري.

مسلم: «حزيناً» أو بعد ما أهدرت سري لا تخون؟
فلربما أؤتمن الخؤون فكيف يختان الأمين

عمر: «صارخاً لابن زياد» اقتله.. أخرس صوته هذا اللعين.

ابن زياد: قبحاً وترحاً يابن سعد/ قسماً برب العرض لو قد باح لي لقضيت حاجته/ وما أهدرت سرّه.

وأنا الذي يأتي البلاد/ يدك عاليها ويقتل ثم يقتل.

فأما وقد أفشيت هذا السر فلتنهض إلى حرب الحسين.

ستميته، وتخط قبره!

عمر: «في فزع شديد يكاد يخنق صوته»

آأنا أنهض في أمر الحسين؟!

ابن زياد: إن هذا الأمر يحتاج إلى مستوزر من معدنك... إلخ[1].

٢ - الحسين شهيداً: الجزء الثاني من الثنائية المسرحية لعبد الرحمن الشرقاوي ولكي نتابع مقارنتنا نورد هنا سرداً في كتاب مقتل الحسين فيقول عبد الرزاق الموسوي المقرم[2] في وصف السفر إلى العراق:

لما بلغ الحسين أن يزيد أنفذ عمرو بن سعد بن العاص في عسكر وأمره على الحاج وولاه أمر الموسم وأوصاه بالفتك بالحسين أينما وُجد[3] عزم على الخروج من مكة قبل إتمام الحج واقتصر على العمرة كراهية أن تستباح به حرمة البيت[4] (....) وسأله جماعة من أهل بيته وغيرهم التريث عن هذا السفر حتى يستبين له حال الناس خوفاً من غدر الكوفيين وانقلاب الأمر عليه ولكن «أبى الضيم» لم تسعه المصارحة بما عنده من العلم بمصير أمره لكل من قابله. (...) فيقول لابن الزبير: إن أبي حدثني إن بمكة كبشاً به تستحلّ حرمتها فما أحب أن أكون ذلك الكبش ولئن أقتل خارجاً منها بشبر أحب إلي من أُقتل فيها[5] «قال ذلك لابن عباس».

(...) وفي سحر تلك الليلة ارتحل الحسين «ع» فأتاه ابن الحنيفة وأخذ بزمام ناقته وقد

---

(١) المصدر السابق، ص ١٤٦ - ١٤٧.
(٢) **مقتل الحسين**، ص ١٦٥ - ١٨٥.
(٣) **المنتخب**، ص ٣٠٤. الليلة العشرة.
(٤) **ابن نما**، ص ٨٩. **تاريخ الطبري**، ج ٦، ص ١٧٧.
(٥) **تاريخ مكة**، للأزرقي، ج ٢، ص ١٥٠.

ركبها وقال: ألم تعدني النظر فيما سألتك؟ قال: بلى، ولكن بعد ما فارقتك أتاني رسول الله «ص» وقال: يا حسين اخرج فإن الله تعالى شاء أن يراك قتيلاً....[1].

(...) وكتب إليه عبد الله بن جعفر الطيّار مع ابنيه عون، ومحمد: أما بعد، فإني أسألك الله لما انصرفت حين تقرأ كتابي هذا فإني مشفق عليك من هذا الوجه أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك. إن هلكت اليوم اطفيء نور الأرض فإنك علم المهتدين ورجاء المؤمنين فلا تعجل بالسير فإني في أثر كتابي والسلام. ثم أخذ عبد الله كتاباً من عامل يزيد على مكة عمر بن سعيد بن العاص فيه أمان للحسين وجاء به إلى الحسين...[2].

(...) هذه غاية ما وصل إليه إدراك من رغب في تريث الحسين «ع» عن السفر إلى العراق وأبو عبد الله لم تخف عليه نفسيات الكوفيين وما شيبت به من الغدر والنفاق ولكن ماذا يصنع بعد إظهارهم الولاء والانقياد له والطاعة لأمره وهل يعذر إمام الأمة في ترك ما يطلبونه من الإرشاد والانقياد من مخالب الضلال. (...) وسار الحسين من مكة ومرّ «بالتنعيم» فلقي عيراً عليها ورس وحلل أرسلها «يزيد بن معاوية» واليه على اليمن بحير بن بيسار الحميري فأخذها الحسين «ع» وقال لأصحاب الإبل: مَن أحب المفارقة أعطيناه من الكراء على ما قطع من الأرض ففارقه بعضهم ومضى من أحب صحبته[3]. (...) وفي الصفاح لقي الحسين «ع» الفرزدق بن غالب الشاعر فسأله عن خبر الناس خلفه فقال الفرزدق: قلوبهم معك والسيوف مع بني أمية والضياء ينزل من السماء!

(...) ومرّ في الصحف، وذات العرق، والحاجر، وبعض العيون، والخزيمية، وزرود، والثعلبية، والشقوق، وزبالة، وبطن العقبة، وشراف:

وسار من بطن العقبة حتى نزل شراف[4] وعند السحر أمر فتيانه أن يستقوا من الماء ويكثروا وفي نصف النهار سمع رجلاً من أصحابه يكبّر فقال الحسين: لما كبّرت؟ قال: رأين النخل فأنكر من معه أن يكون بهذا الموضع نخل، وإنما هو أسنة الرماح وآذان الخيل فقال الحسين: وأنا أراه ذلك ثم سألهم عن ملجأ يلجأون إليه فقالوا هذا «ذو الحسم» عن يسارك فهو كما تريد فسبق إليه الحسين وضرب أبنيته. وطلع عليه الحُرّ الرياحي[5] مع ألف فارس بعثه

---

(١) **البحار** ج١٠ ص ١٨٤.
(٢) **تاريخ الطبري**، ج٦، ص ٢١٩. **وكامل المبرّد**، ج ٤، ص ١٧. **والبداية لابن كثير**، ج ٤، ص ١٧.
(٣) **تاريخ الطبري**، ج ٤، ص ٨٧.
(٤) **معجم البلدان**، ج ٢، ص ٤١٦.
(٥) **جمهرة أنساب العرب** لابن حزم، ص ٢١٥.

ابن زياد ليحبس الحسين عن الرجوع إلى المدينة أينما يجده. أو يقدم به الكوفة فوقف الحُرّ وأصحابه مقابل الحسين في حرّ الظهيرة[1]، وفي المسرحية نقرأ:

الحرّ: ألديكم ها هنا ماء؟ فإنا قد جهدنا عطشاً..

بشر: قسماً باللّه لن نشرب منه قطرة واحدة حتى تنادوا للحسين.

الحسين: نحن لا نمنع ماء اللّه عمن يطلبونه.. إلخ[2].

وفي المسرحية نرى التعبير الفني كالآتي:

«يقبل شمر من الصدر قبل أن يرد الحسين».

شمر: أيها الحرّ لقد جئت بآلاف من الفرسان كي أدعم جندك.

الحرّ: أنا لا حاجة لي الآن بأجنادك يا شمر فعد.

الحسين: «لزينب»، ادخلي الآن إلى الخيمة يا أختاه.

عودي للنساء «تدخل زينب».

شمر: «صائحاً في الحرّ» الأمير ابن زياد يأمرك..

الحرّ: «مقاطعاً» يابن ذي الجوشن لا تصرخ لكيلا يصدق القول عليك.

شمر: «في غطرسة» أي قول يا رياحي بربك؟!

الحرّ: ... إلخ[3].

(...)

الحسين: أين نحن الآن؟

برير: هذي نينوى.

الحسين: ما اسمها الآخر؟

برير: أرض الشّط.

سعيد: وتسمى كربلاء.

---

(1) **مقتل الخوارزمي**، ج ١، ص ٢٣٠ فصل ١١.

(2) **الحسين ثائراً**، ص ١٠ ـ ١١.

(3) المصدر السابق، ص ١٦.

الحسين: هي كرب وبلاء../ أنا مقتول هنا..

قدري خط لي الموت هنا.

سعيد: بأبي أنت وأمي لا تقل هذا فديتك.

برير: بل يموت الكل دونك.

بشر: أنا عطشان.

الحسين: أو ما نحن على شرعة ماء؟

بشر: إننا قرب الفرات.

الحسين: فاستقوا واسقوا الخيول.

سعيد: إنهم قد منعونا الماء يا سبط الرسول... إلخ[١].

ويقول[٢]:

وفي البيضة[٣] بعد البيت الثاني خطب أصحاب الحر فقال بعد الحمد للّه والثناء عليه: أيها الناس إن رسول اللّه قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام اللّه ناكثاً عهده مخالفاً لسنة رسول اللّه يعمل في عباد اللّه بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على اللّه أن يدخله مدخله ألا وإن هؤلاء قد لزموا الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلّوا حرام اللّه وحرّموا حلاله وأنا أحق ممن غير... إلخ (...) وفي الرهيمة لقيه رجل من أهالي الكوفة يقال له أبو هرم فقال: يابن رسول اللّه ما الذي أخرجك عن حرم جدك؟ فقال: يا أبا هرم إن بني أمية شتموا عرضي فصبرت وأخذوا مالي فصبرت وطلبوا دمي فهربت وايم الله ليقتلوني فيلبسهم اللّه ذلاً شاملاً وسيفاً قاطعاً ويسلّط من يذلّهم[٤]... إلخ (...) وفي القادسية[٥] قبض الحصين بن نمير التميمي على قيس بن مسهر الصيداوي رسول الحسين إلى أهل الكوفة وكان ابن زياد أمره أن ينظم الخيل ما بين القادسية إلى خفان ومنها إلى القطقانة. (...) وفي عذيب الهجانات وافاه أربعة نفر خارجين من الكوفة

(١) المصدر السابق، ص ٢٠.

(٢) **مقتل الحسين**، ص ١٨٤ ـ ١٩٤.

(٣) **إرشاد المفيد** وزاد ابن شهراشوب في **المناقب**، ج ٢، ص ١٩٣ بعد البيت الثاني.

(٤) **أمالي الصدوق**، ص ٩٣، المجلس الثلاثون.

(٥) **معجم البلدان**، ج ١، ص ٢٢٦.

على رواحلهم ويجنبون فرساً لنافع بن هلال يقال له «الكامل». (...) وسألهم الحسين عن رأي الناس فأخبروه بأن الأشراف عظمت رشوتهم وقلوب سائر الناس معك والسيوف عليك ثم أخبروه عن قتل قيس بن مسهر الصيداوي... إلخ. (...) ثم سار إلى قصر بني مقاتل، ووصل إلى قرى الطف... إلخ (...) ولم يزل الحسين يتياسر إلى أن انتهى إلى نينوى[1] - إن الحسين نام القيلولة بالعذيب فرأى في منامه قائلاً يقول: تسرعون السير والمنايا تسرع بكم إلى الجنة... إلخ. «وإذ راكب على نجيب وعليه السلاح فانتظروه وإذا هو رسول ابن زياد إلى الحرّ معه كتاب يقول فيه: جعجع بالحسين حين تقرأ كتابي ولا تنزله إلا بالعراء على غير ماء وغير حصن. (...) وكان نزوله في كربلاء في الثاني من محرم سنة إحدى وستين[2] فجمع «ع» ولده وأخوته وأهل بيته ونظر إليهم وبكى وقال: اللّهم أنا عترة نبيك محمد «ص» قد أخرجنا وطردنا وأزعجنا عن حرم جدنا واعتدت بنو أمية علينا، اللّهم فخذ لنا بحقنا وانصرنا على القوم الظالمين... إلخ.

ويقول عبد الرزاق الموسوي المقرم[3]:

وبعث الحرّ إلى ابن زياد يخبره بنزول الحسين في كربلاء فكتب ابن زياد إلى الحسين: أما بعد يا حسين فقد بلغني نزولك كربلاء وقد كتب إلي أمير المؤمنين يزيد أن لا أتوسد الوثير ولا أشبع من الخمير، أو أُلحقك باللطيف الخبير، أو تنزل على حكمي وحكم يزيد والسلام... إلخ (...) وجمع ابن زياد الناس في جامع الكوفة فقال أيها الناس إنكم بلوتم آل أبي سفيان فوجدتموهم كما تحبون، وهذا أمير المؤمنين يزيد قد عرفتموه حسن السيرة محمود الطريقة... إلخ (...) ثم نزل ووفّر العطاء وخرج إلى النخيلة «العباسية، أو ذي الكفل» وعسكر فيها وبعث على الحصين بن نمير التميمي وحجار بن أبجر وشمر بن ذي الجوشن وشبث بن ربعي وأمرهم بمعاونة ابن سعد فاعتل شبث بالمرض[4]... إلخ.

(...) فخرج الشمر[5] سماه بشر بن ذي الجوشن في أربعة آلاف ويزيد بن الركاب في ألفين والحصين بن نمير التميمي في أربعة آلاف... إلخ. (...) وفي اليوم السابع اشتد الحصار على سيد الشهداء، ومن معه وسدّ عنهم باب الورود ونفذ ما عندهم من الماء فعاد كل واحد

(١) **مقتل العوالم**، ص ٤٨.

(٢) نص عليه الطبري **في التأريخ** ج٦ ص٢٣٣، وابن الأثير **في الكامل** ج٤ ٢ ٢٠.

(٣) **مقتل الحسين**، ص ١٩٦ - ٢٠٢.

(٤) **الأخبار الطوال**، ص ٢٥٣.

(٥) **في البدء والتاريخ**، ج ٦ ص ١٠.

يعالج لهب العطش، وبطبع الحال كان العيال بين أنة وحنة وتضوّر ونشيج ومتطلّب للماء إلى متحر له بما يبل غلّته وكل ذلك بعين «أبي علي» والغيارى من آله والأكارم من صحبه وما عسى أن يجدوا لهم شيئاً وبينهم وبين الماء رماح مشرعة وسيوف مرهفة لكن «ساقي العطاشى» لم يتطامن على تحمّل تلك الحالة... إلخ (...) وأرسل ابن سعد الخيل على الفرات فحموا الماء وحالوا بينه وبين سيد الشهداء ولم يجد أصحاب الحسين طريقاً إلى الماء حتى أضرّ بهم العطش فأخذ الحسين فأساً وخطا وراء خيمة النساء تسع عشرة خطوة نحو القبلة وحفر فنبعت له عين ماء عذب فشربوا ثم غارت العين ولم يُر لها أثر... إلخ، وفي المسرحية:

أصوات من الداخل: العطش.. العطش..

«رجل على كتفيه قربة متجهاً إلى معسكر الحسين».

الرجل: «لرجال عمر بن سعد» أيها الكفّار قد والله أصبحتم وأكبادكم مثل الصخور/ أنا ذا ماضٍ لكي أسقيكم.

«شمر وهو ينصرف يضرب القربة بسيفه فيسيل الماء على الأرض ثم يدفع الرجل بحد سيفه ويخرجان معاً ويُسمع صوت سقوط الرجل خارج المسرح مختلطاً بصرخته».

الحر: مات شهيداً.. فله الجنة../ وسنحيا نحن في اللعنة.

أسد: أنا من شرفاء الدولة/ لا ترهقنا أبداً ذِلة!

ونحن أولو تقوى يا حرّ ويوم الروع ذوو صولة.

الحرّ: يا للشرفاء الملعونين!

برير: «من المرتفع» ويلكم يا أهل الكوفة ويلكم.

كل شراب منذ اليوم/ سيغدو ناراً في جوفكم.

عمر: «من السهل» لن يشرب هذا حتى يهلك.

برير: ماذا تطلب منه الآن؟ دعوه يعد..

عمر: إما البيعة أو رأسه... إلخ[1].

(...)

---

(١) **الحسين ثائراً**، ص ٢٥ ـ ٢٦.

الحسين: ما الذي غيّركم عن طلب العدل إذن/؟

أهو ما أطعمكم ظالمكم فيه من العيش الرغيد المطمئن؟

«وهو على المرتفع يتجه لواحد منهم على المنخفض».

أنت قد كاتبتني.. فلماذا أيها الشيخ نكلت؟

أهو الخوف.. ولكن يا صديقي فلتفكّر في الثمن.

رجل ١: قد سئمنا الخوف والفقر فدعنا آمنين.

رجل ٣: فلتبايع ليزيد ثم قل ما شئت قل.

الحسين: فلماذا لم تقولوا كل هذا لي والسيف مشيم لم يسل؟

أسد: فلتبايع.. وانصرف عنّا ولا تحرج صدور الشرفاء.

رجل ٢: إنما تسعى لكي تسلبنا ما تحت أيدينا من المال فدعنا.

الحسين: يا عبيد المال.... إلخ[1].

(...)

«يتهامس عمر والحرّ وأسد»، «الحسين وصحبه على المرتفع يتشاورون».

نافع: فلنقاتل هؤلاء الآن فالأمر يسير.

زهير: «مكملاً» فسيأتي بعدهم حشد كبير.

برير: فلنقاتل قبل أن ينهكنا طول العطش.

ابن عوسجة: فلنقاتلهم وهم مختلفون.

الحسين: ما كنت لأبدأهم بقتال.

عمر: «من المنخفض ضاحكاً لشمر»

إيه يا شمر.. أما كنت قديماً واحداً من شر قطّاع الطريق؟!

شمر: ثم تبنا.

عمر: «مستمراً» فاقطع الآن طريق الفقراء

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٣.

قبل أن يأتوا من الكوفة أرتالاً إلى جيش الحسين.

«يخرج شمر مسرعاً».

الحسين: «صارخاً من على المرتفع»

أفلا يخاطبني ابن سعد «صوت من معسكر ابن سعد».

بل قد يخاف فإنه قد صار عبداً لابن هند.

عمر: «للحسين» ماذا تريد؟؟ هو القتال فما تريد؟؟

(....) فلتسكتوه... إلخ[1]..

(...)

«يخرجون جميعاً من المرتفع ويُقبل رجل من جيش عمر هو أحد عرفاء الكوفة وتجارها».

العريف: «ينادي» يا سعيد بن سعيد.

يا ابن عمي يا سعيد «يعود سعيد مسرعاً ويقف على المرتفع والعريف في المنخفض في المستوى الأول».

سعيد: يا ابن عمي لم تزعق.

العريف: أنت قد أوحشتني.

سعيد: أي وربي أنت قد أوحشتني جداً فما حالك؟ ما أحوال بيتك..؟

وعيالي يا ابن عمي كيف هم؟ كيف ليل الكوفة الصافي الجميل؟

وجواريك الحسان الفارسيات؟ وتلك الروديسية؟

أيغنين كما كن طوال الليل؟ قل لي؟ والتجارة؟

العريف: يا ابن عمي لم تنحاز إلى جيش الحسين؟

سعيد: يا ابن عمي خيبة الله عليك/ ألهذا جئت تدعوني وتزعق.

أنا مشغول فدعني «يسرع ليخرج من حيث خرج الحسين».

العريف: وبماذا أنت مشغول فديتك؟

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٤ ـ ٣٥.

سعيد: إن عندي حفر خندق «ما زال يُسرع ليخرج».

العريف: يا ابن عمي لمَ تجبني/ لمَ تنحاز إلى جيش الحسين؟

«سعيد يتوقف وصمت قليلاً ثم يعود إليه»

سعيد: ولمن ينحاز من كان له قلب وعين؟

العريف: أنا لا أجفو الحسين.

وأنا واللّه قد لا أرفع السيف عليه.. غير أن..

سعيد: «يقاطعه» أفلا تحمل قربة ماء؟

العريف: دون هذا الموت.. فالماء ألف سيف!

ما لهذا جئت يا ابن العم بل جئت لكي..

سعيد: «يقاطعه» لكي.. ماذا؟/ لكي تسألني الآن:

لماذا أنا في جيش الحسين؟

العريف: إنني أرجو لك العزّة والمال الوفير

ونعيم الدهر.. إن جئت إلى جيش الأمير.

سعيد: «صارخاً» أنت مجنون بلا ريب.. انصرف.

رحُ تمتع بالفتاة الروديسية!

العريف: لا تصح لا يسمعونا/ لا تبالغ.. إنما الأمر يسير

كل ما في الأمر أن تخطو خطوة/ خطوة تجلب حظوة

وإذا الدنيا بما فيها لديك/ وإذا أنت كأهليك غني وإذا أسرتنا باتت وما فيها فقير/

يا أخي اهبط نحونا إنها واللّه خطوة.

سعيد: خطوة واحدة لكنها كمدى الأرض لدي

إنها مفرق ما بين خلودي في النعيم السرمدي

أو خلودي في الشقاء... إلخ[1].

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٨ ـ ٣٩.

«ثم»

(...)

العريف: افهم مثلي روح العصر

لا تهلك نفسك في حرب خاسرة نعرف عقباها

إنكم سبعون فحسب جئتم تنتزعون الثروة من أيدينا كي تعطوها للفقراء... إلخ[1].

(...)

عمر: «يدرك الإشارة ويقول بحذر»/ أي جند يا أسد؟

أسد: أو ما كان ابن هند حين يستدني الأجل

يبعث السم إلى مَن يصطفيه في إناء من عسل؟

ويغني «إن للّه جنوداً من عسل».

عمر: «هامساً» ربما كان هنا شمر قريباً.. لا تزد!

الحر: إن في الجيش عيوناً لا تعد.

أسد: شمر؟ من هذا..؟ وهل آبه به؟؟/ خارجي قاتل محترف.

عمر: كان من أخطر قطّاع الطريق.

فغدا أخلص أعوان الأمير ابن زياد.

الحرّ: وغدا خير عيونه.

أسد: إن في سيفي شفاء لسعاره.

«يتحرك ويذرع المسرح إلى الناحية الأخرى».

قسماً باللّه لو صادفته يسترق السمع علينا لقتلته.

«يخرج ويبقى الحر وعمر وحدهما».

الحر: «لعمر» يا أخي هل أنصحك؟

عمر: قل وأوجز أيها الحرّ فقد أرمضني قول الحسين.

---

(١) المصدر السابق، ص ٤١.

الحر: إنما التقوى ربيع الفقهاء/ وامتحان لغلو الأغنياء.

عمر: «بضيق» وهي زاد الفقراء/ ثم ماذا؟ قل فديتم.

الحر: أفلا ترضى بأن ترجع عنا؟

عمر: سل أميرك!/ والحسين بن علي قد يرى العودة جبناً.

الحر: فلنوجهه إلى حيث تريد

وعليه موثق بالصمت أن يسكت عن أمر يزيد!

عمر: صمته..؟ إنه مثل كلامه.

وهو مسؤول عن الصمت كما يسأل عما قد يقول.

إن هذا الصمت قد يخلع قلب ابن زياد.

ويثل العرش من تحت يزيد/ فلهذا الصمت يا حرّ دوي كالرعود.

الحر: وإذن يابن وليّ اللّه ماذا أنت صانع؟

عمر: فليبايع...[1].

(...)

عمر: «منفجراً» كنت في أرض الحجاز/ آمناً في ظلّ جدّك ومهاباً كملك.

الحسين: «مقاطعاً» أنا لا أطلب ملكاً أو ولاية

إنني أنشد إصلاحاً ورشداً وهداية.

عمر: «مستمراً» كل شيء في يديك../ احترام الناس والاجفال منك

الرضا والحب والنعمة لك/ وقلوب الناس والأحلام حولك

ثم ميراث النبوة../ أي جاه بعد هذا أو مفاز؟

فلماذا جئت تستل سيوفاً تطلبك؟

الحسين: «فجأة» أنت.. هل تنفس ما لي في قلوب الآخرين؟

عمر: «مضطرباً» أنا؟!.. لا.. لا.. أكرهك.

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٢ ـ ٤٣.

غير أني.. ليس في مقدور مثلي أن يُحبك.. إلخ[1].

وقال عبد الرزاق الموسوي المقرم[2]:

وجمع الحسين أصحابه قرب المساء قبل مقتله بليلة «للكعبي» فقال: أُثني على اللّه أحسن الثناء وأحمده على السرّاء والضراء اللّهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة من المشركين، أما بعد فإني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي فجزاكم اللّه عني جميعاً (...) قالوا بأجمعهم الحمد للّه الذي أكرمنا بنصرك وشرفنا بالقتل معك أو لا نرضى أن نكون معك في درجتك يابن رسول اللّه فدعا لهم بالخير[3]... إلخ. (...) كانت ليلة عاشوراء أشدّ ليلة مرت على أهل بيت الرسالة حُفّت بالمكاره والمحن وأعقبت الشرّ وآذنت بالخطر وقد قطعت عنهم الحالة القاسية من بني أمية وأتباعهم كل الوسائل الحيوية وهناك ولولة النساء وصراخ الأطفال من العطش المبرح والهمّ المدلهم. (...) ثم دعا براحلته فركبها ونادى بصوت عالٍ يسمعه جلّهم: أيها الناس اسمعوا ولا تعجلوا حتى أعظكم بما هو حق لكم عليّ، وحتى اعتذر إليكم من مقدمي عليكم فإن قبلتم عذري وصدقتم قولي وأعطيتموني النصف من أنفسكم فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون إن وليي اللّه الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين. (...) أيها الناس انسبوني من أنا ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها وانظروا هل يحلّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي، ألست..... إلخ. وفي خطبة الحسين «ع» الثانية (...) استشهدهم عن نفسه المقدسة وما عليه من سيف النبيّ «ص» ولامته وعمامته فأجابوه بالتصديق فسألهم عما أقدمهم على قتله قالوا: طاعة الأمير عبيد اللّه بن زياد... إلخ. وفي المسرحية:

(...) «عمر لا يواجه الحسين.. وهو يحوّل عنه عينه دائماً».

الحسين: «الحسين يحاول أن ينظر في وجه عمر، ولكن عمر يدير وجهه».

إن تخيرت طريق اللّه فاللّه لطيف بعباده.

عمر: «هارباً» وأنا أطمع في رحمته يابن علي.

سأصلّي بعد أن أظفر بالري وجرجان وأبكي/ وأصلّي فعسى يغفر لي هكذا أكسب دنياي وأستمتع فيها كيف شئت.

---

(١) المصدر السابق، ص ٥٢.

(٢) **مقتل الحسين**، ص ٢١٢ ـ ٢٣٥.

(٣) **نفس المهموم**، ص ١٢٢.

ثم أقضي سائر الأيام في استغفار ربي.

الحسين: هكذا..؟؟... إلخ[1].

عمر: (...) المساواة التي تدعو لها أحلام عابد..!

الحسين: إن هذا القول ما نادى به حتى أشد الناس بطشاً في أمية هكذا أصبحت؟/ يا للعار!! قد ضيّعت والله أباك!!

عمر: انصرف عني فلا حيلة لي في كل أمرك.

ليس فيما بيننا والله منذ اليوم إلاّ ساحة الحرب.. فقاتل... إلخ[2].

(...).

سعيد: قد فرغنا من جعفر خندقنا الآن وفاضت أعرافه بالهشيم.

الحسين: أوقدوا النار لا يخوضوا إلينا بعد إلاّ خلال هو عظيم.

برير: «صائحاً فيما وراء المسرح» أوقدوا النار..

ابن عوسجة: «صائحاً» أوقدوا في الهشيم..

زينب: «في دعاء» يا إلهي يا رب إبراهيم فلتجعل النار برده وسلامه «يتصاعد دخان ولهب من بعيد.. فيقبل رجال عمر من المنخفض».

شمر: يا حسين.. أتوقد النار..؟ مهلاً..

لا تعجل بالنار قبل القيامة.

الحسين: من هذا الناعب وسط التيه؟/ من هذا الناعب في الليل؟

شمر: أنا ذا شمر من يقتلك بإذن الله/ لكي تصلى النار الكبرى.

الحسين: سيصلاها منّا الأشقى/ يا مَن شقّ عصا الطاعة.

شمر: أنت الأولى.. أنت الأولى.

عمر: بل أنا مرسلك بإذن الله إليها.

سعيد: «لشمر» بإذن الله؟ يابن المعزى.

---

(١) **الحسين ثائراً**، ص ٥٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٤.

زهير: لا أذن اللّه لمثلك إلاّ جهنّم/ أبشر بالخزي وبالنار.

سعيد: أتقتله يابن البرصاء! فلا وأبيك الفرار.

الحسين: سعيد.. أمسك.. إلخ «ثم»

حسبك حسبك يابن سعيد/ جئنا نهدي لا نشتم.

ابن عوسجة: «للحسين» الأبرص في مرمى سهمي/ أفتأذن أن أرميه بسهم؟

الحسين: أكره أن أبدأ بقتال.

زهير: هو شرّ الأعداء جميعاً.

ابن عوسجة: فإذا سقط انهزم الجند.

الحسين: ما كنت لأبدأهم بقتال وأنا لم أعذرهم بعد.

«الحرّ يتحرك إلى المرتفع في اتجاه الحسين».

شمر: «مهازلاً للحرّ» عساك ستبدؤه بالحرب.

الحرّ: «مرتعداً» دعني.. دعني/ اغرب عن وجهي.

عمر: «لنفسه» لكأنك محموم يا حُرّ/ شريد النظرة منذ الأمس.

أتذهب كي تسقي فرسك؟ «متحمساً به».

إن كنت مريضاً فلترقد..

«الحر صامت لا يتحرك.. شمر يخرج».

«الحر بدأ يصعد المرتفع متقدماً نحو الحسين».

ابن عوسجة: «صارخاً» لا تدن منه فأنت كافر.

الحسين: اللّه أعلم بالضمائر.

الحر: «يتوقف وحيداً» اللّهم إليك أتوب/ اللّهم إليك أُنيب.

أصوات النساء:

العطش.. العطش..

الحر: «لنفسه مرتعداً» أنا روعت بنات نبيك فلتغفر لي.

أنصت لبكائي يا ربي../ وبظل جناحيك استرني.

أصبحت مخيفاً للأطفال رهيباً مثل وحوش الغاب.

زينب: «صائحة من أمام الخيمة» أيها الجبّار

عُد من حيث جئت/ ابتعد عنا ابتعد.

الحر: «مستمراً وهو يرتعد».

دفعت بقرّة عين نبيك بين المخلب والأنياب.

يا ربّ اغفر لي ذنبي/ واجمعني بابن الزهراء

ورغائب مذخور ثوابك «يقترب من الحسين».

ابن عوسجة: أنت يا أشجع من يضرب في الكوفة بالسيف لماذا ترتعد؟

سعيد: «يشهر سيفه» ابتعد يا أيها الذئب ابتعد.

الحسين: اتركوه يقترب.

الحر: «للحسين في خشوع»/ أنا ذا الحرّ الذي جعجع بك.

أنا من أنزلك الأرض التي ترتهنك.

لم أكن أحسب أن القوم يبغون هلاكك.

فأنا ذا تائب للّه ما بين يديك.

أترى لي توبة إن أنا جاهدت معك؟.. إلخ[1].

(...)

عمر: (...). «متقدماً إلى اليمين ليقف خطيباً في الناس».

أيها الناس لأنتم ها هنا عدة آلاف وهم سبعون/ من أهل الورع

إنهم سبعون من أهل البصائر.

أسد: يستميتون على الحق يرون الموت غاية.

«مستمراً» إنهم سبعون لا غير فهم صرعاكم.

أسد: غير أن السيف من أسيافهم أضحى بألف.

---

(١) المصدر السابق، ص ٥٦ ـ ٥٨.

«يتقدّم من كل أنحاء المقدّمة رجال في سيوف ودروع ورماح من جيش عمر.. عمر يقف على جذع شجرة خطيباً فيهم»... إلخ «ثم» (...)، «يخرج بعض الرجال ووراءهم عمر».

شمر: احرقوا الخيمة يا قوم بمن فيها/ فإن خفوا إليها منقذين جئتموهم خفية من خلفهم.

أسد: إن في الخيمة أطفالاً صغاراً ونساء... إلخ «ثم».

(...) «يتزايد عدد رجال عمر الذين في عمق المسرح يحاصرون الهضبة التي عليها معسكر الحسين». «ثم». «يخرج زيد بن أرقم من خيمة عمر مندفعاً إلى شمر بسيفه».

زيد: «يعترض شمر بسيفه» تأخر لعنت..

وهان المراد وشقّ الطريق وذلّ الرفيق!

شمر: يا زيد دعني.

سأحرق خيمة أهل الحسين على أهله../ فأصرفه ساعة عن قتالي وأخلص بعد إلى قتله.

«رجال مسلحون من جند عمر يحيطون بالهضبة ورماحهم مشرّعة من على الهضبة.. يخرج النساء من الخيمة صائحات»... إلخ[1]. (...).

أسد: (...) يا ويلنا يا ويلنا من كل هاتيك الدماء.

عمر: ماذا تقول آأنت تهذي يا أسد!؟

أسد: قتل الفتى بشر، فوا أسفي عليه.

قتل الفتى بشر، وفي أحشائه سبعون طعنة.

قد كان بشر خير فتيان المدينة لو علمت..

أنا قتلنا شيخنا ابن مظاهر.. يا شقوتاه!

أو لا تحس لظى الفجيعة يابن سعد؟ ويلتاه.

«ثم» (...) اليوم اتركه ليقتل.. ويلتاه!

(١) المصدر السابق، ص ٧٦.

«يتحرك ليخرج وعمر يتبعه محاصراً»/ أنا في المدينة قد نصحته.

عمر: «حاسماً» قسماً برب قريش.

لن يجتز لي رأس الحسين سواك أنت.... إلخ[1]. (...).

«يخرج عمر وأسد والرجال ولا يبقى إلاّ الحسين وزينب وسكينة على الهضبة».

الحسين: «شاهراً سيفه».. إيه آل البيت قد آن الرحيل.

حان والله الوداع.

سكينة: فهو والله فراق ولا يُرجى بعده العمر لقاء!!

زينب: هكذا تسلّم للموت حياتك «تتماسك بجهد».

الحسين: فإلى من أتكل «يتحرك».

سكينة: «صارخة مروّعة» أبتي لا.. كيف ترحل؟

الحسين: لم لا يذعن للموت فتى ليس له من ينصره؟

زينب: «تنهار فجأة».. واحمزتاه.. واحمزتاه..

واأبتاه... واأبتاه!

الحسين: «مستمراً» أم ترى أستسلم الآن فتسلمن وأسلم؟

زينب: إنما يأبى الله هذا يا أخية.

سكينة: واجداه.. وواغربتاه.

الحسين: لا تبكيا.. إن البكاء طويل.

سكينة: أبتاه إنك سائر للموت مقهوراً عليه.

الحسين: هو ذا مصيري يا بنية لا فرار من المصير.

سكينة: ارجع بنا لمقام جدي وانج يا أبتي بنفسك.

الحسين: هيهات «لو ترك القطا ليلاً لناما».

زينب: هيهات لو دفع المريد عن الطريق لما استقاما.

---

(١) المصدر السابق، ص ٧٩.

الحسين: «متجهاً إلى السماء».. يا رب ليس لنا سواك.

أنا لن أضل على هداك.

أنا لن أضيع وهذه الدنيا ملاءة رحمتك.

أنا لن أذل وكبريائي نفحة من عزتك.

«زينب تقف ضارعة»

زينب: هو ذا يسير إلى العدو اللّه باسم معتمداً/ عليك فلا تضعه ما فوق وجه الأرض من أحد... إلخ[1].

ويقول عبد الرزاق الموسوي المقرم[2]:

ولما قتل العباس التفت الحسين «ع» فلم يرَ أحداً ينصره ونظر إلى أهله وصحبه مجزرين كالأضاحي وهو إذ ذاك يسمع عويل الأيامى وصراخ الأطفال صاح بأعلى صوته: هل من ذاب عن حرم رسول اللّه؟ هل من موحّد يخاف اللّه فينا؟ هل من مغيث يرجو اللّه في إغاثتنا؟ فارتفعت أصوات النساء بالبكاء[3] (...) وطلب ثوباً لا يرغب فيه أحد يضعه تحت ثيابه لئلا يجرّد منه فإنه مقتول مسلوب.... إلخ (...) ودعا ولده الرضيع يودعه، فأتته زينب بابنه عبد اللّه وأمه الرباب فأجلسه في حجره يقبّله ويقول بعداً لهؤلاء إذا كان جدك المصطفى خصمهم[4] ثم أتى به نحو القوم يطلب له الماء، فرماه حرملة بن كاهل الأسدي بسهم فذبحه فتلقى الحسين الدم بكفه ورمى به نحو السماء... إلخ. (...) وتقدم الحسين «ع» نحو القوم مصلّتاً سيفه آيساً من الحياة ودعا الناس إلى البراز فلم يزل يقتل كل من برز إليه حتى قتل جمعاً كثيراً[5] ثم حمل على الميمنة... إلخ (...) وقصده القوم واشتد القتال وقد اشتد به العطش[6] فحمل من نحو الفرات على عمرو بن الحجاج وكان في أربعة آلاف فكشفهم عن الماء وأقحم الفرس حتى تشرب الفرس ويشرب قال الحسين أنت عطشان وأنا عطشان فلا أشرب حتى تشرب! فرفع الفرس رأسه كأنه فهم الكلام ولما مدّ الحسين يده ليشرب ناداه رجل أتلتذ بالماء

(١) المصدر السابق، ص ٨٣ ـ ٨٤.

(٢) **مقتل الحسين**، ص ٢٧١ ـ ٢٧٥.

(٣) **اللهوف**، ص ٦٥.

(٤) **اللهوف**، ص ٦٥.

(٥) **مقتل العوالم**، ص ٩٧. **مثير الأحزان**، لابن نما ص ٣٧. **ومقتل الخوارزمي**، ج ٢ ص ٣٣.

(٦) **اللهوف**، ص ٦٧.

وقد هتكت حرمك؟ فرمى الماء ولم يشرب وقصد الخيمة[1]. وفي المسرحية:

الحسين: (...) «صارخاً فجأة»:

إيه يا أيتها الأرواح في هذا الدجى الداجي الثقيل المترامي

أنت يا من تعبر الليل الحزين

إيه يا أيتها الهائمة اليرى على جسر القرون

«متصاعداً» إيه يا أرواح آبائي وأسلافي العظام

اصرخي كي ينهض الغافون في وجه المظالم

ارفعي في كل أرض نالها الجور لواء الشهداء

اجعلي من هذه الأشلاء رايات لظى مشتعلة... «ثم» يخرج مسرعاً بالسيف ونسمع صليل سيوف «ثم» «يقبل بعض الرجال مفزعين»... «يخرج الرجال جميعاً».

يقول عبد الرزاق الموسوي المقرم[2]:

(...) حقاً لو قيل بأن هذا الموقف من أعظم ما لاقاه سيد الشهداء في هذا اليوم فإن عقائل النبوة تشاهد عماد أخبيتها وسياج صونها وحمى عزّها ومعقد شرفها مؤذناً بفراق لا رجوع بعده فلا يدرين بمن يعتصمن من عادية الأعداء وبمن العزاء بعد فقده! فلا غرو إذا اجتمعن عليه وأحطن به وتعلقن بأطرافه بين صبي يئن ووالهة أذلها المصاب... إلخ (...) ورجع إلى مركزه يكثر من قول لا حول ولا قوة إلاّ باللّه العظيم[3] وطلب في هذه الحال ماءً فقال الشمر: لا تذوقه حتى ترد النار وناداه رجل: يا حسين ألا ترى الفرات كأنه بطون الحيات؟ فلا تشرب منه حتى تموت عطشاً فقال الحسين: اللّهم أمته عطشاً، فكان ذلك الرجل يطلب الماء فيؤتى به فيشرب حتى خرج من فيه وما زال كذلك إلى أن مات عطشاً. ورماه أبو الحتوف الجعفي بسهم في جبهته فنزعته وسالت الدماء على وجهه فقال: اللّهم إنك ترى ما أنا فيه من عبادك هؤلاء العصاة، اللّهم احصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تذر على وجه الأرض منهم أحداً ولا تغفر لهم أبداً... إلخ (...) ولما ضعف عن القتال وقف ليستريح فرماه رجل بحجر على جبهته فسال الدم على وجهه فأخذ الثوب ليمسح الدم عن عينيه رماه آخر بسهم محدد له

---

(١) **البحار**، ج ١٠ ص ٢٠٤، **ومقتل العوالم**، ص ٩٨، **ونفس الهموم**، ص ١٨٨. الحسينية، ص ٤٦.

(٢) **مقتل الحسين**، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٩.

(٣) **اللهوف**، ص ٦٧.

ثلاث شعب وقع على قلبه فقال: بسم اللّه وعلى ملّة رسول اللّه ورفع رأسه إلى السماء وقال: إلهي إنك تعلم أنهم يقتلون رجلاً ليس على وجه الأرض ابن بنت نبي غيري ثم أخرج السهم من قفاه وانبعث الدم كالميزاب[1] فوضع يده تحت الجرح فلما امتلأت دماً رمى به نحو السماء وقال: هوّن عليّ ما نزل بي أنه بعين اللّه فلم يسقط من ذلك الدم قطرة إلى الأرض!![2] ثم وضعها ثانياً فلما امتلأت لطّخ به رأسه ووجهه ولحيته وقال: هكذا أكون حتى ألقى اللّه وجدي رسول اللّه «ص» وأنا مخضّب بدمي وأقول: يا. جدي قتلني فلان، وفلان[3].

وفي المسرحية:

أسد: هكذا يصبح هذا الجيش واللّه كوحشي/ ويغدو هو حمزة..

عمر: «مستمراً في فزع» وارضخوه من بعيد بالحجارة.

شمر: أرسلوا النار عليه والحجارة.

أسد: «على مرتفع» إن في أحشائه عشرين رمحاً وهو يضرب.

«يضع وجهه في كفيه».

عمر: «للجيش» أرسلوا أيضاً سهاماً ورماحاً أخريات.

شمر: عذبوه.. فليعذّب.. فليعذّب.

عمر: «منهاراً» فليعذّب شرّ أنواع العذاب.

ارشقوه برماح وحراب «يدخل زيد بن أرقم منهكاً مروّعاً».

«يتماسك بصعوبة» هو ذا يسقط على الأرض جريحاً.. أسفاه.

الرجال: ويلتاه.. ويلتاه.

زيد: كيف باللّه سننجو من عذاب اللّه في يوم الحساب.

أسد: آه لو أقوى على إنقاذه آه.

شمر: «شاهراً سيفه على أسد» فلتحاول يا أسد.

أسد: «يكمل» كيف باللّه سننجو يا عمر

---

(١) **نفس المهموم**، ص ١٨٩.

(٢) **تهذيب تأريخ ابن عساكر**، ج ٤، ص ٣٣٨. **ومقتل الخوارزمي**، ج ٢، ص ٣٤.

(٣) **مقتل الخوارزمي**، ج ٢، ص ٣٤. **واللهوف**، ص ٧٠.

حين نأتي اللّه يا ويلي شفيعاه يزيد والدعي.

ثم يأتيه الحسين بن علي على شفيعاه تقاه والنبي.

ويلنا.. يا ويلنا أيان إذ ذاك المفرّ؟!

عمر: «صارخاً» بل لك الويلات وحدك.

لا تعد لي ذكر يوم الحشر.. ويحك.

زيد: هلك الناس جميعاً.

أسد: «يخفي وجهه في يديه».. يا للعار الأبدي..

ليتني أقوى على إنقاذه.

عمر: «محتداً لأسد» اذهب الآن لكي تجتز رأسه!

أسد: «صارخاً» أفتنجو أنت من قتل الحسين بن علي.

عندما أوخذ عند اللّه من فوق حربة.

عمر: «لأسد مشيراً لعمر»: إنما هذا أمير الجيش.

يا شيخ امتثل إذ يأمرك.

عمر: فإذا خالفت عن أمري فلن أرحم رأسك!

«أسد يتجه إلى ما وراء المرتفع ويختفي مسرعاً.. وأنين الحسين يرتفع».

صوت الحسين: أأقتل مظلوماً وجدّي محمد؟/ وأذبح عطشاناً.

أنا ابن الذي روى جميع عطاش الأرض/ أني رآهم؟

وأترك مهتركاً وأمي فاطمة.

«تندفع زينب مفزعة على صوت الحسين.. وتخترق المكان إلى عمر فتواجهه ولكنه يستدير ولا يستطيع النظر إليها»[1].. إلخ (...).

شمر: ويحكم ماذا دهاكم؟/ إنها رأس رجل/ إنها مهما تكن رأس رجل «الرجل ١» أو لم تقطع طوال العمر رأساً لرجل؟

.... إلخ[2].

---

(١) **الحسين ثائراً**، ص ٩٠ ـ ٩٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٩٥.

ويقول عبد الرزاق الموسوي المقرم[1].

وأقبل الفرس يدور حوله ويلطّخ ناصيته بدمه، فصاح ابن سعد دونكم الفرس فإنه من جياد رسول اللّه «ص» فأحاطت به الخيل فجعل يرمح برجليه حتى قتل أربعين رجلاً وعشرة أفراس فقال ابن سعد دعوه لننظر ما يصنع فلما أمّن الطلب أقبل نحو الحسين يمرّغ ناصيته بدمه ويشمّه ويصهل صهيلاً عالياً[2]. قال أبو جعفر الباقر «ع» كان يقول: «الظليمة، الظليمة، من أمة قتلت ابن بنت نبيّها» وتوجه نحو المخيم بذلك الصهيل[3] «فلما نظرن النساء إلى الجواد مخزياً وللسرج عليه ملوياً خرجن من الخدور ناشرات الشعور! على الخدود لاطمات وللوجوه سافرات وبالعويل داعيات، وبعد العز مذللات، وإلى مصرع الحسين مبادرات»... إلخ (...) وأقبل القوم على سلبه، فأخذ إسحاق بن حوية قميصه، وأخذ الأخنس بن مرثد بن علقمة الحضرمي عمامته، وأخذ الأسود بن خالد نعليه، وأخذ سيفه جميع بن الخلق الأودي ويقال رجل من بني تميم اسمه الأسود بن حنظلة. وجاء بجدل فرأى الخاتم في أصبعه والدماء عليه فقطع اصبعه وأخذ الخاتم وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته[4] وأخذ ثوبه الخلق جعونة بن حوية الحضرمي وأخذ القوس والحلل الرحيل بن خيثمة الجعفي وهاني بن شبيب الحضرمي... إلخ.

أسد: «منهاراً» أسفاه قد ذبحوا الشهيد ابن الشهيد ونحن ننظر!

النادبات: يا ربّ.

سكينة: يا ربّ إبراهيم أهلكهم بنارك أجمعين.

النادبات: يا ربّ.

سكينة: يا ربّ إسماعيل فليذبح عدوّك في فراشه.

زينب: يا ساقي العطشان لا يروي العطاش اليوم إلاّ بحر دمّ إلى دعوتك فانتقم يا منتقم.

«عمر يصيح على المرتفع وحده في عصبية»

عمر: فلتربطوا أيدي النساء لكي يسقن إلى يزيد كالإماء

فإذا صرخن وإن جرؤن على البكاء

(١) **مقتل الحسين**، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٥.

(٢) **تظلّم الزهراء**، ص ١٢٩، **والبحار**، ج ١٠، ص ٢٠٥.

(٣) **مقتل الخوارزمي**، ج ٢، ص ٣٧.

(٤) **اللهوف**، ص ٧٣.

فكمموا أفواههن.

والآن طوفوا بالرؤوس على الحراب.

فلتتركوا أجساد من سقطوا هنا في التيه تأكلها الذئاب.

«يدخل رجال ونساء آخرون يلطمون ويندبون وهم من أهل الكوفة وعمر يخرج مسرعاً كأنه يفر»... إلخ[1].

(...).

يزيد: «ثائراً» أيها الحرّاس.. يا حرّاس عرشي أجمعين.

«يدخل عدد من الحراس.. ومعهم الغلام القرّاد من باب اليسار».

أحد الحرّاس: سيدي.

يزيد: «مشيراً للجارية» اسحبوا تلك.. خذوها!

واسجنوها مع قطّاع الطريق.

وإلي الآن بالنسوة من آل الحسين.

ادخلوا كل السبايا ورجالي المخلصين.

«بعض الحرس يسحبون الجارية.. ويخرجون من باب اليسار.. وآخرون يدخلون من باب اليمين بالسبايا منثورات الشعور يسوقهن رجال بالرماح.. وشمر على رأس الرجال. وسط السبايا زينب وسكينة.. النساء منهكات ممزقات».

الجارية: «وهم يسحبونها» إن رأس ابن علي تتحرك!!

هي ذي تعترض الآن طريقي وطريقك.

يزيد: «متماسكاً» اقذفوا تلك إلى البحر لكي تسبح.. حتى قومها.

فعسى تنفعها رأس الحسين بن علي يومها..

«يسحبون الفتاة إلى الخارج تماماً».

زينب: «تتأمل المكان في عمق فاجع».

أينما تمشي من الأرض فلن تبصر إلاّ قطرات من دمائه.

(١) **الحسين ثائراً**، ص ١٠١ ـ ١٠٢.

سكينة: «تتأمل المكان في رُعب».

إن هذا العرش يا عمّة يطفو فوق بحر من دماء الشهداء.

يزيد: «يترك العرش في تثاقل مصطنع ويذرع المكان ليتأمّل السبايا».

اسكتا «للحراس» لا تُسمعوني هذيانات النساء.

.... إلخ[1].

(...).

شمر: «يتقدّم إلى يزيد مختالاً» املأ ركابي فضة وذهباً/ إني ذبحت السيد المهذّبا/ قتلت خير الناس أماً وأباً/ وأكرم الناس جميعاً حسبا/ طعنته بالرمح حتى انقلبا/ ذبحته بالسيف ذبحاً عجبا.

يزيد: فيم إذن قتلته وقد علمت أنه كما تقول نسباً؟

أترى تمدحه عندي وترجو بعدها جائزتي؟

شمر: أأنا أمدحه؟ تللّه ما أمدح إلاّ فعلتي!!

يزيد: ليس عندي لك من جائزة/ بعدما أسمعتني مدحك له.

قسماً باللّه لولا رأسه تشفع فيما قلته الآن..

لألحقناك به/ امض عني.. عد إلى الكوفة عد لابن زياد فلتبلّغه بأن يحسن تأديب رجاله.

شمر: سيدي... إلخ[2].

(...)

«زوجة يزيد تدخل من اليمين مندفعة ناشرة شعرها حاسرة كنساء الحسين».

زوجة يزيد: يا يزيد لست زوجي يا يزيد/ لست لي بعد بزوج.

يزيد: «خائفاً» زوجتي ماذا دهاك؟/ لمَ تأتين إلينا حاسرة؟

الزوجة: فبنات المصطفى صرن حواسر/ أو ما تشعر بالحزن لهنّ؟

---

(١) **الحسين ثائراً**، ص ١١٠ ـ ١١٩.

(٢) المصدر السابق، ص ١١٤.

.... إلخ[1].

يزيد: (...) «صارخاً»/ جفّ حلقي.. يا إلهي.

«يقف صارخاً» أو ما من فرس ينقذني من وحدتي.

أو لا قطرة ماء فأروي غلّتي/ «ينهار مرتمياً على الأرض».

صدى صوت زينب:

أين تمضي أيها السلطان من عارك.. لا مهرب لك إن طوفان دمّ الأبرار حولك..

وستغدو في عراء فتحت أفواهها فيه قبور.

ومشي قتلاك نحوك/ هي ذي رأس الحسين تصفعك.

«يتراءى له أنه يرى خيال الحسين في حالة من تلك الأضواء التي نراها في الأحلام في ثياب بيض ووجه وضّاء جليل، كما يتخيّل أهل الجنة.. الخيال يقف على أعلى مرتفع ويتحدّث في حوار مع يزيد بصوت محايد عميق وبلا انفعال».

يزيد: العطش؟ يا إلهي كدت أقضي في العطش.

(...) قامت الأشباح في الأكفان يقذفن فوقي اللعنات.

وضحاياي جميعاً قد رمتهن القبور/ أقضاتي أنتم؟

من ذاك أيضاً من هناك؟ «تختلط أمامه الرؤى».

.... إلخ[2].

الجمعة الحزينة

وفي الجمعة الحزينة تمثل لأبعاد متعددة، منها ما هو متعلق بالفرد، وطبيعته البشرية، من خلال المشاعر، والانفعالات، ومنها ما هو متعلق بالجماعة، وبخاصة ما هو مرتبط بالتعبير المشترك، وكلاهما؛ أي الفردي، والجماعي متعلقان بتوزع تتجاذبه عناصر هامة هنا، وهناك، بعضها فطري «غريزي».. والآخر عقائدي «ديني».. والثالث اجتماعي ذو نوازع بين الفرد والجماعي.. وتتعلّق كل هذه الأمور بالرموز، والمرموزات التي استوعبها الطقس، والشعائر بكل تقاليدها.. ابتداءً من الحركة، فالإشارة، فالممارسة، وانتهاءً بالملبس، والمأكل، والروائح

---

(١) المصدر السابق، ص ١١٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٤ ـ ١٢٦.

«العطور، والبخور مثلاً،.... إلخ». وعليه فإن الخواص الدرامية في الجمعة الحزينة تشتمل على الآتي:

أولاً ـ عناصر الطقس المادية

١ ـ يتمثل سعف النخيل، شعاراً لفرش الأرض، التي يسير عليها الملوك وهي أثمن وأقدس ما يطأه الملوك في ذلك الزمان، من السجاد الأحمر، ولكون أن النخيل من الأشجار المقدسة في وادي الرافدين مثلها، كمثل شجرة الزيتون في فلسطين فإن أغصان الزيتون ترفع للتلويح بها، ومن ثم لأخذها إلى البيت كتميمة تبقى طوال العام.

٢ ـ إن هذه الملابس التي يرتديها هؤلاء لها تأثيرات خاصة، نفسياً، وجمالياً، وقدسياً، تفصلهم عن عامة الشعب، بمسافة أولية، شكلاً، ومهابة. قبل أي من الدرجات المميزة الأخرى، كالحركات الخاصة، وأفعال تابعة للطقس، واستخدام البخور، والشموع، والإشارات العامة، رش الماء «المقدّس»، ودق الأجراس وللشمامسة طقوس أخرى مهمة، تكون خارج أداء طقس القدّاس الإلهي، وهي القيام بتلاوة الإنجيل، بصوت عالٍ، وبترتيل يشبه التجويد، تقام هذه الطقسية عصر كل يوم وتقتصر على الشمامسة، وربما بعض الهواة من خدّام الكنيسة، وأحد القسس المهتمين، «ويدعى هذا بطقس الرمش»، وليس هذا له علاقة بوجود جمهور من المصلين، أو منعهم فإذا وجدوا لا مانع. وعادة ما يحضر بعض العجائز من الذين، يودون قضاء فروض صلواتهم في الكنيسة.

٣ ـ إن تجسيد «رسم، ونحت» نموذج «الحَمَل» يتكرر أسفل الصليب، يعود بالأصل إلى رمز الفداء، «لذلك يدعى المسيح بالفادي أيضاً». أي التضحية الوثنية التي كانت قد استبدَلَت التضحية بالبشر، إلى التضحية بالحيوان بديلاً، مثل كبش إبراهيم مثلاً لكن إعادة المثال هنا، بالتضحية بالمسيح بنفسه هو رمز للتضحية بالطبيعة البشرية من خلال المسيح ذي الطبيعتين «البشرية، والإلهية». إن هذه التضحية الراجعة للنموذج، مع فعل الإبدال المقصود، لم تكن لتقوم لولا التأكد من العودة من جديد، سواء وقتها في فعل القيام أو القيامة الموعودة للمسيح، وفيها أيضاً تأكيد على أن الطبيعة البشرية فانية. أو بفعل التجسيد الآني أمام الجمهور الحاضر في الكنيسة، لتحقير الجسد وإماتة رغباته «غرائزه». أما الطبيعة الإلهية «ربما الروح، والنفس» فباقية. هذا المثال متداخل المعاني، والأبعاد بين التأريخ، وبين الأسطورة. ولعل هذا يذكرنا بالجذر التأريخي للتضحية، هو

الآخر في الميثولوجيا الإغريقية، فإن «آغاممنون» لم يكن ليستطيع الرحيل إلى «طروادة» لاستعادة «هيلين» لولا هبوب الرياح التي من غيرها لا يمكن للسفن أن تبحر، وعليه فإن «كالخاس» ذلك العراف اللعين هو الذي يدعو لتقديم ضحية ويقدم مواصفات لا تنطبق إلاّ على «إيفيجينيا» ابنة «آغاممنون» البكر ولعلها لم تكن صدفة أن «هيلين» خالة «إيفيجينيا»، ولم يكن على الأب إلاّ أن يجلب ابنته لمواقع العسكر إلاّ بالخديعة، على أنه سوف يزفّ بكره «إيفيجينيا» لبطل الأبطال، نصف الإله «أُخيل». وهكذا تحلّ اللعنة عليه، وعلى ذرّيته.

٤ ـ للأسكفة الحجرية أهمية، ولعتبة الباب أهمية هي الأخرى. وهي التي ترد أيضاً في الميثولوجيا القديمة كلها، ويأتي بأكثر من تعبير في الأعمال القديمة، وتنعكس هنا في رموز القداديس وبخاصة المتعلقة بجنّاز الموتى. لها معانٍ خاصة في نشيد إنشاد الملك سليمان. فيما بعد، إن البناء القوي يعني المهارة في الصناعة، ويعني أيضاً أن تمّ بشكل متين ومواده قوية، وينعكس هذا بدوره على أن من قام بتشييد هذه المدينة ليس أقل بأساً، وهو جبّار وفاهم أسس أقدم المدن السبع في الرافدين، إحداهن أوروك نفسها.

ثانياً ـ الرموز في الطقس

١ ـ إن الأعداء في هذه الاحتفالية لا مكان لهم، إلاّ بشكل وصفي. أو ضمن الصور المرسومة على الجدران في الكنيسة. ولا يظهر الأعداء هناك أيضاً إلاّ بشكل ثانوي، وفي الخلفية دائماً. وذلك أيضاً يتبع لعدم الرغبة في التشبه بالأعداء مهما تطلب الدور القدسي، والواجب من الشعب «تماماً مثلما يرفض أحدهم التشبّه بيهودا الإسخريوطي». لأن المشخّص سوف يبقى ملعوناً طوال العام، وربما يتبادر لبعض المنفعلين من إيذائه، بقصد أو بغية التقرّب من الباري. ويبدو أن الإحجام عن تشخيص العدو مترسخ في تقاليد الشعوب التي لا ترتضي أن تُري شعوبها صورة الأعداء. وإن شخّصتهم فإنها تشخصهم على أبشع الأحوال. ولكن، ومهما يكن من أمر فإن جانب عدم تشخيص الأعداء له مردوده الإيجابي هو الآخر، لأن عدم التشخيص، سوف يطلق الحرية للمخيلة أن تتصور، بشاعة، ورهبة ذلك العدو. أما تشخيصه فلن يفيد إلاّ آنياً في إنجاح الطقس، لكن الصور المتبقية سوف تكون قاصرة، ولن يتعلّق ذلك كله بمظهر، وانفعال «شخصية» المشخّص الذي يعرفه الجمهور. لذلك أيضاً لم يكن محبذاً تشخيص الأبطال، والقديسين، وحتى الأنبياء، خشية تحدد أطر ما سوف يعلق في ذاكرة الجمهور.

٢ - إن أفعال التهليل، قد تجرّدت فيما بعد لكلمة هاليللويا، دون ممارسة الفعل نفسه، وهذا الفعل يتم بالتصويت بالفم، والحنجرة، بصوت يشبه «الكلللليلليش. أواللليلليش» عندما تقوم المهللة بها. «لأن فعل التهليل يقتصر فقط على النساء، كما تمّ التعارف عليه حتى الآن، «إلاّ ما ندر» ربما لارتفاع درجة شدة صوت المرأة». وذلك برفع طبقة الصوت، وتحريك اللسان بسرعة في مقدمة الفم خارج الشفاه، فيخرج صوتاً مهللاً، كالهلليوليا. بينما اقتصر الفعل الديني «غير الشعبي» على ذكر الفعل لفظاً بكلمة هللويا صارت دارجة في كافة لغات العالم. تماماً مثل كلمة آمين.

٣ - إن تمثّل الكاهن، ومجموعة الشمامشة، وخدّام الكنيسة الحالة في التبريك، والمرور بموكب المسيح الداخل لأورشليم، تتنازعهم هم الآخرون نوازع متعددة، نوازع لها علاقة بالإيمان الراسخ، للقيام بهذه المهمة من جهة، وعظمة الدور الذي يقومون به من جهة ثانية. ويلبس الكاهن مع بقية الشمامشة، والخدّام من الشعب في الكنيسة، ملابس تختلف أنواعها بمستويات ودرجات القدسية. حيث يلبس الخدّام الأُردية البيضاء ليس فيها إلاّ ياقة ملونة كبيرة، فوق الرداء، ومنفصلة عنه، وحزام يتوسط الجسم، يكون غالبهم من الشبان، والصبيان. يتشح بالإضافة إلى ذلك الشمامشة بأوشحة، تمنطقهم من أعلى أحد الكتفين لتمر تحت الأبط الثاني، وبمقامات متعددة حسب درجات الشمامشة، لا أعمارهم. أما الكاهن فإن ملابسه الخاصة معروفة في كل المناسبات، لكن لكل درجة كهنوتية ملابسها، وألوانها العامة أيضاً، بالإضافة إلى الرداء الأبيض وأحزمة الوسط، والوشاح الذي يتدلى على طرفي الجسم من العنق بالتساوي، تغطيهما «دلمة» جلباب طويل بلا أردان للأطراف، وإنما يغطي الأكتاف، ويربط من موضع العنق عند الحنجرة بكلاب مميز، ويرسم عادة على الجلباب صليب كبير مزخّرف، حسب ذوق الكاهن، ويظهر عادة عند ارتدائه على ظهر وصدر الكاهن..

٤ - وذلك بتحريك بمد اليد اليمنى المبللة بالماء المقدّس، وأصابعها الأربعة ممتدة، ومضمومة إلى الإبهام، ونقلها ابتداءً من الجبهة، ثم أسفل الصدر، ثم إلى أعلى الكتف الأيمن، فأعلى الكتف الأيسر، وأخيراً طبق اليد اليمنى، مع اليد اليسرى أمام البطن بتلاوة ما يلي: بسم الآب «اليد ممدودة للجبهة». والابن «اليد منتقلة إلى أسفل الصدر». والروح القدس «بنقل اليد أثناءها إلى أعلى الكتف الأيمن، فأعلى الكتف الأيسر». الإله الواحد، آمين «تلتقي كف اليد اليمنى بكف اليد اليسرى منبسطة

إحداهما على الأخرى بوضع المصافحة أو السلام».

٥ - فيقدم المصلي فمه بخشوع، وقد أطبق عيناه، وحينها يضع الكاهن في فمه قطعة من البرشام المبلل بنبيذ، يكون أحد خدّام الكنيسة قد وضع أمام فمه، تحت الحنك طبقاً لمنع تساقط فتات البرشام على الأرض. وحالما يشعر المصلي بتقدم يد الكاهن يفتح فمه، لتدخل القطعة في فمه متمثلة له الآن كجسد المسيح، ودمه. ويحاول البلع دون أن يمضغ بأسنانه البرشام المبلل بالنبيذ، لكي لا يتهشّم جسد «الرب»، فيحلّ في المتناول كاملاً. وحالما يستقر في طريق أوبته يبتدىء تلاوة صلاة الشكر الخاصة، بينما يردد الشعب من بعده ما يقوله أو ما يخصه.

ثالثاً - الممارسات في الطقس

١ - إن الإيعازات الخاصة التي يوعز بها الكاهن، على الرغم من تعوّد الجمهور عليها، لكنها تعتبر حركات متبادلة بين الكاهن، والشمامشة، والخدّام من جهة، وأفراد الشعب من المصلين من جهة أخرى. تكون هذه الإيعازات على العموم مفهومة، ومعتادة. غير أن هناك حركات تختلف من طقس قدّاس لآخر، خصوصاً تلك التي لا تتكرر إلاّ في الاحتفالات الخاصة التي تأتي لمرة واحدة في السنة. كأحد الشعانين، وخميس الفصح، والجمعة الحزينة مثلاً.

٢ - وتكون صفوف الأطفال ممن أتموا أفعال التوبة بعد الاعتراف قد سجدوا في طقس القدّاس الإلهي لابسين ملابس بيضاء. وقد أتموا حفظ ما تعلموه أثناء التدريب لمدة لا تقل عن شهر، مرددين حفظهم بناء على الإيعازات التي ترد إليهم من إحدى الراهبات المشرفات، بشكل رسمي مهيب. وينتهي الطقس بمناولة جماعية احتفالية، ويكون هذا الطقس للأطفال بمثابة اعتراف رسمي ببلوغ الطفل سن يؤهله الحساب، والعقاب، وتمييز الخير من الشر، وعليه الالتزام بالمثل والقيم الأخلاقية، والدينية، فإذا ما أخطأ فعليه الذهاب للكنيسة للاعتراف بذنوبه أسوة بأهله، وكل الكبار في السن. يتبعها بالطبع فعل المناولة الذي هو الجزء المهم في نيل البركة، والتطهّر بعد تناول جسد وروح المسيح. ويعتبر الكثير من أهل الأطفال هذه المناسبة وبأشكال ووعي مختلفين. فمنهم من يكتفي بحفل فطور جماعي بين الصغار في القاعة التابعة للكنيسة، ومنهم من يدعو بعض الصغار من المقربين لابنهم لتناول الغذاء والبعض الآخر يصرّ على الاحتفال بطريقته، وكأنه يقيم عرساً ما، فيدعو أصحابه لحضور الدعوة الكبرى في أحد

الفنادق، ويبالغ بعضهم حتى في فعاليات راقصة من فقرات تلك الفنادق، ولكنهم يلاقون كثيراً من النقد لهذا التقصير المفعم بعدم تقدير قدسية هذه المناسبة.

٣ ـ إن قدّاس الجنّاز يقام بناءً على حدث لوفاة أحد ما، سواء في اليوم الأول للدفن أو اليوم الثالث، أو مرور أسبوع، أو أربعين يوماً، أو ذكرى مرور عام على الوفاة بما يسمى الجنّاز. ولكن دون المرور بالمراحل الأربع عشرة لآلام المسيح. فبعد أن يختتم الكاهن قدّاس الموتى بالتراتيل، يقام طقس «الجنّاز» على روح المتوفى. وتختص مراسيم «الجنّاز» بخليط من الأدعية ومزامير الأنبياء وفيه تنشد مدائح، وابتهالات تستدعي تخفيف الحكم على الميت في الآخرة لوضعه في موضعه الصحيح. ويتم ذلك من خلال ترديد هذه الأدعية بين الكاهن، والشعب المصلي وأهل الفقيد. ويختتم «الجنّاز» بمزمور من مزامير «داوُد» القائل:

ـ «من الأعماق صرخت إليك يا رب،

ـ يا رب استجب لصوتي،

ـ لتكن أذناك مصغيتين لصوت تضرّعي... إلخ».

الخاتمة

إن النتائج التي يمكن أن يصل إليها البحث في هذه الرحلة ليست بسهلة إطلاقاً، ولم تكن بغير تعقيدات، أو صعوبات للوصول إلى مصادر البحث، ومنابع التحليلات دون المساس بأي من المشاعر، وإنما العمل باحترام كامل من جهة، ووضع موازين تقيمية عالية لهذه الشعائر الطقسية الهامة التي لولا أهميتها لما ظلّت متجذّرة في الضمير الجمعي لهذه الآلاف من السنين، خصوصاً وإن عقد المقارنة بهذا الاتجاه، وهذا التخصيص لم يسبق له أن تمّ حتى الآن.. وبهذا الوضوح، والفعالية، والتحقيق الصادق، إضافة لما أكّده الرواة، والمستجوبون من أعلام معروفة على الجانبين، وتوثيق مكتوب بخط اليد.. هذا عدا عن المراجع القديمة، والمهمة التي تشير إلى الأبعاد التأريخية، والفكرية لجذور هاتين الفعاليتين، لم يكن هدفنا غير تأكيد أصالة هذه الظواهر، والوقوف على واقعها لتزويد أبناء الأمة بمادة غنية تفيدهم في إبداعاتهم دون الخلط، والتحفّظ، والتردّد.

وعموماً فإن كلتا السيرتين يجمعهما ذلك الهاجس المشرقي العربي المرهف. وذلك التعلّق بالقيم المثالية التي تنحو لتخليص البشرية من شرورها، وأشرارها. هي على العموم جزء من تكوين الطبيعة المشرقية، والعربية بالذات، لا يختلف فيها إلاّ المعتقد والمذهب في التوجهين الخاصين.

إن مراجعة كاملة لسياق طقوس الجمعة الحزينة، وجذورها التأريخية، والدينية، تجعلنا لا نغفل التعقيبات الهامة التي قد تلقي أضواء أكثر عمقاً للدارس، والباحث الجاد، وكذلك، لذلك الراغب في نهل المعرفة التي تتواجد بين ظهرانينا ولا نحس لها من وجود، ولا نقترب منها لسبب، أو لآخر. ذلك أن التوجّس، يبعد الهاجس، ويقصيه من دائرة الاهتمام. ولقد رغبنا هنا أن نقوم بالتلخيص التالي، بغية إضافة ما كان يؤثر على سياق، وروحية متن النص، لما لهذه التعقيبات من فائدة كبيرة لمن يريد الاستزادة، ومتابعة البحث، وبالتالي التعرف القريب من المداخلات، والتجريدات التي جرت من خلال العنصر التأريخي من جهة، والواعز الديني من جهة ثانية. من كل ذلك توصلنا للاستنتاجات التالية:

الخلاصة

من الدراسة المقارنة وجدنا الآتي:

أولاً:

١ - إن كلا السيرتين حددتا أربعين يوماً في القليل، للموعد المقرر سواء أكان ذلك اليوم العاشر من عاشوراء، أو الجمعة «الحزينة» العظيمة. إضافة للتسعة أيام من محرّم بالنسبة للسيرة الحسينية. أو الجمع السبع بالنسبة للآلام، بحيث يصبح مجموع الأيام، تسعة وأربعين يوماً. أو خمسين يوماً لكليهما.

٢ - حدّد يوم الصلب في الآلام بيوم الجمعة، بينما حدّد اليوم العاشر من محرم يوماً للمقتل في التعازي.

٣ - تكون الأربعين أو الخمسين يوماً من الصوم قبل يوم الجمعة الحزينة، ولا تتأخر بعده. أو يبقى منها بقية للتكامل، لأن القيامة هي التي أنهت طقوس الحزن، فانقلبت إلى أفراح. بينما يكون الحداد بعد اليوم العاشر «عاشوراء» بأربعين يوماً.

٤ - حددت أيام التعازي بعشرة أيام «عشرية» رغم أنها تتبع السنة الهجرية «القمرية»، بينما اتبعت الجمعة الحزينة، وجمع الصوم النظام القمري، رغم أنها تأتي في السنة الميلادية. لهذا لا يكون كلاهما في موعد ثابت من السنة. غير أن الجمعة الحزينة لا تبتعد عن موسم الربيع لارتباطها بمناسبات دينية تتبع السنة الميلادية الثابتة. بينما يدور موعد عاشوراء على أيام السنة لأن كافة المناسبات الدينية الأخرى تتبع نفس النظام.

٥ - يتحدد نوع المأكل في كلا الطقسين، ففي الصوم الكبير يصل الحد لدى بعض المكفرين إلى الانقطاع عن الطعام لمدة نصف يوم، أو ربما النهار بكامله، «بالأحرى من الثانية عشرة لليلة السابقة حتى الثانية عشرة إما صباحاً، أو ليلاً». غير أن التعاليم تقول بأن الصوم لا يتجاوز في أقصاه الانقطاع عن الزفرين. أما في طقوس السيرة الحسينية فيتنوّع بألوانه نكهة، ومذاقاً. لكن غالب الأطعمة تتسم بالمذاق الحلو.

٦ - يعم الفرح بعد اليوم الثالث من الصلب، لأن المسيح قد قام قاهراً بذلك لأعدائه الحقيقيين، سواء الذين ساهموا بصلبه، أو هؤلاء الذين جاء ليخلّص البشر من شرورهم. أم بذلك التصالح بين الطبيعتين «البشرية، والإلهية» الذي أثبته بقيامته. أما في التعازي الحسينية فإن موعد الحزن لمدة أربعين يوماً يبدأ فعلاً بعد اليوم العاشر «يوم عاشوراء».

٧ - كلا السيرتين تحددان ذكرى الأربعين لحدث مشهود، ففي الجمعة الحزينة يكون موعداً للصعود. أما في التعازي فإنه يكون موعداً لجمع الرأس بالجسد، وإكمال مراسم الدفن.

٨ - تؤدى في كلا السيرتين الأدوار تشخيصاً. ففي الجمعة الحزينة تتولى مجموعة الشمامشة، مع الكاهن الدوران حول مراحل درب الصليب. ويمثل نخبة مختارة من الشعب، «رسل المسيح» يوم خميس الفصح الذي يسمى أيضاً «خميس التغسيل». أما في التعازي، فالتشبيه يتم على صعيدين:

الأول - تمثيل الأدوار، وتشخيص المسموح منها.

الثاني - ويبقى الدور الآخر في الجانب الذي يختص بالرواية، والذي لا يستطيع إيفاء حقه أداءً، وتعبيراً قد لا يوصل المعنى المطلوب بموضوعية كاملة.

٩ - يكون وصف الأعداء، وتشخيصهم في كلا السيرتين مرتكز على إبراز الصفات السيئة، والأشكال القبيحة. بينما يحدث العكس بالنسبة للضحايا، والمضحّى بهم.

١٠ - ينذر الناس في كلا السيرتين النذور، وبخاصة السيدات لأطفالهن، شمعة بطول الطفل في أحد الشعانين من أحداث أسبوع الآلام في الجمعة الحزينة. وجرح صغير في رأس طفل في اليوم العاشر من عاشوراء في التعازي.

الاحتفالات الشعبية، والتقمص الاجتماعي التشبيهي داخل إطار السير الدينية. بين فاعل مشارك أو مؤدٍّ للحدث، أو راوٍ ومنشد، ومشاركيه، هي السير الملحمية التشبيهية، الأكثر حيوية، والأعم انتشاراً، أو الأقرب لنفوس الجمهور. وما سرّ امتدادها والصراع حول بقائها إلا ذلك الصراع ما بين الجمهور المتعلق بها، وما بين السلطة. وما بين الفعل التشبيهي، والتمثيلي، وما بين الرغبة في التكفير، والتطهير بطرق مختلفة يصل بعضها إلى موت الفرد. إنها في الحقيقة الدراما المتأصلة في روح الشعب مهما اختلفت أسماؤها وأبطالها ومهما تنوعت أحداثها، وتفاصيل مواقعها. من طائفة إلى أخرى ومن دين إلى آخر، ومن معتقد إلى ثانٍ، ومن شعب إلى غيره.